

النور المبين لعلوم اليقين

تأليف

الإمام المجدد السيد محمد ماضي أبو العزائم

فاتحة الكتاب

الحمد لله دل على ذاته بذاته، وتنزه عن مجانسة مخلوقاته، القريب من
خطرات الظنون، والبعيد عن لحظات العيون، العالم بما كان قبل أن يكون، والصلاة
والسلام على سماء الرفعة القريب في علوه، ونور القدس المتدلي في سموه، سيدنا مُحَمَّد
ﷺ، وعلى آله أهل بيت النبوة، الدعاة إلى الله، والأدلاء على مرضاة الله، وعلى
صحابته الصالحين الراشدين. ورضي الله تبارك وتعالى عن الإمام المجدد السيد مُحَمَّد
ماضي أبي العزائم، ونضر الله وجهه خليفته الأول الإمام الممتحن السيد أحمد ماضي
أبي العزائم... آمين.

و بعد

فتقدم دار المدينة المنورة. وهي إحدى الهيئات التابعة لمشيخة السادة
العزمية. الطبعة الثانية من كتاب (النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين) بعد أن
صدرت طبعته الأولى عام 1332 هـ الموافق عام 1914 م ثم أعاد المجلس الأعلى
للشئون الإسلامية طبعه عام 1392 هـ الموافق عام 1972 م بعد أن قُدم له من
غير أهله، الذين دائماً ما يعثون في مؤلفات الإمام المجدد، بالتعديل والتغيير والحذف
والإضافة، فجاء بعد الطبع محرفاً، أبسط ما يقال عنه أنه تشويه لآثار الإمام المجدد
العلمية، ومنع لوصول مفاهيم معينة أرادها أن تصل إلى الناس.

لذلك قامت دار المدينة المنورة بإعادة طبعه للمرة الثانية، متوخية في ذلك الأمانة العلمية، والدقة في النقل عنه، لأن الخيانة في العلم أكثر إثماً من الخيانة في المال، ولذلك كشف ﷺ ذلك بقوله " تناصحوا في العلم فإن خيانة في العلم أشد من خيانة المال ".

لذلك فإننا دائماً نحذر - القاريء المسلم على وجه العموم، وإخواننا آل العزائم على وجه الخصوص - من قبول أي كتاب من آثار الإمام المجدد، إلا إذا كان صادراً من دار المدينة المنورة، باعتبارها الدار المسفولة عن طبع ونشر وتوزيع كتب الإمام المجدد .

و هذا الكتاب يضم بين دفتيه تمهيد وأربعة أبواب، يشمل كل باب من أبوابه العديد من المباحث.

فأما التمهيد: فيحدثنا الإمام المجدد فيه عن عودة مجد الإسلام، الذي لا يعود إلا بالعمل بأحكام القرآن والسنة، ولا أدل على ذلك من حال سلفنا الصالح، حينما تمسكوا بشرائع الإسلام على الوجه الأكمل، فمكّن الله لهم في الأرض، لا بعدد ولا بعُد، ولكن كان عددهم اليقين، وعُددهم الأخلاق الطاهرة، والحرص على الخير لبني الإنسان. أما واقع المسلمين الآن بعد أن تركنا العمل بالكتاب والسنة، فقد وكلنا الله إلى أنفسنا، فحل الطمع محل القناعة، والأمل محل الخشية، والغرور محل الخوف من الله، والانتقام محل الرحمة، و الحرص على الدنيا محل العمل فيها للأخرة، والمزاحمة فيما يفنى محل المنافسة فيما يبقى. عند ذلك التفّت الله بوجهة الجميل عنا فترقت الكلمة، وذهب السلطان.

و أما الباب الأول: فيتناول الإمام المجدد فيه الإسلام باعتباره دين الكمال الإنساني، والسعادة الأبدية. وهذا الباب ثلاثة مباحث: المبحث الأول- أن بالإسلام

نيل السعادتين في الدنيا والآخرة. والمبحث الثاني - في تأثير الإسلام على المجتمع الإسلامي، حتى تحول المسلم الحقيقي إلى أمة عظيمة. والمبحث الثالث - في اليقظة من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، التي أصابت الأمة الإسلامية، وبيان مراتب اليقظة.

أما الباب الثاني: فيبين الإمام المجدد فيه واجبات المسلم. وهذا الباب يضم مبحثين: المبحث الأول - في الواجب لله سبحانه وتعالى، الذي يقوم على دعوتي المعرفة والشكر. والمبحث الثاني - في الواجب لرسول الله ﷺ، والذي يشمل التصديق به وطاعته واتباعه ومحبته، وتعلم آدابه ووجوب الصلاة عليه، وتعظيم عترته ومودتهم.

و في الباب الثالث: شرح لنا الإمام المجدد موضوع الإمامة باعتبارها النظام السياسي في الإسلام والتي يقوم على أساسها سائر التنظيمات الأخرى، الإجتماعية، والمالية والإقتصادية والعسكرية. فجميع أشكال النظم تعتمد أولاً على الحكم، فإذا وضح شكل الحكومة وأهدافها وغاياتها، سهل علينا التعرف على الأنظمة الأخرى. وهذا الباب يضم ثلاثة مباحث: المبحث الأول - في وجوب تنصيب الإمام وصفته وطريقة إختياره. والمبحث الثاني - في الواجب على الإمام لكل فرد من أفراد المسلمين، والواجب للإمام على كل فرد من أفراد المسلمين وعلى جماعتهم، حتى يتضح للشباب المسلم - سواءً من كان في حقل الدعوة منهم أو في التنظيمات السرية التي أشاعت الرعب في البلاد، أو في الجماعات الإسلامية - أنه وقع ضحية فكر الخوارج، ذلك الفكر المتطرف الذي يحمل بذوره إلى شبابنا دعاة لهم قوة تعبير وحرارة تأثير، أحبوا الدنيا والغرور بزينتها للشهرة والاستعلاء على الناس لذلك: كان سبيلهم الخلاف مع غيرهم، وانتصارهم لمذهبهم بتكفير وتشريك وتحقير غيرهم. فلو كانوا هؤلاء غيورين على الإسلام لكانوا هداة للحق، لا بغاة على الخلق، لأن الهداة يدعون كل الناس إلى الله، من كان ضالاً فليهدتد، ومن كان عاصياً فليثب، ومن كان جاهلاً فليتعلم، ومن كان كافراً فليسلم. والهداة لا يعملون على عقوبة المخطيء بل يعملون

على هدايته ولا يتعقبون المرتد ليقتلوه، بل يتبعونه ليردوه إلى حظيرة الإسلام. ولكن هؤلاء أئمة أهل التكفير والتشريك والتحقير أعماهم التعصب والغلو والتطرف فشحنوا عقول شبابنا بهذه العقيدة المضطربة، عقيدة الخوارج. فصدرت من شبابنا حركات، وردود فعل، تتسم بالسطحية والعشوائية في القول والفعل، ليحني هؤلاء الدعاة الثمرة من هذا الشباب الغير ناضج، عن طريق الثورة المسلحة لإقامة الحكم الإسلامي، وهو الأسلوب الذي ترفضه تعاليم الإمام المجدد أبي العزائم، والذي رفضته من قبل على مر العصور والدهور مذاهب أهل السنة والجماعة، ولم يُعتنق إلا من أصحاب الإمتداد التاريخي لفكر الخوارج.

و المبحث الثالث- في الواجبات العامة، كواجب العلماء والتجار والصناع والمزارعين نحو المجتمع الإسلامي، وواجب الأبناء نحو الوالدين، والواجب على المسلم لإخوانه ولعموم الخلق وللمعلم الخير.

و في الباب الرابع : يحدثننا الإمام عن الجهاد، وأنه ليس المراد به القتال فقط لأن قصر الجهاد على القتال قصور في فهم الفكر الإسلامي، فالجهاد له معنى أوسع من معنى الحرب، ولذلك يقسم الإمام أبو العزائم أنواع الأعداء الذين يتعين علينا جهادهم، بأنهم :-

أولاً : عدو ملازم وهي النفس - جنودها جوارحها المنفذة لأغراضها اللسان والعينان والأذنان واليدان والذكر والرجلان والبطن -.

ثانياً : العدو المفارق وهو الزوجة والأولاد.

ثالثاً : العدو الخارجي وهو الظاهر العلني والمداهن السياسي.

كل هذه ميادين لألوان وأنواع من الجهاد، لا كما يقول أصحاب الإمتداد

التاريخي لفكر الخوارج : إن الجهاد مقصور على القتال والصراع المسلح.

و إني إذ أقدم كتاب (النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين) للشباب المسلم المعاصر، الذي ظهر في الآونة الأخيرة، والذي لا علم له بالشرعية الإسلامية باعتبارها دستوراً للسالكين على طريق رب العالمين، لقلّة بضاعتهم من فقه الإسلام وأصوله، وعدم تعمقهم في العلوم الإسلامية واللغوية، الأمر الذي جعلهم يأخذون ببعض النصوص دون بعض، أو يأخذون بالمتشابهات، وينسون المحكمات، أو يأخذون بالجزئيات ويغفلون القواعد الكلية، أو يفهمون بعض النصوص فهماً سطحياً سريعاً، وما وصلوا إلى هذه الجرأة الشديدة على الكتاب والسنة إلا بعد أن شُحنوا بتعاليم أهل التكفير والتشريك والتحقير وظنوها ديناً مقدساً يدافعون عنه بحماسة بلغت حد التهور، ولهذا كان من وصايا الإمام المجدد السيد مُحَمَّد ماضي أبي العزائم " عمل بلا علم باطل وعلم بلا عمل عاطل".

و قد قال الحسن البصري رضي الله عنه " العامل على غير علم كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علم، ما يفسد أكثر مما يصلح، فاطلبوا العلم طلباً لا يضر بالعبادة، واطلبوا العبادة طلباً لا يضر بالعلم، فإن قوماً طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة مُحَمَّد صلى الله عليه وآله وسلم، ولو طلبوا العلم لم يدهم على ما فعلوه".

و لم أخرج هذا الكتاب في هذه الآونة، إلا لأني على رجاء كبير، وأمل أكيد، بشبابنا المسلم المعاصر، الذي سيثد الله أزره ليجتاز البلبلّة الفكرية والعقائدية، المنبعثة من فكر الخوارج والتي وسوس بها دعاة - سمعوا كتاب الله فحرفوا، وقالوا في سنة رسوله فزيفوا، واحتجوا باطل عقيدتهم فزخرفوا، وقضوا بحكم فكرهم فحرفوا، عقولهم حائرة، وأحكامهم جائرة، لأن ديدنهم المكر وشرعتهم الغدر، وعقيدتهم الكفر، وأخلاقهم الهُجر، وطبعهم عقوق، وعبادتهم مروق -.

فاللهم أعد شبابنا من فتنة أئمة خوارج هذا الزمان، حتى يظهر لشبابنا النور المبين، فيستقيموا على طريق رب العالمين، لينالوا سعادة الدارين.

إن أريد الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله.

الخليفة الثاني

السيد عز الدين ماضي أبو العزائم

التماس الطبعة الأولى 1332 هـ - 1914 م بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذى خلق الإنسان علمه البيان، سبحانه وتعالى، لا أحصى ثناء عليه كما أثنى على نفسه. أرسل رسوله سيدنا ومولانا مُحَمَّدًا ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله. ختم به عقد الرسل الكرام فأنزل عليه القرآن تبياناً لكل شيء، حتى أغنى الله خلقه بما نزل عليه ﷺ عن الاحتياج إلى رسول يأتى من بعده، فكان صلى الله عليه وآله وسلم خاتم الرسل ورسول للخلق كافة. بين الله لنا به صراطه المستقيم، وسبل نيل الكمالات النفسانية، والتخلق بالأخلاق الربانية، والتشبه بعوالم الملكوت الأعلى، والمجاهدة فى نيل السعادتين فشرح لنا ﷺ بعمله وقوله وحاله ما يجب أن نكون عليه من الاعتقاد والعلم والعمل والحال، وبين لنا ﷺ ما يجب علينا لأنفسنا ولربنا _ سبحانه _ وما يجب علينا لكل حى، وصلى الله عليه وعلى آله وسلم.

و بعد فأقول - وأنا العبد المسكين أحمد ماضي أبو العزائم -: إني بعد أملي علي سيدي ومولاي والدي الإمام السيد مُحَمَّد ماضي أبو العزائم كتاب (معارج المقرين) وبين لنا فيه جملاً من علوم النفس، والفرق بين العلم والإيمان، وغير ذلك من العلوم العالية، ظهر احتياجي أنا وإخواني إلى كتاب يفصل لنا فيه الواجب علينا لأنفسنا، ولله ورسوله ﷺ وللوالدين ولأولي الأمر منا وغيرهم ممن له علينا حقوق، تفصيلاً لا يحتاج بعده المطالع إلى معلم يبين له، ولا إلى كتاب يرجع إليه، بحيث تكون عباراته مفهومة للعامة ليكون النفع به أكمل والعمل به أسهل، وأن يكون مشتملاً على الواجب مطلقاً: سواء كان واجباً وجوب الفرائض أو السنن أو الرغائب. فعرضت هذا الأمر علي الإمام، والتمست منه - نفعنا الله بعلومه - أن يملي علي

جملا يبين فيها ما لابد منه مما يتعلق بالمعاملات الحسنة الشرعية، والأخلاق الحممدية بالتفصيل. فانشرح لذلك صدره - أعزه الله وأكرمه - وافتتح بملي علي عليه السلام، ونفعه ونفعنا به آمين .

مقدمة بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام علي فاتح أبواب هذا الخير العظيم شمس الهداية المشرقة الممدة بأنوارها الربانية جميع الأرواح والعقول وآله وسلم.

(وبعد) فإن العلوم إنما تتلقي للعمل بها، وليس العالم من علم. إنما العالم من علم فعمل. والعمل بلا علم لا يرفع. والعلم بلا عمل لا ينفع. وإني أكرر التنبيه لإخواني المؤمنين - وديني الله وإياهم - أن يوجهوا همهم إلى تحصيل العلوم للعمل بها، وإن الأخ في الله تعالي إذا طالع مسألة من العلم فلم يفتح له مغلقتها ولم يظهر له مراد منها ربما أنكر العلم أو أنكر علي العالم، أو ستم العلم وملة. وكل هذه قواطع عن إدراك العلوم، وحجب تبعد الإنسان عن مكاشفة أسرار الفهوم. وأنبه إخواني - أمدني الله وإياهم بروح منه - أن الأخ إذا قرأ جملة من جمل العلم وصعب عليه فهمها، أو خفي عليه مدلولها، أن يتوب إلي الله بإخلاص وصدق، ويسأله سبحانه وتعالى أن يعلمه ما لم يكن يعلم، فإن ورد علي قلبه وارد الفهم، وإلا قام فتوضاً وصلي، واستمد من روحانية رسول الله ﷺ أن يمن الله عليه بفتح هذا المغلق وفهم هذا السر.

وأنبه إخواني أيضاً - علمني الله وإياهم البيان - أن يضمن كل أخ بما فتح الله له من غوامض العلوم إلا لمؤهل، أو لمن كاشفه الله تعالي بما كاشف به أخاه، أو مسلم راغب تأمن عليه أيها الأخ من أن ينقدح الشك في قلبه، أو يشوب إيمانه ما ينقص به.

وأنبه إخواني أيضا إلى دوام دراسة العلم في أوقات الفراغ، وأن الأخ إذا فهم مسألة من العلم يجب عليه أن يسارع بالعمل بها، وأن يبين لأخيه في الله تعالي بالعمل قبل القول، حتى يكون إماما يقتدي به في العمل.

وأنبه إخواني أيضا أن ما وضعته في كتيبي هذه تحريث أن يكون مطابقا للحق بكل اجتهادي، ولكني لا أبرئ نفسي، فمن وجد في كتابي ما لا يوافق الحق، مما وضعته بما في من العجلة والتسرع والغفلة والنسيان، فالواجب علي الأخ- أيداه الله بنور منه - أن يضرب بقولي عرض الحائط، وأن يعمل بالحق الذي وضع له، ولكني أرجوه أن يسأل الله لي المغفرة والعفو، فإنما أنا بشر، وحسن ظني في الله يطمعني في العفو، لأني والحمد لله أكره الباطل وأحب الحق.

وأنبه إخواني أن يجتهدوا في العمل بتلك العلوم، وأن يتابعوا من أن يتكلموا بما إلا إذا كانوا علي بينة من فهم أسرارها، وإمكان التعبير عنها، بما لا يخل بمعانيها، وأجل ما أحبه من إخواني أن يجعلوا غيرهم هو الذي يثني عليهم وعلي علومهم بأخلاقهم الحسنة، وبيان تلك العلوم لكل طبقة علي قدر عقولهم، وبالتواضع لله ورسوله، وبالزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة وبدوام ذكر الله وتذكير عباده به، وبالتباعد عن أماكن التهم ومواضع الريب ليسلموا ويسلم من شره عباد الله.

و الله تعالي أسأل أن يمنحنا جميعا العمل بالكتاب والسنة، والحب في الله، والبغض في الله، إنه مجيب الدعاء. وصلي الله وسلم علي الفاتح لأبواب الفضل العظيم وآله وصحبه وسلم.

تمهيد

معلوم أن النفوس سريعة الانفعال بما تورده عليها الحواس، ودليل ذلك ما تراه يحصل للمسرور إذا رأى ما يحزنه، فإنه ينسي بسرعة بواعث السرور وينفعل بما يراه، وكذلك المحزون إذا شهد ما يسره فإنه ينسي ما كان فيه وينفعل بدواعي السرور. وربما انفعل المتألم بمرض شديد ببشري أو بصوت حسن أو بمعني بديع فعمه السرور، فينسي ألمه حتى لا يكاد يحس به، وذلك مشهود محسوس. وكثيرا ما نسي الإنسان ألم الجوع والعطش بمجرد سماع خبر أو رؤية عدو أو حبيب. وقد يكون الرجل محصورا فيشتغل بشئ فينسي ذلك. وليس ذلك الأمر قاصرا علي النفوس الفاضلة بل هو عام لجميع النفوس حتي النفوس الحيوانية، كما يحصل لكلب الصيد إذا اصطاد مع شدة جوعه وعطشه، فإنه ينسيه سروره بالصيد جوعه وعطشه، ويرجع مسرعا بصيده إلي سيده يصبص حوله به، وكما يحصل للاعب الشطرنج من نسيان ألم الجوع والعطش ونسيان الهموم. كل تلك المثل المحسوسة برهان حق علي أن النفوس جبلت علي التسلي عما دواعيه مؤثرة عليها، فتتأثر النفوس بما تشهده تأثيرا يجعلها تألفه وتأنس به، ولو كان باطلا أو بدعة مضلة.

و قد ظهر هذا الأمر جليا وأصبح المسلم - إلا القليل ممن عصم الله- أنسا بما يشهده من رذائل الأخلاق التي حظر عليه الشرع، ألفا لقبيح الأعمال التي نحصى عنها الشرع مستبدلا جمالات الدين بقبائح البدع، ناسيا مراقبي الخير ومعارج السعادة، فرحا بمدارج الشر ومهاوي الشقاء، ينقاد للرذائل كالسيل في البطحاء، ويقلد في السفاسف والدنايا كتقليد القردة يذم ما مدحه الله تعالي ورسوله ﷺ وما كان عليه أئمه الهدي، ويمدح ما يلائم حظه وهواه، حتي هوي في حضيض الذلّة، وانحط إلي درك الخزي، وصار عالية علي الناس بعد أن كان هو الناس. كل ذلك أشهده بعيني رأسي، وأعلم حق العلم أن ذلك كله من عدم الذكري،

وإهمال أهل العلم في تأدية الواجب عليهم لجماعة المسلمين خوفاً علي أنفسهم من أذية الناس، أو نسياناً للواجب عليهم، وإن خالفني في هذا من لم يطلع علي روح الشريعة المطهرة ولم يقع به العلم علي حق اليقين، ممن يري أن الدين الإسلامي كالأديان الأخرى لا يرتقي أهله إلا بتركه، لأن هؤلاء نظروا بعين رؤوسهم، وجهلوا أسرار دينهم، لأن القرآن الشريف أنزله الله تعالي ضامناً لمن تمسك به العزة والسلطان في الدنيا، والسعادة الأبدية. ويعلم ذلك حق العلم أعداء الدين العقلاء، الذين أسسوا سعادتهم في الدنيا علي الأساس الذي أسسه رسول الله ﷺ من الجد والعمل، وإعداد العدة والعدد، وانتشار العلوم، وما نصح عليه أئمة المهدي : من إحياء الصناعات والزراعات والفنون، وتقوية الأمة وتربية نفوسهم حتي نالوا ما نالوا من سعادة الدنيا ؛ ولا يزال أعداء الإسلام عاملين بالإسلام وأهله تاركين له!!.

و أنت تعلم أيها القارئ أن رسول الله ﷺ بعث بين هذا الحي من العرب وكانوا أذل الناس ذلاً، وأشقاهم عيشاً، وأجوعهم بطناً، وأعرأهم جلوداً، وأثبتهم ضلالاً. من عاش منهم عاش شقيماً، ومن مات منهم ردي في النار. يؤكلون ولا يأكلون. والله ما نعلم قبيلاً من أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منهم منزلاً، حتي جاء الله بالإسلام فمكن به في البلاد، ووسع به في الرزق. وجعلهم به ملوكاً علي رقاب الناس ؛ فبالإسلام أعطي الله ما رأيتم، فاشكروا الله علي نعمته، فإن ربكم منعم يحب الشكر. وأهل الشكر في مزيد من الله تبارك وتعالى. والشكر حقيقة هو العمل بشرائع الإسلام كما قال الله تعالي : ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾⁽¹⁾ فأثبت أن الشكر عمل.

(1) سورة سبأ آية 13

عودة المجد بالعمل بأحكام القرآن والسنة :

و متي عمل المسلمون بأحكام القرآن وبالسنة المحمدية، عاد لهم هذا المجد ودام ما داموا عاملين بالكتاب والسنة. وإليك برهانا يقينا، وهو أن سلفنا الصالح تمسكوا بشرائع الإسلام علي الوجه الأكمل فمكن الله لهم في البلاد، ومحام بهم الظلم والضلال من كل أقطار العالم، وفتح لهم كنوز الصناعات والفنون، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون من خواص الكائنات. وكان المجتمع الإنساني في كل بقاع الأرض بالنسبة لهم أتباعا وهم الرعاة والسادة والقادة، لا لكثرة عددهم بل لعملهم بشرائع الإسلام، فلما حدثت البدع المضلة التي أنتجتها المطامع والأهواء والحطوظ، وأولوا أحكام الإسلام علي الوجه الذي يناسب حظوظهم وأهواءهم، وقعت العداوة والبغضاء بينهم، وقام أهل الأديان الأخرى فرفضوا الدين وراء ظهورهم، لأنه ليس دين الرقي ونهجوا علي الأساس الذي أسسه أئمة الهدي المأخوذ من القرآن والسنة، فتقهقر الذين يدعون أنهم مسلمون لتركهم العمل بالدين الإسلامي، وتقدم الأمم غيرهم لتركهم العمل بدينهم المؤسس علي خراب العمران والرهبانية، والنفور من غير أهل الدين، كما تري ذلك في صريح ما بأيديهم من الكتب السماوية. فنحن تركنا العمل بديننا فتقهقرنا وذللنا وخذلنا، وهم تركوا العمل بدينهم واقتدوا بسلفنا الصالح فسلطهم الله علينا وآتاهم الله زينة وأموالا في الحياة الدنيا بما تمسكوا به من شرائع الإسلام. وذلك لأن القرآن الشريف أمرنا بالعمل للآخرة، وجعل نيل السعادة في الآخرة متوقفا علي العمل للدنيا، لأن كل ركن من أركان الإسلام لا قوام له إلا بالمال.

مكون العلوم التي أظهرتها أركان الإسلام :

انظر إلي الصلاة فإنه اشترط في الجمعة المسجد، والمسجد محتاج إلي بناء ونجار وحداد وعامل، ولا يمكن أن يكون إلا بوجود الصناعات والأموال. واشترط للصلاة ستر العورة ولا تكون إلا بالثياب، والثياب تحتاج إلي مزارع وغزال ونساج ونجار.

وتلك الصناعات تحتاج إلى صناعات كثيرة وأموال كثيرة. واشترط استقبال القبلة لكل مصل، ولا يتسنى ذلك إلا بعلم الجهات الأصلية والفرعية، وعلم تخطيط الأرض ومعرفة جهات الكواكب الثابتة، حتى يهتدي المصلي إلى جهة الكعبة. واشترط للصلاة دخول الوقت، وهو متوقف على علم خطوط الطول والعرض لكل نقطة من نقاط الأرض، ومعرفة سير الشمس وتنقلاتها، حتى أنتجت تلك الشروط اختراع الساعات والمزاويل والبوصلة وعلم المواقيت وعلم الفلك. واشترط الطهارة وهذا الشرط أنتج علم العناية بالأبدان وحفظها من الأوساخ، وعلم أمراض الجلد خصوصا مسح الأسنان بالأراك، فإنه قد ظهر أن أكثر أمراض الجسم الباطنة ناتجة من الأوساخ المتراكمة بين الأسنان وحواليها. فكانت الصلاة سببا في إظهار مكنون علوم لولاها لم يشتغل أهل العلم بتدوين تلك العلوم.

و الصيام متوقف على وجود ما يقتات به عند الإفطار وعند السحور، ولا يكون ذلك إلا بزاد متوفر، إذ كل مسلم لا يجد طعاما عند المغرب وطعاما قبل الفجر ساقط عنه الصيام وهذا لا يكون إلا بكثرة المال.

والحج عبادة مالية أكثر من كونها بدنية، لأن شرطه الزاد والراحلة بعد ترك ما يقوم به أهله حتى يرجع إليهم، ولا يكون إلا بوفرة المال.

و الزكاة هي عبادة مالية صرفه. فإذا كانت العبادات المفروضة قوامها المال فهو دين عمل وكسب للمال ابتغاء رضاء الله، قال تعالى: ﴿الذين إن مكناهم في

الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور﴾⁽¹⁾ هذه الآية الشريفة تدلنا دلالة صريحة على أن المسلمين إذا تمسكوا بشرائع دينهم مكناهم الله في الأرض. وملكهم على من سواهم، فإن مكناهم في الأرض وتركوا شعائر الدين سلط عليهم أعداءهم فجاسوا خلال الديار. نعوذ بالله تعالى من مخالفة شرائع الإسلام المؤدية إلى الخذلان في الدنيا والعذاب في الآخرة. وقال الله سبحانه وتعالى:

(1) سورة الحج - آية 41

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِدَارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾⁽¹⁾ هذه الآية الشريفة برهان جلي علي أن المسلمين إذا أحسنوا في هذه الحياة الدنيا بإتباع شرائع الإسلام فتح الله لهم كنوز السموات والأرض، وأذل لهم غيرهم من الأمم حتي ينقادوا لهم، وفي هذا الوقت تظهر بشاشة الإيمان وحلاوة الإسلام للعالم جميعه بمحافظة المسلمين علي شرائع الدين، فيعتنق أكثر أهل الأرض الدين الإسلامي لأنه مطلوب النفوس إذا تجردت من العصبية والحظ والهوى.

و المسلمون إذا أحسنوا في هذه الدنيا طهروا نفوس الأمم المجاورة لهم من تلك الأمراض، فصفت النفوس ورغبت في الحق وبحثت عنه فوجدته هو الدين الإسلامي.

نظرة إلي حال السلف الصالح وحال المسلمين الآن :

لو قرأت صحيفة من تاريخ السلف الصالح الذين أحسنوا في هذه الدنيا، لعلمت كيف أقبل العالم علي الدين الإسلامي بسرور، واعتنقوه مطمئنين فرحين، لأن أصحاب رسول الله ﷺ جعلهم الله بجمال الإسلام حتي ظهرت حقائق الدين الإسلامي جليلة لكل من شهدهم أو جاورهم.

نشأ الإسلام بمكة فلم تمض سنون تعد علي الأصابع إلا وقد سرت روحه علي سواحل المحيط الأطلانطيقي، وعلي الضفاف الشمالية للبحر الأبيض المتوسط، وانتشرت بسرعة حتي أشرفت أنوارها علي سواحل المحيط الهندي والمحيط الهادي، ولم تقف تلك الروح حتي سرت في آسيا وأفريقيا وأوربا والجزر، واعتنق دين الإسلام أهل العقول والعلم، ودان لسلطان المسلمين بقيتهم، فكان المجتمع الإنساني إما يدين

(1) سورة النحل - آية 3

للإسلام أو يدين للمسلمين بالانقياد. لم يكن ذلك بعدد ولا يقوم كان لهم ملك فقاموا ليجددوه، ولكن كان عددهم اليقين الحق، وعددهم الأخلاق الطاهرة والحرص علي الخير لبني الإنسان. ثم انتقل العالم الإنساني من ظلمات الجهالة والضلالة إلي أنوار الفضائل والرقى فأحيوا الأفكار بالنظر في الآثار، وبحثوا علي خواص الكائنات حتي استنتجوا منافع كل كائن ومضاره، فاستعملوا المنافع وابتعدوا عن المضار، كل ذلك كان باتباع شرائع الإسلام وبالعمل بالقرآن.

و لما ترك المسلمون العمل بشرائع الإسلام، وحل الطمع محل القناعة، والأمل محل الخشية، والغرور محل الخوف من الله، والانتقام محل الرحمة، والحرص علي الدنيا محل العمل فيها للآخرة، والمزاحمة فيما يفني محل المنافسة فيما يبقى، ومالوا إلي زينة الدنيا وبهجتها ونسوا يوم الحساب، ووثقوا بكثرة الأموال وقوة الملك. عند ذلك التفث الله تعالي بوجهه الجميل عنهم، ووكّلهم إلي أنفسهم، وحرّمهم من معيته سبحانه وتعالى الخاصة بهم لعدم اتباع شرائع الإسلام، وعاملهم بسر قوله تعالي : ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بما في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ (1)

و حقا صارت الأموال سبب الفتن والخصومات بين الوالد وولده، وصار الملك سبب الذل والتفرقة، حتي صرفت الأموال في المصائب والخصومات، وقتلت النفوس البريئة طمعا في الدنيا، وتفرقت الكلمة، وتبلبلت الألسن، وذهب السلطان لضعف الإيمان وترك شرائع الإسلام.

(1) سورة التوبة - آية 55

الغرض من الكتاب :

كل تلك الحوادث دعيتني أن ألي إخواني الذين التمسوا مني أن أكتب لإخواني المسلمين مختصراً أبين فيه الواجب للمسلم وعليه، عسي أن تلك القلوب - النائمة نومة الغفلة، الراقدة رعدة الجهالة - تستيقظ. وتلك النفوس - المسجونة في ظلمة الحظ والهوي والنسيان - تتجدد وتبحث عن طريق السعادة في الدنيا والآخرة، وتنهج علي الطريقة المستقيمة التي تنال بها الحسنه من الله تعالي في الدنيا والآخرة. إذا تقرر ذلك فالغرض من الكتاب تحصيل العلم النافع تحصيلاً يكسبنا الخشية من الله تعالي والعمل بشرائع الإسلام، حتي تلين الأبدان والنفوس وتنجذب إلي السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة. هذا هو الغرض الباعث لجمع تلك المذكرات علي أنى أبرأ إلى الله تعالي مما خفى علي في نفسى من الحظوظ الخفية والنزوع الخفي، مما لا حول لي ولا قوة علي دفعه إلا بالله تعالي فإن ذلك من فطر النفوس البشرية.

و أنبه إخوتي المؤمنين إلي أن مختصري هذا إنما وضع ليفتح باباً من أبواب الخير، تنبيهها لأهل الفضل أن يوجهوا همهم إلي الحث علي العمل بشرائع الإسلام. وأكرر الذكرى لأني لست معصوما فقد أخطئ وقد أصيب، ولكني ما كتبت في كتيي إلا ما اعتقدته صواباً، فمن ظهر له الخطأ فيها فالواجب عليه أن يسأل الله لي المغفرة، وأن ينبه علي ذلك بعد البحث والتدقيق، لا ليوقع المسلمين في الاختلاف بل رحمة بإخوته المؤمنين. وأنبه القارئ أن يقرأ تلك الكتب لا بقصد الاعتراض والانتقاد أو التحسس والتجسس، بل يقرأها ليذاكر إن كان عالماً، وليزداد إن كان طالباً، وليتعلم إن كان مبتدئاً. والله سبحانه أسأل أن يحيي قلوبنا، ويمكن لنا في الأرض بالحق، ويمنحنا السعادة الأبدية بالاستجابة لله ورسوله إنه مجيب الدعاء آمين.

الباب الأول

الإسلام دين الكمال الإنساني والسعادة الأبدية

الفصل الأول

بالإسلام نيل السعادتين

كل بني الإنسان لو تجردوا عن الحظوظ الحاجبة للعقول عن إدراك الحق، والأهواء التي تعمي عين البصيرة ؛ لتحققوا أن الإسلام هو الدين الحق الذي به سعادة الدنيا والآخرة حسا وعيانا. وذلك لأن الله سبحانه وتعالى جعل الإنسان نوعا وسطا بين عوالم الملائكة والحيوانات، وهب له العقل الذي يعقل عنه سبحانه، وسخر له ما في السموات وما في الأرض جميعا منه تقدست ذاته. خلق سبحانه آدم علي صورته سميعا بصيرا متكلمًا مؤهلا لتلقي العلم مريدا، وجعله خليفة في الأرض، ومنحه سبحانه عيونا في قلبه يبصر بها أسرار الغيب من الآيات المنبلجة في الآثار، وفطره علي الدين، فلا تري فردا من أفراد بني الإنسان إلا وهو يخنع لقوة يسميها (الله)، اهتدي إلي الطريق الموصل للحق فيها من هداهم الله، وأخطأ طريق معرفته من حجبهم الله، قال تعالى : ﴿ من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾ (1) خلق الله الإنسان ليشهده غرائب قدرته في مكوناته بما جعل له من النور في قلبه ويكاشفه بعجائب حكمته في آياته بما منحه من نور الفكرة، وجعل له قوة يحكم بها، وأعد له لنيل الكمالات الروحانية أو ارتكاب النقائص الشيطانية قال تعالى : (وهديناه النجدين) (2) وقال تعالى : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾ (3) و قال ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ ﴿ اعْمَلُوا فكل ميسر لما خلق له ﴾ (1)

(1) سورة الكهف - آية 17

(2) سورة البلد - آية 1

(3) سورة الإنسان - آية 3

سر الحكمة العالية لعمل الإنسان

فطره سبحانه مضطرا مفتقرا محتاجا إلى المعاونة، وأحاطه سبحانه بكنوز من الخيرات والبركات، وجعل سبحانه مفاتيحها العمل والفكر، ولا لحاجة منه سبحانه إلى عمل الإنسان وهو الغني، ولكنها حكمة عالية. سرها قيام الإنسان بحقيقة الخلافة عن الرب تعالت ذاته، وإظهار الأسرار المنطوية في تلك الآثار لقلبه، ليدوق من ذلك حلاوة الإيمان بكمال التوحيد، ويشاهد من تلك الأسرار معاني تنزلات الأسماء والصفات، ويترقى حتى يتحقق بالعجز المطلق عن إدراك كمالات الذات ولا يكون فتح تلك الكنوز المحيطة بالإنسان إلا بالعناء والعمل، قال الله تعالى : ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه* فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا* ويتقلب إلى أهله مسرورا* وأما من أوتي كتابه وراء ظهره* فسوف يدعو ثورا* ويصلى سعيرا﴾ (2) فهذه الآية الشريفة تدل دلالة صريحة علي أن عناء الإنسان وتعبه وكده وجده لحكمة التقرب من الله تعالى، ولا يكون ذلك إلا بالفكر الناتج عن الذكر : ذكر الذكرى وتلقي الحكمة كما قال الله تعالى : ﴿يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون﴾ (3) ففطرة الإنسان علي الاضطرار والحاجة، سرها فتح كنوز الخيرات والبركات له حسا ومعني.

أنتجت الضرورة علم خواص الكائنات، وإظهار غوامض الآيات واليقين الحق لعلي قدرة القادر وعللي حكمة الحكيم. أنتجت تلك الضرورة الاحتياج إلي

(1) أخرجه البخاري في كتاب القدر 4، ومسلم قدر 6، 7، 8 والترمذي قدر 3، واحمد بن حنبل 4 / 67 وعند أحمد من رواية أخري : ((فاعمل يا ابن الخطاب فإن كلا ميسر)) ومسند الإمام أحمد 2 / 77.

(2) سورة الانشقاق - آية 6 : 12

(3) سورة آل عمران - آية 191

التعاون للتبادل، الأمر المفضي بخراب العمران إذا لم يكن هناك شرع حافظ للقلوب من قلبها في الرذائل والجهالات بما به تزكية النفوس وخشية القلوب، وحافظ للأبدان من تحركها للظلم والمفاسد، ولا يكون هذا الشرع بوضع مخلوق، لأن كل ما وضعه المخلوق إنما يحكم علي الأبدان، لأن المخلوق بنفسه يجهل طرق تزكية النفوس، وعلم مبدئه ومعاده، ولا يعرف قدر الخير الذي يناله من أخيه، ولكن همه في جلب الخير لنفسه ودفن الشر عنها

الأحكام الشرعية علي قدر ضروريات الإنسان :

لما كان الإنسان في أول نشأته منذ أينا آدم قليل الضرورات. أوحى الله تعالي إليه بعد علم التوحيد ما لا بد له منه، ثم أخذ الإنسان لكثير ضرورياته فأرسل الله الرسل بأحكام شرعية علي قدر ضروريات الإنسان في كل زمان ومكان. ومن قرأ القرآن الشريف وقرأ أسفار الأنبياء في التوراة يظهر له حقيقة ما قلت.

أرسل الله شيئا بما يناسب زمانه. ثم أرسل سيدنا نوحا بتوحيد الله وعبادته لما كانوا عليه من عبادة الأوثان. ثم أرسل سيدنا لوطا لينذرهم عاقبة فعل الفاحشة. ثم أرسل سيدنا صالحا عليه الصلاة والسلام ليعلمهم العدل والمساواة، وجعل الله الناقة له آية بعد أن أرسل سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ليطهرهم من رجس الشرك ويوجههم إلي الله تعالي.

فلما أن أخذ الإنسان تكثير ضرورياته وتشتاق نفسه إلي الكماليات، بعث الله سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام يدعو فرعون أولا إلي العدل والرحمة ومساواة جميع بني الإنسان ببعضهم، ويدعو قومه إلي توحيد الله وعبادته، وأنزل الله عليه التوراة. ومن قرأ سفر التالوت في التوراة تحقق قدر الأحكام الشرعية التي كان يحتاج إليها الإنسان في هذا الزمان. ولما كان بنو إسرائيل يهتمون بأعمال الأبدان حتي في زمان سيدنا موسى -ودليل ذلك أنهم اتخذوا العجل ليروه بأعينهم، وزاد علي ذلك أنهم جعلوا الدين وراء ظهورهم وأبدلوه بأهوائهم وحظوظهم - بعث الله سيدنا عيسى

ليمحى تلك البدع التي ابتدعوها في التوراة، وينبهم إلى عمل القلوب، ويخفف عنهم أثقال الأعمال البدنية، بما جاءهم به من الحكمة والبيان.

فكان كل رسول من الرسل عليهم الصلاة والسلام بعثه الله تعالى بخلق من الأخلاق التي يحبها الله تعالى، أو عمل من الأعمال التي يرضاها الله تعالى، كما أرسل الله سيدنا شعيبا بخلق العدالة في وفاء الكيل والوزن بالقسطاس المستقيم. فكان كل رسول ينتظر رسولا بعده، حتى أراد الله تعالى أن يختم الرسالة بسيدنا مُحَمَّد ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم ﷺ فأنزل عليه القرآن تبيانا لكل شئ من ضروريات الإنسان وكمالياته في الدنيا، وفضائله النفسانية وكمالاته الروحانية لنيل سعادة الأبد

القرآن جامع خير بني الإنسان

أنزل الله تعالى القرآن علي حبيبه ومصطفاه ﷺ هدي ونورا مبينا جامعا لكل خير في الدنيا والآخرة. نظر إليه العقل السليم من الحظوظ والأهواء نظرة إكبار وإعظام وتحلة وإكرام، فتلقيه خاشعا خائعا فرحا مسرورا، موقنا أنه السعادة الحقيقية للإنسان والخير الحقيقي له.

أنزل الله تعالى القرآن بالعقائد الإلهية، فلما تليت علي العقل كشفت عنه ستائر الأوهام، وأزالت عنه سحب الجهالات، وبثت فيه نور التوحيد الذي كان حائرا مترددا فيه لا يهتدي إلي طريقة الوصول إليه ولا محجة القرب منه. أنزله سبحانه وتعالى بالأخلاق الطاهرة الفاضلة التي بالتجمل بها يسعد المجتمع الإنساني في الدنيا والآخرة من الرحمة بالخلق، والعاطفة عليهم، وحسن رعايتهم والسعي في نفعهم، وجلب الخيرات لهم ودفع المضرات عنهم، والبر والصلة والوفاء، وإكرام الجار والضيف والرحمة بالحيوانات، وغير ذلك من التخلق بأخلاق الله، والتشبه بأخلاق الروحانيين سكان ملكوت الله، حتي صار الإنسان إنسانا بصورته ومطعمه وضرورياته، وملكا كريما مقربا بعقيدته وأخلاقه.

العبادات والمعاملات لسعادة المجتمع الإنساني :

أنزل القرآن سبحانه بالعبادات المحبوبة للأرواح من صلاة وصيام وزكاة وحج وذكر وفكر وجهاد للنفس وللعُدو مما به تزكية النفوس من لقسها، وتطهيرها من نزوعها، وتذكيرها بنعم الله وبِعظمتِه وكبريائه وجلاله، وشكرا لجناب المعطي الوهاب القادر الحكيم. أنزل الله تعالى القرآن بمعاملات - وما ترك سبحانه صغيرة ولا كبيرة مما لا بد للإنسان أن يعامل أخاه الإنسان فيها إلا أحصاها- ضمننت سعادة المجتمع الإنساني في الدنيا، وراحته ووسعة البركات عليه، وراحة قلبه من العناء وجسمه من البلاء. ضمننت التحابب والتآلف لكل بني الإنسان لو تمسكوا بها، وما من مجمل في

القرآن الشريف إلا وفصله لنا رسول الله ﷺ، ولا مبهم إلا وبينه صلوات الله وسلامه عليه. أنزل الله تعالي القرآن بأقاصيص الأولين وأخبار الماضين عبرة لأولي الألباب وذكرى لكل قلب منيب.

أنزل الله تعالي القرآن منه آيات محكمات هن أم الكتاب قبلها العقل، وقام عاملا بها، وأخر متشابهات ليعلم العقل أنه مخلوق عاجز عن درك الأسرار الإلهية إلا بالالتجاء إلي المعطي الوهاب، والاعتراف بالعجز عن إدراك كمالات الخالق البارئ المصور، فكانت تلك الآيات المتشابهات نورا للعقول الكاملة، وتركبة للنفوس الفاضلة، بما كمل التوحيد بسر العجز عن إدراك معاني الآيات فكيف يمكن أن يدرك كمال منزل الآيات؟ فدلنا القرآن وبيان رسول الله ﷺ أن القرآن خاتم الكتب، وأن سيدنا ومولانا مُحَمَّدًا ﷺ خاتم الرسل، لأن الله تعالي أنزل القرآن جامعا لخير بني الإنسان إلي قيام الساعة، وأن سيدنا ومولانا مُحَمَّدًا ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم أرسله الله سبحانه وتعالى فبين للناس كل ما يحتاجون إليه من الأمور المتعلقة بكل فرد في نفسه منفردا من الأحوال الشخصية، ومع غيره من الأحوال الاجتماعية، مما به كمال الإنسان الحقيقي، والسعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة.

و لم يكن قبل القرآن قانون جامع لبعض ضروريات الإنسان فضلا عن كمالياته إلا ما وجد في سفر التالوت من التوراة مما يحتاج إليه أهل زمانه. وربما اعترض علي معترض فقال: إن للرومان قانونا من قبل عصر المسيح، فأرد عليه قائلا: إن المواد المدونة في الكتاب الذي تدعي أنه القانون الروماني مأخوذ من مذهب مالك من بلاد الأندلس، ولكن الذين ترجموه خدعوا الأمة بالتدليس وادعوا أنه قانون روماني قديم. و من قرأ صفحة من تاريخ الرومانيين يعلم أنهم كانوا أهل مدن فاسقة لأن العدل كان عندهم أن يذل القوي الضعيف لينتفع منه وينفعه، فكانت مدتهم مدنا ضالة لا شريعة لهم إلا القوة، ولو تأملت في فتح المسلمين بلادهم وتحققت أن الأمم المحتملة بهم كانت تعين المسلمين علي الرومانيين، لعلمت كيف كانت أحكامهم الجاهلية. فأين كان هذا القانون الذي ظهر عند ضعف الأندلس؟

جاء عيسى فأمر الأغنياء بترك أموالهم ولم يلتفت إلى الدنيا بعين، وفصل الدين عن الدنيا بكلمته التي قالها : ((أعط لقيصر ما لقيصر وأعط لله ما لله)) . لم يعر الأرحام نظرة صلة لأنه عليه الصلاة والسلام عندما جاءته أمه وأخوه يستأذنان عليه قال : أنا لا أم لي ولا أخ لي، ثم نظر إلي تلاميذه وقال : أنتم أمي وأخي. ترك ما به بقاء العمران بحفظ النسل وهو الزواج. اهتم بالقلوب وترك الأبدان. قال : ما جئت لأهدم الناموس. ولكنه غض بصره عن كل الأحكام المتعلقة بالأبدان. وصدق، لأنه لم يهدم الناموس كله. فلو اقتدي به عليه الصلاة والسلام كل أهل الأرض إقتداء حقيقيا لأصبحت المدن صحاري قاحلة، وانمحت الصناعات والفنون والعلوم.

حتى بعث الله خاتم الرسل ﷺ فأعطي الجسم حقه والنفس حقه، وبني المساكن لنفسه ولأهله والمساجد لعبادة الله، وتزوج، وادخر الأموال لأهله، وقضى بين الناس في الحقوق والخصومات، وزرع بيده ﷺ وحث علي الزراعة، وباع واشتري بنفسه وحث علي التجارة. وكان يصنع لنفسه مالا بد منه، وحث علي الصناعات. وكان ﷺ يتجمل للوفود بأجمل الخلل، ويحب الطيب من المأكول والمشرب إذا يسره الله له من حلال طيب. وكان نظيفا يحب النظافة والجميل من كل شيء، مع كمال تواضعه ﷺ ورضاه بالقليل من كل شيء. كل ذلك لأنه شمس مضيئة لجميع العالم، ولأنه خاتم رسل الله، بعثه الله بكل خير وفضيلة وهدى ورشاد. فلو تجردت العقول عما يعقلها عن الحق من عصبية للآباء وغرور بالسيادة والرياسة وطمع فيما يزول، وظهرت من الجهالة لانقادات لشرائع الإسلام، ولما وسعها إلا أن تحقق من يمنحها عنه ولو كان أبا أو أما، وما يمنحها عنه من ملك ومال. ولو أن بشاشة الإسلام باشرت القلوب لاتسعت وانشرحت الصدور ولم يبق من بني الإنسان إنسان إلا وهو يدين بدين الإسلام. والله تعالي أسأل أن يمن علي جماعة المسلمين بعناية تجمعهم، ومعونة تؤلفهم، ونور يزكي نفوسهم، وقادة يحبهم ويحبونه، وأسأله

سبحانه أن يظهر أنوار الإسلام بقوة المسلمين، وأن يزيل البدع المضلة بنور اليقين، وأن يحيي السنة، ويعلي الكلمة، إنه علي كل شئ قدير، وبالإجابة قدير.

النجاة بالمصطفى ﷺ في الدنيا والآخرة :

إذا تقرر هذا بالبرهان الساطع والحجة البينة ؛ ومعلوم أن الإنسان يهتم بنجاة نفسه وجلب السعادات لها، ويعلم ويعتقد أنه لا نجاة إلا بعمل قلبي وبديني تنال به السعادة. وتقرر أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليسوا مقصودين لذاتهم بل يقصدون لنيل السعادة في الدنيا والآخرة، وأنفعهم لبني الإنسان الرسول الكريم الحريص علي خير الناس، الرؤوف الرحيم بالمؤمنين، الذي بعثه الله للناس عامة، مبينا سبل النجاة ومناهج الخيرات ومحجة السعادة، ظهرت أنوار وصاياه وأشرقت شمس الحق به ﷺ لجميع العالم.

جاء بالعقيدة التي جعلت العقل يعقلها بأجلي برهان، والقلب يطمئن بها، والنفس تسكن إليها. محاً الشرك ﷻ بحق اليقين بالواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. أنزل الله تعالي عليه القرآن مخاطبا له : ﴿يا أيها النبي﴾⁽¹⁾. ﴿يا أيها الرسول﴾⁽²⁾. وجعل أساس العقيدة أنه عبد صرف لذات الله : ﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾⁽³⁾. ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾⁽⁴⁾. وأنه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله كما قال الله تعالي : ﴿قل لا أملك لنفسي نفعا

(1) سورة الأحزاب - آية 45

(2) سورة المائدة - آية 41

(3) سورة الإسراء - آية 1

(4) سورة النجم - آية 1

ولا ضرا إلا ما شاء الله ﴿١﴾ . بشر به السيد المسيح وثبت اسمه في الإنجيل يوحنا عندما سألوا يوحنا (يحيي) : أإيليا أنت ؟ ال : لا . المسيح أنت ؟ قال : لا . الرسول أنت ؟ قال : لا . فتبث بنص الإنجيل أنه يأتي إيليا والمسيح والرسول، وقال المسيح في إنجيل برنابا : الرسول الذي يأتي من بعدي المسمى مُجَّد هو الذي يدخل علي الرب، أمني أن أحمل حذاءه. والبشائر به ﴿ﷺ﴾ في أسفار الأنبياء لا تحصي موضحة اسمه ومحل مولده ومحل هجرته ﴿ﷺ﴾، وأنه من بني عم إسرائيل، وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق، وبنو عمه سيدنا إسماعيل لأن إسماعيل عم يعقوب. ولست في مقام إثبات البشائر به ﴿ﷺ﴾ ولكني في مقام إثبات النجاة به ﴿ﷺ﴾ صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ﷺ﴾ في الدنيا والآخرة.

أسس الدين علي التوحيد الخالص من كل شائبة من شوائب الشرك، منزها ذات الله عن الشبيه والنظير والضد والند والولد والوالد والوالده، وأنه ﴿ﷺ﴾ صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ﷺ﴾ عبد الله ورسول الله ﴿ﷺ﴾ سر قوله تعالي : ﴿ﷺ﴾ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴿٢﴾ وهي حقيقة النجاة وسر مساواة بني الإنسان. ولو نظرنا إلي الأديان الأخرى لوجدنا هذا الأساس الحقيقي وهذا النور المبين الذي هو العقيدة في الأديان الأخرى ينفر منه العقل السليم وتأباه النفس الزكية. وكيف لا وقد جعل بعضهم الشمس إلهًا أو النجم إلهًا أو جعل للإله ولدا أو شريكا تنزه وتعالى. ومنهم من جعله ثالث ثلاثة أو جعله مركبا من ثلاثة حكما علي الغائب بالمشهود، تعالي الله علوا كبيرا.

فانظر أيها العاقل بعين تنجو بما من هاوية الجهل بربك، ومن أليم عذاب الشرك به سبحانه، ومن جحيم الجحود به تنزه وتعالى، واعتقد أن هذا الرسول النبي الأمي رءوف رحيم بك حريص علي خيراتك. دعاك للنجاة بعاطفة أبوة ورحمة

(١) سورة الأعراف — آية 188

(٢) سورة الإخلاص

وحنانة. جاءك بما يقبله عقلك ويطمئن به قلبك وينشرح به صدرك. لم يجعل نفسه إلهًا ولا من الإله ولا حل فيه الإله، بل قال أنا عبد ﴿ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ﴾⁽¹⁾. كثيرا ما بكى رحمة بيبي الإنسان. وكم تحمل الأذية شفقة علي بني الإنسان. لم يدع علي قومه كما دعا السابقون علي أمهم فأغرقهم الله في اليم أو في الطوفان، أو خسف بهم الأرض، أو مزقهم شيعا، أو أهلكهم بالطاعون كما حصل من الرسل السابقين قبله، ولكنه رحمة حقيقية ورأفة وحنان، حريص علي نجاة العالم أجمع.

و ما عليك أيها المعاند لو أنك جردت نفسك لحظة من العصبية، ومن الحظ الذي يعمي البصيرة، ومن الهوي الذي يطمس معالم السر، وبخنت عن نجاتك الحقيقية لتستدل عليها عقلا وفكرا؟ وما عليك أيها الإنسان إلا أن تنظر إلي الأساس الأول وهو العقيدة، وإلي الأساس الثاني وهو تركية النفوس وتطهيرها بالإخلاص في العبادة والفكر والصدق في المعاملة والرحمة ببني نوعك، وإني علي يقين أيها الإنسان العاقل أنك إذا أعرت هذا الأمر نظرة عقلية لعلمت أن هذا السيد الرؤوف الرحيم ﴿ ﷺ ﴾ يجب الإقتداء به والعمل بوصاياه والتصديق بما جاء به، ولا تظن أني أقول لك هذا عصبية لديني. لا ومن فلق الحب والنوي. إنما ذلك بعد نظر واستدلال وبيان وبرهان. حتي انبلج الحق جليا. وظهر النور مضيا. فلا تجعل نصيحتي عداوة وبغضا، وإرشادي لك أيها الإنسان خصومة وغيا. أرشدني الله وإياك لما به النجاة الحقيقية، وهداني وإياك الهداية الحقيقية.

الوصايا الإسلامية

أنبه فكرك - أيها الناظر بنور قلبك، المسترشد بنور فكرك، الناظر بعيون عقلك - إلي نذر يسير من الوصايا القرآنية والإرشادات النبوية لتذوق طهور العلم، وتتجمل بالكمالات الإنسانية التي تفوز بها بالسعادة الأبدية والفوز في الدنيا

(¹) سورة الأعراف - آية 188

والآخرة. وإليك ما ورد من الآيات الدالة على الحث على مكارم الأخلاق والجد والعمل للدنيا والآخرة، والأحاديث النبوية الدالة على ذلك.

الإخلاص لله والإحسان بالوالدين والقربى :

قال الله تعالى : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ﴾⁽¹⁾ وقال الله تعالى : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ﴾⁽²⁾. وقال جللت قدرته : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما واهما أخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾⁽³⁾ وقال سبحانه : ﴿ وآت ذا القربى حقه و المسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ﴾⁽⁴⁾ وقال تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾⁽⁵⁾. هذه وصايا الله سبحانه وتعالى في الإخلاص في عبادته سبحانه، وبر الوالدين وصللة الرحم والإحسان إلى الجيران والرحمة بالخلق أجمعين، تلوح منها أنوار الشفقة الإلهية وأسرار العواطف الربانية وسوايغ

(1) سورة النساء - آية 36

(2) سورة الأنعام - آية 151

(3) سورة الإسراء - آية 23 - 24

(4) سورة الإسراء - آية 26

(5) سورة لقمان - آية 14-15

المنن، إذا تحقق العبد أن ربه سبحانه وتعالى بر يحب البار، وهاب يحب الواصل لرحمه، عطوف رءوف ودود محسن يجب من تخلق بأخلاقه سبحانه، وتحقق العبد أن ذلك موجب لمزيد فضله وواسع نعمائه في الدنيا ونيل الفوز والسعادة الأبدية من ربه سبحانه في الآخرة، اشتاق إلي تلك المعاني وجاهد نفسه حتي يتجمل بتلك الصفات رغبة فيما عند الله، وعملا بما أمر الله، وحبا في الفضيلة وحسن الأحدثوة في الدنيا.

و قال رسول الله ﷺ : (إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنع وهات، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال، وإضاعة المال) (1) وقال ﷺ : (الرحم معلقة بالعرش تقول : من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطع الله) (2) وقال ﷺ : " ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها ". (3) وقال ﷺ : " اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن " (4) وقال ﷺ : " لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر ، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه " (5).

(1) أخرجه البخاري في كتاب الرق : 22، والاعتصام : 3؛ وعند أحمد بن حنبل : ((لعن الله من عق والديه)) المسند / 1 / 317.
(2) أخرجه مسلم في كتاب البر : 17، وأحمد 2 / 19-193-29
(3) أخرجه البخاري في كتاب الأدب : 15، وأبو داود في كتاب الزكاة 45، والترمذي في البر 1 وأحمد بن حنبل 2/163، 1، 193
(4) أخرجه الترمذي في كتاب البر : 55، وأبو داود في الرق : 47، واحمد بن حنبل 153، 158، 177/5 وعند أبي داود : ((أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا))
(5) أخرجه الترمذي في كتاب القدر : 6، وابن ماجة في المقدمة، والفتن : 22، واحمد بن حنبل 5 / 277.

تناول أيها الإنسان العاقل من هذا الشراب وتحقق أن تلك الوصايا النبوية هي معارج للسعادة ومنازل للفوز، واشكر الله علي نعمته العظمي علينا بسيدنا ومولانا محمد ﷺ، وسارع إلي نجاة نفسك بالعمل بوصاياه ﷺ.

الحث علي طلب الكسب الحلال :

قال الله تعالي : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ (1) وقال سبحانه وتعالى : ﴿ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ (2) وقال الله تعالي : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ (3) وقال ﷺ : " ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود . . كان يأكل من عمل يديه " (4) .
و قال ﷺ : ﴿ إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب ﴾ (5) وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالي : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ﴾ (6) وقال تعالي ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ (7) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام

(1) سورة الجمعة - آية 1

(2) سورة الملك - آية 15

(3) سورة البقرة - آية 172

(4) أخرجه البخاري في كتاب البيوع : 15، وعند ابن ماجة بلفظ : ((ما كسب

الرجل كسبا أطيب من عمل يده))، ابن ماجة تجارات 1 / 35

(5)

(6)

(7)

ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك) وقال
 ﴿ﷺ﴾: (يأتي علي الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه أمن الحلال أم من الحرام
 (1) وقال عليه الصلاة والسلام: (الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتهيات لا
 يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في
 الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن لكل
 ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد
 كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) (2). وقال صلوات الله عليه وسلم
 : (إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم) (3) وفي رواية: (إن
 أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه) عن عطية السعدي ؓ أنه
 قال: قال النبي ﴿ﷺ﴾: (لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس
 به حذرا مما به بأس) (4).

وصايا الأخلاق

قال الله تعالي: ﴿ﷻ﴾ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن
 يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم
 ولا تنابزوا بالألقاب بس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون
 ﴿ﷻ﴾ (5).

(1)

(2) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة: 64 : 65 والترمذي في كتاب التفسير سورة

36/2 وأدب 41، والدرامي في كتاب الرق 9، وأحمد 2 / 328

(3) سورة المؤمنون - آية 51

(4) سورة البقرة - آية 172

(5) أخرجه الترمذي في كتاب الفتن 73، 79

و قال الله تعالى : ﴿ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ وَلَا يَأْتِلُ أَوْلُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أَوْلِيَ الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَيُلِصِّفُوا أَهْلَ التَّوْبَةِ أَنْ يُغْفَرَ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾⁽¹⁾ وقال تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾⁽²⁾ وقال تعالى : ﴿ خذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾⁽³⁾ وقال الله تعالى : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾⁽⁴⁾ وقال جل شأنه : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾⁽⁵⁾ وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾⁽⁶⁾ وقال جلَّتْ قُدْرَتُهُ : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾⁽⁷⁾ وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ

(¹) أخرجه البخاري في كتاب البيوع، الإيمان، ومسلم في المساقاة، وأبو داود في البيوع
(²) أخرجه ابن ماجة في كتاب التجارات، واحمد 162/6، وعند النسائي بلفظ ((إن اطيب ما اكل الرجل من كسبه)) النسائي بيوع
(³) عند البخاري بلفظ : " لا يبلغ العبد حقيقة التقوي حتى يدع ما لا بأس به حذرا
مما به بأس))

(⁴) سورة الحجرات - آية 11

(⁵) سورة النور - آية 21-22

(⁶) سورة المجاثية - آية 14

(⁷) سورة الأعراف - آية 199

عداوة كأنه ولي حميم ﴿١﴾ وقال سبحانه وتعالى : ﴿وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾ ﴿٢﴾ وقال ﷺ : ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ ﴿٣﴾ وقال تعالى : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾ ﴿٤﴾ وقال ﷺ : " رحم الله رجلا سمحا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى ". ﴿٥﴾ .

وقال ﷺ : (إن رجلا كان فيمن قبلكم أتاه الملك ليقبض روحه فقبل له : هل عملت من خير ؟ قال: ما أعلم، قيل له: انظر قال: ما أعلم شيئا غير أني كنت أبايع الناس في الدنيا وأجازيهم فأنظر الموسر وأتجاوز عن المعسر، فأدخله الله الجنة) ﴿٦﴾ ، عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا يرحم الله من لا يرحم الناس) ﴿٧﴾ وقال

﴿١﴾ سورة آل عمران - آية 133-134

﴿٢﴾ سورة المائدة - آية 2

﴿٣﴾ سورة فصلت - آية 34

﴿٤﴾ سورة القصص - آية 77

﴿٥﴾ سورة الحج - آية 41

﴿٦﴾ أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، وعند أحمد بلفظ " أتاه الملك ليقبض نفسه " مسند أحمد 395/5

﴿٧﴾ وعند الطبراني عن ابن مسعود ((من لم يرحم الناس لا يرحمه الله)) مجمع الزوائد 187/8.

﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ : (الساعي على الأرملة والمسكين كالساعي في سبيل الله. وأحسبه قال : كالقائم لا يفتر وكالصائم لا يفطر) (1)

و قال ﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ : " أنا وكافل اليتيم له ولغيره، في الجنة هكذا ". وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئاً (2) وقال عليه الصلاة والسلام : (" المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً 0 ثم شبك بين أصابعه) (3) وقال ﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ : " انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ". فقال رجل يا رسول الله هذا أنصره مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً قال " تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه) (4) وقال ﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ : (المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى هاهنا ((ويشير إلى صدره ثلاث مرات)) بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه) (5) وقال ﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ : (مازل جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه) (6).

(1) وعند الترمذي بلفظ ((الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل)) صحيح الترمذي 146/8 وفي مجمع الزوائد 16/8 عن عائشة ؓ قالت : قال رسول الله ﷺ ((أنا وكافل اليتيم كهاتين، وجمع السبابة والوسطى، والساعي على اليتيم والأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله والصائم القائم لا يفتر)) رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط. (2) أخرجه البخاري في كتاب الطلاق، والأدب، ومسلم في الزهد، وأبو داود في الأدب، والترمذي في البر، الموطأ شعر، وأحمد 333/5، 375/2.

(3) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، والمظالم، ومسلم في البر، والنسائي في الزكاة، وأحمد 45/4، 49. (4) أخرجه البخاري في كتاب المظالم، والإكراه، والترمذي في الفتن، والدارمي في الرق، وأحمد بن حنبل 99/3، 21 في كتاب الإكراه، ومسلم في البر، والترمذي في البر. (5) أخرجه أحمد بن حنبل في المسند 68/2، 377، 91/3 والبخاري.

(2) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، ومسلم في البر، وأبو داود في الأدب، وابن ماجه في الأدب، وأحمد 85/2، 32/5. (3) عند البخاري في كتاب الاستنباه والاستئذان، والدعوات، ومسلم في البر، والترمذي في الاستئذان، وابن ماجه في الأدب والدارمي في الرق، والموطأ مالك بلفظ ((إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله))، وعند أبي داود في كتاب الأدب بلفظ : ((يحب الرفق ويعطي مالا يعطي على العنف)).

(4) أخرجه مسلم في كتاب البر، وأبو داود في الأدب، والترمذي في البر، وابن ماجه في الأدب، وأحمد 362/4، 366.

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه) ⁽¹⁾ وقال: (من يجرم الرفق يجرم الخير) ⁽²⁾. وقال: (إن الحياء من الإيمان) ⁽³⁾ وقال: (الحياء لا يأتي إلا بخير) ⁽⁴⁾. عن نواس بن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم عن البر والإثم فقال: (البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس) ⁽⁵⁾. وقال ﷺ: (إن من أحبكم إلى أحسنكم أخلاقاً) ⁽⁶⁾. وقال ﷺ: من أعطي حظه من الرفق أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة، ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من خير الدنيا والآخرة) ⁽⁷⁾. عن أسامة بن شريك قال: يا رسول الله ما خير ما أعطي الإنسان؟ قال: (الخلق الحسن). وقال ﷺ: (إن أتقل شيء يوضع في ميزان المؤمن يوم القيامة خلق حسن وإن الله يبغض الفاحش البذي) ⁽⁸⁾. وقال ﷺ: (ألا أخبركم بمن يحرم على النار وبمن تحرم النار عليه، على كل هين لين قريب سهل) ⁽⁹⁾. وقال ﷺ: (المؤمنون هينون لينون كالجمل الأنف، إن قيد

⁽⁵⁾ أخرجه البخاري في كتابي الإيمان والأدب، ومسلم في الإيمان، وأبو داود في السنن، والترمذي في البر والإيمان، والنسائي في الإيمان، وابن ماجه في المقدمة، والزهد، ومالك في الموطأ في حسن الخلق، وأحمد 2 / 56، 147

⁽⁶⁾ أخرجه البخاري في كتاب الأدب ومسلم في الإيمان.

⁽⁷⁾ أخرجه الترمذي في كتاب الزهد، ومسلم في البر، والدارمي في الرق، وأحمد 4 / 282

⁽⁸⁾ أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، والمناقب، والترمذي في البر، وأحمد في المسند 4 / 193، 194، وعند أحمد من رواية أخرى ((إن أحبكم إلي محاسنكم أخلاقاً))

⁽⁹⁾ عند الترمذي وأحمد: ((من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير))، سنن الترمذي في كتاب البر، ومسنده أحمد 159/6، 451.

⁽¹⁾ أخرجه الترمذي في كتاب البر وأحمد 162/2، 199

⁽⁷⁾ عند الترمذي في باب القيامة: ((تحرم النار على كل قريب هين سهل)) وعند أحمد ((حرم على النار على كل هين))، ومسنده أحمد 1 / 415.

⁽⁸⁾ عند ابن ماجه في المقدمة، وأحمد في المسند 146/4 بلفظ ((إنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد اقتيد أو انقاد)). وفي رواية مسلم: ((..... فانقادت معه كالبعير المشخومي الذي يصانع قائده)).

⁽⁹⁾ أخرجه أبو داود في الأدب، والترمذي في البر، والقيامة، وابن ماجه في الزهد، وأحمد في المسند 3 / 438، 48.

اتقاد وإن أنيخ على صخرة استناخ (1). وقال ﷺ: (من كظم غيظا وهو يقدر على أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره في أي الحور شاء) (2).

أيا رفقتي يا خلتي يا أحبتي علي ألعروة الوثقي فسيروا وأرفقوا
ألا فاجتماعا بالقلوب وألفة و عوننا على عمل المكارم تلحقوا
و إياكمو أخلاق إبليس إنهما لقد أبعدته وهو طاووس رامق
دعوا الكبر والحسد القبيحين سادتي دعوا طمعا فيما يزول، وسابقوا
و سترأ لعورات الأجابة كلهم و عفوا عن الزلات، فالعفو أرفق
و غضوا عن المكروه أعين عفة و جودوا ببشر، فالسماحة رونق
و إياكمو وعدوكم سوء خلقكم و طمعا، وحب الجاه فهو يفرق
توادوا بروح الله بالله وابدلوا لإخوانكم عند اللزوم وخالقوا
و كفوا عن التنفير واسعوا لجمعكم علي الله فالدينا متاع □ مفارق
ألا من يكن في قلبه بعض ذرة من الكبر والأحقاد ما هو ذائق
ألا طهر الأخلاق والنفس زكها و إلا فسهم البعد يرمي فيفتق
ألا يا أخي بالذل ترقي وترفعن و بالزهد تعطي ماله تتشوق
تخلق بأخلاق الإله وحافظن علي منهج المختار في العقد تنسق
و دع عنك ميلا للحضيض وزينة بها اشتغل اللاهون عنه وفارقوا
و قم داعيا لله بالحكمة التي بها قد حباك الله وهو الموفق
و لا تسع للتفريق واجمع له به عليه أولي التسليم إذ أنت واثق
ألا سارعوا أحيوا السنة أحمد ففتنه هذا العصر كالنار تحرق
ألا أطفئوها باليقين تجردوا عن الحظ والأهواء فالحظ مفرق
و جدوا و جودوا بالنفوس تحفظا علي السنة الغراء فالله خالق

ألا بعتمو الله مالا وأنفسا بمفهوم (إن الله) ⁽¹⁾ والذكر ينطق
وعلما بأن الدين حسن عقيدة وخلق وأعمال بما الذكر ناطق
ألا خلصوا الأرواح من سجن نأيها وجدوا لتزكية النفوس وسابقوا
ألا جاهدوا تلك النفوس بهمة تفوزوا برضوان من النار تعتقوا
علي سنة المختار سيروا بهمة عسى الله يحيننا به ويوفق
و يحو بنا البدع التي عم نشرها ليشرق شمس الدين والشرق مشرق
ألا فابغضوا من أكد الله بغضه أحبوا بحب الله والحظ فارقوا
ألا فاحفظوا الأركان أركان ديننا صلاة صياما ثم حجا تصدقوا
أدبوا لذكر الله فالذكر نوره لأهل الهدى، والغى لاشك فارقوا
ألا عظموا لشعائر الله تعظموا بما وتسودوا في القيامة تسبقوا

الوصايا بالوفاء وغيره من الفضائل الشرعية :

قال تعالى : ﴿ ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا
{25} وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا {26} إن
المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا {27} وإما تعرضن عنهم
ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا {28} ولا تجعل يدك مغلولة إلى
عقنك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا {29} إن ربك ييسر الرزق لمن
يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا {30} ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن
نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا {31} ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة
وساء سييلا {32} ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد
جعلنا لوليها سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا {33} ولا تقربوا مال اليتيم
إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا {34}

(¹) يشير الى قوله تعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بأن لهم الجنة ...)

الآية.... (سورة التوبة آية 111).

وأوفوا الكيل إذا كلمتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً {35} ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً {36} ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً {37} كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً ﴿١﴾. وقال تعالى: ﴿يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً واقصد في مشيك واغضض من صوتك﴾ ﴿١﴾. وقال سبحانه وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ ﴿٢﴾.

و قال الله تعالى: ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجله أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾ ﴿٣﴾. وقال ﷻ: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به﴾ ﴿٤﴾. وقال تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾ {90} وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴿٥﴾. وقال الله تعالى: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ {63} والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً {64} والذين

(١) سورة لقمان - آية 17 - 19

(٢) أول سورة المائدة

(٣) سورة المؤمنون - آية 57-61

(٤) سورة النساء - آية 58

(٥) سورة النحل - آية 9 - 91

يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما {65} إنها ساءت مستقرا ومقاما {66} والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما {67} والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما {68} يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا {69} إلا من تاب وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما {70} ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا {71} والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما {72} والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا {73} والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما {74} أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما {75} خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما ﴿١﴾ . وقال ﴿ﷺ﴾ : (أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر) (2) . عن صفوان بن عسال ؓ قال : قال يهودي لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبي، فقال له صاحبه : لا تقل نبي إنه لو سمعت كان له أربع أعين، فأتيا رسول الله ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم ﴿١﴾ فسألاه عن تسع آيات بينات فقال لهما رسول الله ﷺ صلى الله عليه وآله وآله وسلم ﴿٢﴾ : (لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تمشوا برىء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنة، ولا تولوا الفرار يوم الزحف. وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا في

(1) سورة الفرقان - آية 63 - 76

(2) أخرجه البخاري في الإيمان والشهادات والوصايا والمظالم والجزية والأدب، وأبو داود في كتاب السنة، والترمذي في الإيمان والنسائي في الإيمان، وأحمد في المسند 2/ 189، 198.

السبت). قال : فقبلا يديه ورجليه وقالوا : نشهد أنك نبي، قال : (فما يمنعكم أن تتبعوني ؟) قالوا: إن داود دعا ربه أن لا يزال من ذريته نبي وإنما نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا اليهود) وقال ﷺ : (ثلاث من أصل الإيمان : الكف عن من قال لا إله إلا الله لا تكفره بذنوب ولا تخرجه من الإسلام بعمل، والجهاد ماض مذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل، والإيمان بالأقدار) (1).

هذه نماذج من وصايا الله سبحانه وتعالى ووصايا رسول الله ﷺ عليه وآله وسلم وهي قطرة من المحيط الأعظم جعلتها نورا لقلبك وبرهاننا لعقلك، وهداية لنفسك، لتعلم حق يقين أن الدين الإسلامي هو دين الله حقا الذي خلق الخلق بقدرته، وجعل الإنسان وسطا بحكمته، وأهله لأن يكون في أعلى عليين باتباع وصاياه. أو في أسفل سافلين بمخالفة أمره ومعصية رسله صلوات الله عليهم وسلامه.

كتبت لك هذه القطرة من البحر اللجي لتعلم حق العلم أن تلك الوصايا والحكم دالة على الخير الحقيقي موصلة إلى السعادة الأبدية، بما سعادة المجتمع الإنساني، واتباعها الفوز بالرضوان الأكبر من الله تعالى. وأن تلك الوصايا والحكم جامعة لخير الإنسان منفردا ومجتمعيا في كل أنواع المجتمعات. وهي كليات تضمنت كل جزئيات العادات الحسنة، والأخلاق الفاضلة، والمعاملة العادلة، وشيم النفوس الكريمة، وأعمال القلوب الخالصة لله تعالى من عقائد ونوايا وقرب وخشية وصدق وإخلاص ويقين وطمأنينة وروية.

فلعلك أيها الأخ أن تجذبك يد العناية بما شهدت من تلك الآيات البينات والأحكام المحكمات، فتتجمل بهذا الجمال الإسلامي وتتحصن بحصون الأمن المنيع، حتى تحفظ من عذاب ضميرك برذائل النفس، وأليم العذاب يوم الحساب من اعتقاد العقائد الباطلة والسقوط في هاوية الجحيم بالأعمال المهلكة، وإنما ذلك رغبة في سعادتك وحبا في خيرك. وكيف لا، والدين يأمرني أن أرحم كل ذي كبد رطبة،

(1) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد

فشفقتي على الإنسان واجبة علي كشفقتي على نفسي، والله سبحانه وتعالى يجعل لي قسطاً من الخير ويمنحني الإخلاص في إرادة الخير والرحمة لجميع الناس، ويمنح قاريء هذا المختصر نور هداية وقبول، إنه على كل شيء قدير، وصلى الله على سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم.

الفصل الثاني تأثير الإسلام على الإنسان من هو الإنسان الذي أريده ؟

قبل شرح هذا الموضوع أقدم مقدمة أبين فيها من هو الإنسان الذي أريده : لا أريد بالإنسان الهيكل المعتدل القامة العريض الأظفار الذي يمشي على رجلين، لأنني سبق لي عند التكلم على درجات تكوين الإنسان الإشارة إلى سر الحكمة في تطوره في تلك المراتب كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ ⁽¹⁾. وأشرنا إلى ما أودعه الله من القوى في الإنسان، فإنه سبحانه وتعالى قد جمع في الإنسان قوى بسائط العالم ومركباته، وروحانياته وجسمانياته ومبدعاته ومكوناته، فالإنسان من حيث أنه بوساطة العالم حصل، ومن أركانه وقواه أوجد : هو العالم. ومن حيث أنه صغر شكله وجميع ما فيه : كالمختصر من الكتاب، وهو الذي قلل لفظه واستوفي معناه، والإنسان هكذا هو إذا اعتبر بالعالم. ومن حيث أنه جعل من صفوة العالم ولبابه وخلاصته وثمرته فهو كالزبد من المخيض، والدهن من السمسم، فما من شيء إلا والإنسان يشبهه من وجهه، فإنه كالأركان من حيث ما فيه من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة. والمعادن من حيث هو جسم. والنبات من حيث ما يتغذى ويتربى. والبهيمة من حيث ما يحس ويتوهم ويتخيل ويلتذ ويتألم، وكالسبع من حيث ما يحرص ويغضب. والشيطان من حيث ما يغوي ويضل. والملائكة من حيث ما يعرف الله تعالى ويعبده ويطيعه. والروح المحفوظ من حيث قد جعله الله

(1) سورة المؤمنون - آية 12-14

مجمع الحكم التي كتبها فيه على سبيل الاختصار. فقد ذكر بعض الحكماء في بدن الإنسان أربعة آلاف حكمة وفي نفسه قريبا من ذلك. وكالقلم من حيث ما يثبت بكلامه صور الأشياء في قلوب الناس كما أن القلم يثبت الحكم في اللوح المحفوظ. ولكون الإنسان من قوى مختلفة قال تعالى: ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ﴿١﴾ أى مختلطة من قوى أشياء مختلفة.

و لكون العالم والإنسان متشابهين، إذا اعتبرا، قيل: الإنسان عالم صغير، والعالم إنسان كبير. ولذلك قال الله تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴿٢﴾. فأشار بالنفس الواحدة إلى ذات العالم.

و لما كان كل مركب من أشياء مختلفة يحصل باجتماعها معنى ليس بموجود فيها على انفرادها، كالمركبات من الأدوية والأطعمة، كذلك في نفس الإنسان حصل معنى ليس فيه شيء من موجودات العالم، وذلك المعنى هو ما يختص به من خصائصه التي بها تميز عن غيره من هيئات له كانتصاب القامة وعرض الظفر، وانفعالات له كالضحك والحياء، وأفعال كتصور المعقولات وتعلم الصناعات واكتساب الأخلاق. فالإنسان المقصود في موضوعي هذا هو الذي كملت فيه قوة التخيل والتصور والفكر والعقل، فإنه هو الإنسان القابل للكلمات النفسانية وهو المراد بشرح هذا الموضوع الجليل. وليس من كملت فيه قوة النزوع كالنبات، أو قوة جلب الخير ودفع الضر عن نفسه كالحيوان، فإنه ليس عندي: بإنسان بمعناه الحقيقي سر قوله: ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴿٣﴾. وقوله تعالى: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بما ﴿٤﴾. فالإنسان هو المقصود من العالم كله، لأن الله

(١) سورة الإنسان - آية 2

(٢) سورة لقمان - آية 28

(٣) سورة الفرقان - آية 44

(٤) سورة الأعراف - آية 179

خلقه بعد خلق جميع الكائنات، فهو زبدة الموجودات وخلاصتها بحكمة عليّة تظهر لمن ذاق حلاوة قوله تعالى : ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ ⁽¹⁾ ومن تناول طهور شراب : ﴿إن المتقين في جنات ونهر {54} في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ ⁽²⁾ فالإنسان المقصود بالذات، خلقه الله تعالى ليكمل به ملكوته الأعلى. خلقه على صورته. جملة بمعاني صفاته. أشهده بديع جماله. هو الإنسان المتخيل المتصور المفكر العاقل، وما عداه فحيوان على صورة الإنسان أو أضل من ذلك لجهله بمبدئه ومعاده وغروره بعاجل حظه وهواه.

المقام العلي :

و هنا بعد أن علمت من أحاطب بعبارتي، أشرح لك المقام وأكتفي بالتلويح عن التصريح وبالإجمال عن التفصيل لأني أحاطب :

ألمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمع معلوم أن الإنسان جمع الله فيه كما تقدم روحانيات العوالم العالية، وخواص الأنواع الدانية من حيوانات ونباتات وقوى النفوس الإبلسية، فهو وإن كان صغير الجسم عالم كبير، قال تعالى : ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا﴾ ⁽³⁾ فالإنسان إذا تكمل بالكمال الحقيقي المؤهل له وقهرت نفسه الملكية (الناطقة) بقية القوى وسخرتها لجلب تلك الكمالات، رقى على مراقبي القرب حتى يصل إلى مقام تخدمه الملائكة المقربون، ويواجهه رب العزة ﷻ، ويكون مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وهو المقام العلي الذي يتنافس فيه المتنافسون، ويحج إليه العارفون، وتتأله له الأرواح الكاملة والنفوس الطاهرة.

(1) سورة البقرة - آية 3

(2) سورة القمر - آية 54-55

(3) سورة النحل - آية 12

نتائج الجهل وإهمال التزكية :

فإذا أهمل تزكية نفسة انزوت تلك النفس الطاهرة الملكية، وتسلطت بقية القوى على الإنسان، فإن غلبت عليه النفس الإبليسية كان حسودا لجوجا جاحدا منكرا مفسدا متكبرا، قال تعالى : ﴿ قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين ﴾ {75} قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين {76} قال فاخرج منها فإنك رجيم {77} وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين ﴿ (1). أعماه الجهل والعباد بالله عن فضل الله الذي يؤتیه من يشاء، فظن لجهله أن عنصر النار خير من عنصر التراب وجهل الفضل الإلهي، فكذلك الإنسان الجاهل المنقاد لقواه الإبليسية يهوي إلى حضيض الفتن والمقت كما قال الله تعالى توبيخا لمن أعماهم الجهل : ﴿ مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴾ (2). وقال تعالى أيضا : ﴿ فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر ﴾ {24} أولقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر ﴿ (3).

أعماهم الجهل عن شهود الفضل الإلهي كما أعمى إمامهم إبليس عليه لعنة الله. فالإنسان يبلغ من الكمال النفساني الجسماني إلى أن يصير في مقعد صدق عند مليك مقتدر تخدمه الملائكة، ويبلغ من النقصان وإهمال تزكية نفسه إلى أن يصير في هاوية الجحيم مع إبليس الرجيم الذي سن له تلك الضلالة.

كمال الإنسان الحقيقي :

لا يكون كمال الإنسان الحقيقي إلا بقوة تؤثر عليه تأثير رغبة ورهبة، ويكون التأثير حاصلًا على جميع القوى قلبًا وجوارحًا ونفسًا وعقلًا وخيالًا وتصورًا

(1) سورة ص - آية 75-78

(2) سورة الفرقان - آية 7

(3) سورة القمر - آية 24-25

وفكرا. والعاقل لو نظر بعين فكرته يتحقق جليا أن تلك المؤثرات الحقيقية لا تكون إلا من الخالق المصور القادر الحكيم. ونعم، فإن الله بعث الرسل عليهم الصلاة والسلام وأنزل عليهم الكتب كما قدمنا بحسب كل زمان ومكان، حتى أخذ الإنسان يشعر بكمال حقيقي وشرف، فأرسل الله سيدنا ومولانا مُحَمَّدًا ﷺ وأنزل عليه القرآن طهورا للأرواح، ونورا للعقول، وجمالا للأفكار، وحياة للخيال، فاقتبس العقل من وميض أنواره ما به سجد خانعا، وتناولت الأرواح من طهور شرابه ما به قوي حينها إلى عالمها، واشتد ولهها إلى وطنها الأصلي فتكاد لشدة شوقها إلى عوالمها العالية أن تدم هذا الهيكل فرارا إلى مجانسها من مفارقتها، وسبح الفكر في محيط الحياة فاغترف منه ما به فتق رفق الكائنات حتي أشرف على عوالم الملكوت الأعلى، وصفا الخيال حتى تمثلت فيه حقيقة الآيات الدالة على خالص التوحيد فانتشل من أوحال الأوهام وشكوك الأهواء وريب الحظوظ. فكان القرآن خمرا للأرواح، ونورا للعقول، وروضا زاهرا للأفكار. وجمالا جليا للخيال. تألمت الأرواح بطهوره الصافي. اطمأنت القلوب ببيانه الوافي. انشرح الصدور ببشائره اليقينية. أقبلت العقول خانعة لأنواره، سجد الخيال إكبارا لجماله.

هذا تأثير القرآن على المؤهلين لرفيع الدرجات. عرجت به الأرواح إلى فسيح الملكوت، ثم أشرفت على حظائر العزة، ثم خشعت وخنعت عندما أشرفت أنوار الجبروت. أخي : إنما أتكلم على قدر ما شهدت وإنما هي قطرة في فم عصفور من محيط أعظم من تلك الأسرار، وأستغفر الله، بل هي قطرة صغيرة في فم بعوضة من هذا المحيط الأعظم.

اللهم عفوك ومغفرتك. هذا قسط النفوس الطاهرة سر قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ {30} نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي

أنفسكم ولكم فيها ما تدعون {31} نزلا من غفور رحيم ﴿١﴾ . وسر قوله سبحانه وتعالى : ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ ﴿٢﴾ وسر قوله تعالى : ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ ﴿٣﴾ . وقوله سبحانه وتعالى : ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا {23} ليجزي الله الصادقين بصدقهم﴾ ﴿٤﴾ . وقوله تعالى : ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون {62} الذين آمنوا وكانوا يتقون {63} لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾ ﴿٥﴾ .

أنواع مدن الأرض عند نزول القرآن :

أخاطبك أيها الأخ على قدر ما يقبل عقلك، وما يتمثله خيالك، وما ينتقش في لوح نفسك، فإذا أنت قبلت كان لك حظ من تلك الأنوار وقسط وافر من تلك الأسرار، أنزل الله تعالى القرآن على أمة جاهلة، لا أعني العرب فقط، ولكني أقول إن كل مدن الأرض في ذلك الزمان كانت بين مدن جاهلة أو مدن فاسقة أو مدن مبدلة أو ضالة، ولم يكن ثم فضيلة بمعناها، إذ الأعمال الفاضلة قد تصدر عن القردة والخنازير والنسانيس والفيلة والنمل والنحل والجرذان أيضا، ولكن لا نحكم أنها فضيلة وإنما هي أعمال إلهام فطرية، وكذلك كانت الفضائل التي تصدر عن الإنسان إنما هي إلهامية فطرية، لم يقصد بها تركيبة للنفس ولا تصفية للخيال ولم تصدر عن

(١) سورة فصلت - آية 3-32

(٢) سورة البقرة - آية 257

(٣) سورة الأنعام - آية 125

(٤) سورة الأحزاب - آية 23-24

(٥) سورة يونس - آية 62-64

روية بالفكر. وأنت أيها الأخ معي في هذا حسا ومعنى لو جردت نفسك من حظك وهوأك. ما هي المدن التي كانت قبل بعثة رسول الله ﷺ ؟
كانت بين مدن جاهلية عربا وعجماء، أو مدن مبدلة نصارى ويهودا، ولو أنك أثبت لي فضيلة بمعناها في مدينة ما لشخص ما بالاستقراء لأجبتك أن تلك الفضيلة لم تصدر عن قلب مؤهل يريد الكمالات النفسانية، عالم بقدر رتبته في الوجود ومنزلته في الكون، متيقن بيوم الحساب راغب في ملاذ الروح حقا، عامل لخير بني الإنسان.

نظرة إلى تلك المدن بعد شروق شمس القرآن :

و لكن انظر نظرة حكيم إلى تلك المدن بعد شروق تلك الشمس، وتأمل كيف سرت فيها الروح الإلهية كما تسري النار في الخشب اليابس، فنوعت الأفكار وطهرت النفوس وجملت الأخلاق وحسنت المعاملات وجعلت الإنسان أخا الإنسان. انظر كيف صار بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي وحرثة وزيد بن حارثة وأسامة بن زيد وأبو رافع النوبي ﷺ أئمة هدى وشموس بيان وقادة المؤمنين، وهم من تعلم نسبا وحسبا ومنزلة وقدرًا. جاء الحق فمحق الباطل، أصبحت التيجان تحت الأقدام ولابسوها عبيدا، بم ذلك؟ ولم ذلك؟ أكل الجواب إليك وأنبه فكرك إلى فهم قوله تعالى : ﴿ وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ (1).

لم تقف أنوار الإسلام على التأثير على العقول والنفوس والخيال والبصائر، ولكنها أشرقت بمعنى أكمل، فجعلت الزواجر والحدود حصونا مانعة للشر وأهله، كابحة جماح أولي الطغيان، ماحقة أهل الظلم والفساد، إقرأ قوله تعالى : ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ (2) وقوله تعالى : ﴿ من قتل نفسا بغير نفس أو

(1) سورة القصص - آية 59

(2) سورة البقرة - آية 179

فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ﴿١﴾ . وقوله تعالى : ﴿ النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ﴾ ﴿٢﴾ وقوله تعالى : ﴿ إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ﴾ ﴿٣﴾ وقوله جلت قدرته : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ﴾ ﴿٤﴾ .

و قوله : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾ ﴿٥﴾ نزل القرآن فجذب النفوس الطاهرة بما سنه لها من أنواع التزكية وما كاشفها به من النعيم المقيم الأبدي والفضل الواسع السرمدي وحظر على النفوس اللقسة بما جعله عقوبة لها في الدنيا من الحدود والزواجر، حتى كان التأثير بالقرآن على كل نفس، فكانت روح القرآن النوارنية سارية في كل تلك الأرواح الكاملة والنفوس الطاهرة وسيوف القرآن الماضية مسلولة على الأعناق الطاغية والقلوب القاسية.

نزل القرآن لسعادة المجتمع، لم يسئل سيفا ليقهر الناس على اعتناقه، وإنما ليزيل الفساد ويمحو أسباب التفرقة والعناد، حتى أمرنا رسول الله ﷺ أن نعامل أهل الذمة بما نعامل به أنفسنا، فكان سيف الإسلام رحمة لا نقمة، وسياطه نعمة لا شقاء، وآلامه لذة لا عناء، فكيف يكون حال المجتمع الإنساني إن لم يغثه الله بتلك الرحمة الواسعة ؟ أكل الجواب إليك أيها القاريء الحكيم. لا أبعد بك. هذه سير أئمتنا وأخبار علمائنا وأعمال رجاله لم تمح من صحف التاريخ، وهذه آيات القرآن شموس مشرقة لم يعتورها تبديل ولا تغيير، ولم يذهب جماله

(١) سورة المائدة - آية 32

(٢) سورة المائدة - آية 45

(٣) سورة المائدة - آية 9

(٤) سورة النور - آية 2

(٥) سورة المائدة - آية 38

العلي تأويل وتفسير، فجرد نفسك من عصبيتك وحظك وهواك، واقراً متأملاً، وفكر متديراً، وتناول من هذا الظهور بقدر ما وهب الله لك من العقل أو بنسبة منزلتك من الوجود، ثم قم شاكرًا ربك على هذا التنزل الإلهي بالرحمة الواسعة والشفقة والحنانة الحقيقيتين، ذاكرًا آلاءه، فاكرا في آياته، حاضرًا في معيته، لتتقى إلى أوج كمالك وتكون حلية للملكوت الأعلى، وشمسًا مشرقة في عوالم العرش العظيم، أو إنسانًا منعما في جنات الخلد بأشهى وأجمل الملاذ الحسية والمعنوية.

طل من وابل القرآن ورذاذ من هاطل السنة :

و وفاء للموضوع أبين لك أيها الأخ البار - أيديني الله وإياك بروح منه - أمرًا خفى على كثير ممن لم يذق حلاوة الإسلام والإيمان من المسلمين، وهو أن ما تراه بعين رأسك من المخترعات والصناعات والفنون والعلوم التي يسمونها عصرية هي بعض نتائج القرآن المجيد، وقطرة من نعمة الله علينا بهذا النبي الكريم

﴿ﷺ﴾.

برهان ذلك أن أحكام الإسلام أوجبت السعي على الرزق، وحصرت وجوه ذلك فيما يكتسب من تجارة أو زراعة أو صناعة أو عمل بدني أو غنيمة أو ميراث أو هبة، وجعل ما يكتسب بالعمل أحل الحلال وأطيب الطيبات، وأمروا القرآن الكريم أن تتفكر فيما في السموات والأرض وأن نسعى بجد في إخراج كنوز الكائنات.

و أخبرنا ﴿ﷺ﴾ أن : (الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها) ⁽¹⁾، وكان ﴿ﷺ﴾ يعجبه الحسن من كل شيء سر قوله ﴿ﷺ﴾ : (إن الله يحب العبد

⁽¹⁾ ورد في هذا المعنى عند الدارمي في المقدمة ((عليك بالحكمة فإن الخير في الحكمة)) وفي رواية أخرى عنده ((نعم المجلس مجلس ينشر فيه الحكمة)) وعند البخاري : ((والحكمة الإصابة في غير النبوة)) البخاري في فضائل الصحابة.

المتقن عمله) (1) وكان ﷺ يحث على تعليم الصناعة والعناية بالزراعة، ودليل ذلك أنه ﷺ جعل فدية بعض أسرى قريش تعليم بعض المهاجرين والأنصار الكتابة (2). وأمرنا الله سبحانه وتعالى بإعداد العدة والقوة، ولا تكون هذه العدة والقوة إلا بالصناعات التي بما قوة المجاهدين في سبيل الله وحماية ثغور المسلمين. فهم سر تلك الأحكام الخلفاء ﷺ فنهجوا على هذا السنن القويم والطريق المستقيم، حتى تنبته أفكار المجتمع الإسلامي، وكان العرب إذ ذاك قليلين والذين اعتنقوا الإسلام وأهل الذمة كثيرون. فانتشرت تلك الصنائع بين من اعتنق الإسلام من الأمم الأخرى وبين المسلمين، وبلغت درجة رقي الصناعة مبلغا حتى كان طيبب الخليفة في زمن من الأزمنة نصرانيا، وعمال بيت المال من أهل الذمة، وقويت تلك الروح في المجتمع الاسلامي حتى ارتقت الصناعة رقيا بلغ مبلغا أدهش عقول العالم بأجمعه. ومن اطلع على آثار بغداد والأندلس ودمشق وغرناطة والعراق وباب السعادة (3) عاصمة المسلمين الآن، ومصر المحروسة وما فيها من إحاكم الصناعات ودقائق الفنون والمخترعات وغرائب العلوم بالحكمة العملية وخفيات الفهوم في الحكمة النظرية يعلم حق العلم أن ما يراه الآن بعيني رأسه في كل المدن سواء كانت في الشرق أو الغرب إنما هو ظل من وابل القرآن ورذاذ من هاطل السنة المحمدية.

أول من سعي في تخطيط الأرض بالتحقيق خلفاء المسلمين كما تقدم، وهاهي الكتب الإسلامية لا تزال بحار يغترف منها غير المسلمين وينسبون لأنفسهم، ولا يزال الغرب مع ما بلغ من إتقان الصناعات طفلا صغيرا يرضع من لبان العلوم الإسلامية والعلوم العربية والآثار الشرقية.

(1) عند ابن حبان وأبو يعلي عن عائشة ؓ بلفظ : ((إن الله يجب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه)) مجمع الزوائد 98/4.

(2) عن أحمد بن حنبل بلفظ : ((كان ناس من الاسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولادا من الأنصار الكتابة)) مسند أحمد 247/1

(3) باب السعادة : هي مقر دار الخلافة الإسلامية وقت إملاء الإمام أبي العزائم للكتاب

تأثير الإسلام على المجتمع الإنساني :

نزل القرآن فسوى بين الناس وأمر بالألفة والتحاب، وحث على عمارة البلاد وسعادة العباد لا فرق بين المسلمين وأهل الذمة، فأطمئنت القلوب وأمنت، واستراحت العقول والأفكار فعملت. ولولا الإسلام لبقى المجتمع الإنساني هاويا في مهاوي الجهالات والضلالات. فبالإسلام عمت الرحمة المجموعة الإنسانية. وبالإسلام فتحت كنوز الكائنات وظهرت خواصها. وبالإسلام سمت النفوس وزكت، وجالت العقول في رياض تلك الآثار واقتطفت، وإني على يقين تام أن المجتمع الإنساني إذا تخطى خطوة أمامه فانكشفت له أنوار الحكمة العملية والنظرية لانبلجت له أنوار تدعوه إلى أن يكون الإسلام هو الدين حقا، والقرآن هو الإمام صدقا، ولكنها حكمة بالغة وتقدير إلهي، يهدي الله من يشاء ويضل من يشاء لا يسأل عما يفعل. لعلك أيها الأخ علمت حق العلم قدر تأثير الإسلام على المجتمع الإنساني، وكيف عم خيره من اعتنقه ومن لم يعتنقه. ذلك لأنه دين الله حقا ورحمته الحقيقية التي تفضل بها على بني الإنسان ونعمته الواسعة على كل مخلوق. وقد تقدم لك فيما سبق أن الإسلام رحمة لكل موجود ذي كبد رطبة، فإن الله - سبحانه وتعالى - أمرنا بالرحمة لكل مخلوق، وأمرنا ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بحسن رعايتنا لمن استرعانا الله، وما استرعانا الله. لعلك أيها الأخ المهتدي بنور عقلك المسترشد بضياء فكرك، زالت عنك ستارة الوهم المسدلة على نور الفكر، فأيقنت يقينا أن ما تراه من الزينة والصناعات والفنون والحكمة العالية لم يكن إلا بعد شروق تلك الشمس الإلهية، وأخشى أن تتوهم أنني أجهل أن رجالا قبل الإسلام جالت أفكارهم في ميادين الحكمة العملية والنظرية. نعم، ولكن على غير أساس متين وعلي غير هدى. ولولا أن هذا المختصر لا يتحمل لأوردت لك ما بحثوا عنه وما تكلموا فيه من مباحث الحكمة، وكشفت لك جلية الأمر، فعلمت حق العلم أنها أوهام انبعثت أشعة أنوارها على ما أحاط بها من الماديات، فجالت جولة حتى إذا قربت من فناء أسرار تلك الآثار انعكس دخان تلك

النار على الخيال فتمثل ظلمة وراء المادة سر قوله تعالى : ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾ {33} فبأي آلاء ربكما تكذبان {34} يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران ﴿⁽¹⁾ وكيف ينتصرون ولم تمنح حجب الأوهام عن العقول لتنفذ أشعة أنوار العقول السليمة فتحرق سياج المادة بكمال التوحيد ونور اليقين وسلطان العلم بالله تعالى ؟ لعلك إذا قرأت ما قاله الأقدمون في سياسة الملك، وفي خواص بعض النباتات والحيوانات، وفيما استنتجوه من نظريات هندسية ومباد حسابية قلت : تلك العلوم الرياضية التي تركزى النفس. ونعم هي تركية النفس في طلب المزيد من الدنيا والانغماس في الشهوات البهيمية، ولكن هل تمنح نفسك موهبة تفكر بها في سر الآيات في الأرض والسماوات ؟ وتعلم بها حق العلم سر الحكمة التي لأجعلها وهب الله الإنسان العقل وسخر له ما في السماوات وما في الأرض ؟ ما خرجت الحكمة عندهم عن فكر يحول في ضروريات لا بد منها للإنسان بحياته الدنيوية، لا للفضائل والمنافع العامة لبني الإنسان دنيا وأخري.

قطرة من هذا اللجي :

نزل القرآن فجعل كل فرد من أفراد المسلمين طبييا حكيما صانعا مفكرا على النفس ينافس في الفضائل، حتى صار كل فرد من أفراد المسلمين أمة عظيمة، فجمع الطب في كلمة قوله تعالى : ﴿كلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ ⁽²⁾ وجمع الاقتصاد المالي والسياسي في كلمة : ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾ ⁽³⁾ وجمع مكارم الأخلاق كلها في كلمة : ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن

⁽¹⁾ سورة الرحمن - آية 33-35

⁽²⁾ سورة الأعراف - آية 31

⁽³⁾ سورة الإسراء - آية 29

الجاهلين ﴿١﴾ وجمع فضائل النفس وكمالاتها في كلمة : ﴿الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾ ﴿٢﴾ وبين الحكمة القدسية و الميل إلى الكمال الأكمل واحتقار ما سوى الكمالات العلية في كلمة واحدة : ﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد﴾ ﴿٣﴾ .

و حقر كل كائن في عين المؤمن الكامل إجلالا لعظمته وإعلاء لكبريائه ﴿الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله﴾ ﴿٤﴾ وقوله تعالى : ﴿يا أيها المدثر {1} قم فأنذر {2} وربك فكبر﴾ ﴿٥﴾، أمرنا أن نقول كلمة في كل يوم فوق الخمسين مرة تجعل نفوسنا فوق الملائكة وهي : الله أكبر، لا يقولها حاضر القلب إلا وانحى من عين بصيرته ومن عين رأسه كل صغير وكبير، وأحاطت به العزة وسرت في سويداء قلبه سر قوله تعالى : ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ ﴿٦﴾ هذه هي القطرة التي في فم البعوضة يا أخي من هذا المحيط اللجي فأذن واغترف وأنب إلى الله واعترف. ولولا أني لا أريد أن اشق عليك بالاطالة لما وسعت تلك الأسرار أسفار ومجلدات. والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعلك أيها الأخ المسترشد ممن يكفيه قليل الحكمة، فتسعى في خلاص نفسك بالتمسك بشرائع الإسلام وترك ما وراءه من الآراء والأوهام، لتنال السعادة الأبدية وتفوز بقسط وافر من الحظ في الدنيا، وتكون ممن عمل لخلاص نفسه وأنجاه الله من حبس حسه وحظه إنه مجيب الدعاء.

(١) سورة الأعراف - آية 199

(٢) سورة آل عمران - آية 134

(٣) سورة الإخلاص

(٤) سورة الأحزاب - آية 39

(٥) سورة المدثر - آية 1-3

(٦) سورة المنافقون - آية 8

عليه وآله وسلم ﴿ من الكمالات التي لم ينزلها على الأنبياء السابقين صلوات الله وسلامه عليهم، لتكون يا أخي من عمال الله القائمين بأمر الله المجاهدين في سبيل الله. واعلم يا أخي أن هذا المقام العلي والمجد الذي من الله به على كمل أولي العزم من الرسل، ورثه - فضلامنه - لأهل خصوصيته من أفراد عباده المخلصين ممن أنعم الله عليهم. فتنبه يا أخي. وإياك إذا أقامك الله في هذا المقام العلي أن تخلد إلى الأرض وتتبع هوك وتنسلخ من آيات الله، فإن من من الله عليه بتلك المواهب فانسلخ منها بليل إلى حظ فان، أو بفتح باب الخصومات والعداوة على الناس، كان كمن قال الله فيه : ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين {175} ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ (1).

ليس الداعي إلى الله حقيقة إلا من كشف عن جمال الدين لأعدائه وبين محاسنه لهم حتى ألفوه، بعد أن جدد سنن رسول الله ﷺ بين إخوته المؤمنين ونشلهم من أحوال التوحيد، وبين لهم الطريقة المستقيمة فسلكوا عليها، فهذا هو الوارث حقا لرسول الله ﷺ ونور الله المبين، الذي جعله الله حجة على عباده وحجة للمؤمنين، وشهيدا يوم القيامة على الناس بما أتاه الله من العلم والحكمة. أكرر لك يا أخي التنبيه أن تكون بعد أن يقيمك الله في هذا المقام متلذذا بما يؤم، أنسا مما يستوحش منه الجاهلون، موجها كل وجهتك إلى نيل فضل الله ورضوانه، مستندرا العطاء من الله، فرحا بإقبال الخلق على الله مقبلا بكليتك على جناب القدس الأعلي، مستصغرا نفسك في عينك وإن عظمها الله في عيون عباده، جاعلا كل همك وقصدك أن يكون الله تعالى راضيا عنك وأن تكون راضيا عن الله، ولا يكون ذلك يا أخي بمعناه الحقيقي إلا إذا كان الله ورسوله أحب إليك مما سواهما، وكنت تحب المرء

(1) سورة الأعراف - آية 175 - 176

لا تحبه إلا الله، ونزهت شرك عما يشغلك عن الله، وظهرت سريرتك عما يلفتك عن الحق ﷺ. عند ذلك يا أخي أبشرك بنزل المقربين، ومشاهد المحبوبين، والاتصال بالأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وهو المجد الحقيقي الذي تتشوق إليه النفوس الزكية والأرواح الملكية.

أسأل الله تعالى أن يمن علينا بهذا المجد منة محفوظة من السلب، وأن يديم لنا المزيد من هذا الفضل العظيم والمجد الحقيقي، إنه هو المعطي الوهاب، الكريم التواب، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وآله صحبه وسلم آمين.

بُهجة النفس وحظها وشهوتهما :

البهجة للنفس الملكية. والحظ للنفس الابليسية. والشهوة للنفس الحيوانية. فإذا تكملت النفس الملكية بحقيقة العقيدة، ولا تكون منجية إلا إذا تلقاها المؤمن من القرآن وتزكت النفوس الإبليسية بقهرها بخوف العقاب وحرمان الثواب، وظهرت النفس الحيوانية بالإعتدال في جميع ما لا بد لها منه مما به قوامها، ومعرفة المضار الحقيقية والمنافع الحقيقية معرفة محسوسة للفكر، وحصل ائتلاف بين القوي ونوع مشكلة لاحتياج كل نفس إلى الأخرى في تكميلها وبلوغها الغاية المطلوبة، وخوف كل نفس من الآخرين أن يكون لها القهر الحقيقي على جميع النفوس، فيكون ذلك مؤدياً إلى نقص الكمالات الإنسانية التي بناها الإنسان في الدنيا بالنسبة لأنه خليفة عن ربه سبحانه، وحرمانه من الكمالات الأخرى التي أعدها ربه سبحانه وتعالى لأحبابه المقربين : من الرضا والفوز والرؤيا والشهود ومالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، مما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون.

فإن النفس الملكية إذا قهرت النفسين الأخرين أضر الإنسان بدينه، وهو مطالب من حيث أنه خليفة عن ربه، مطالب برعاية ما استرعاه الله فيه من العمل النافع، والنظر الصحيح، والعلم الذي تطمئن به القلوب حتى تتحقق بكمال الخلافة. ويقدر ما فاتته من حقوق الخلافة يفوته من معرفة نفسه ومعرفة ربه سبحانه وتعالى،

ويحرم من منازل الأفراد الخلفاء. وإذا تسلطت النفس الإبليسية عليه أذهبت منه نور الحق، وأخلد إلى الأرض أرض القطيعة وسجن البعد، وكان أقل من الأنعام وأضل منها سبيلا، ويكون حربا على نفسه وبني جنسه، وعدوا للحق وأهله، عونا للباطل وأهله، بل يكون هو عين الباطل فيمسخ بعد أن كان في أحسن تقويم، ويصير إبليس في أسفل سافلين. أعوذ بالله من السلب بعد العطاء. وإذا غلبت النفس الحيوانية صار شهوانيا ويكون بحسب ما غلب عليه من النفوس. فقد يكون كالحنزير شهوة للنكاح، وكالنملة حرصا، وكالثعبان أذية وكالثعلب ختلا، وكالسبع افتراسا. لا يعوي ولا يرتدع حتي يهدم صورته هادم اللذات ومفرق الجماعات. أسأل الله الحفظ والسلامة من سلطان الحظ والهوى.

روح النفس في رياض حلاها و تجرد عن ميلها وهواها
 واصرف الوقت في نوال نفيس ذاكرا فاكرا لئيل صفاها
 زكها باليقين تصفو وترقى و تحمل بالفهم من معناها
 شاهدا ما بدا من الحسن وانض بجهاد فحفتها في رضاها
 وآهدا للصراط بالقهر عنها و توسط في السير عند فاهها
 سنة المصطفى صراط قويم حصن أمن لمن يروم حماها

* * *

النفس طهرتها سكون للعلی و زكاؤها ثقة بمولاهها الولی
 و القلب في تلك الشئون مقلب بسكونه يجلي له النور الجلی

* * *

جلا النفس بعد يقينها بشهودی و رفعتها عندي بحفظ حدودي
 و طهرتها التحقيق بالغيب عندما تناول راح حقيقة التوحيد
 و بجهتها مراري جمالي منزها بمرآة هذا الكون لا بقيود
 لديها هي النفس الزكية جملت بسر فلاح أو بنور شهودی

(النفس)

هيكلي عالم كبير ونفسى صورة الحق في صفائي وأنسى
وفؤادى ما بين عنصر جسمى و معاني سري كميزاب قدسى
برزخ حاجز يلطف حالى و بسري دري كشفى وشمسى
و أري القلب عرش سر التجلى و السويدا قد طهرت من رجس
هيكلي مظهر صغير ولكن فيه سرلا يشهدن للرأس
فيه كل الوجود يطوي وتجلي لي المجالي فيه بلا قيد حسى
ضاق كل الوجود علوا وسفلا و وسعت العلي وسعة انسى
عالم القلب كل عالم عالين و عالم الروح في حظائر قدسى
كل ما في من معان وحكم غيب غيب عن كل ملك وحسد
كل ما في الوجود سخر فضلا لمعان ظهرت بصورة نفسى
قلبي البيت عامر بالمجالي ظاهري العرش وهو لوح وكرسى
لوح محفوظه وكرسى جلال بل وعرش الرحموت في فهم درسى
هيكلي عالم وعلم ونور و شفاء من غير كد وبأس
صورته يد العلي تعالى صورة جملت بحسن وميس
آه ! لو فك رمز تلك المباني عن معانيه لم أجاور رمسى
يا شموسا بهيكلى مشرقات أبفضل أشرقت أم ذا بحبس
أنت نور وهيكلى من مبان لست من شكله ولست بجنسى
أنا في حيرة مشوق معنى كيف أراي حمأ يضيء بقدسى
ذاك غيب لو يكشفن سر معناه للاح الخفا لعقل و نفس

المسلم الحقيقي أمة عظيمة :

المسلم الحقيقي هو المسلم أمره لله تعالى تسليما حقيقيا عن تبصرة وهدى
ومعرفة وبيان. نظر بنور قلبه إلى نفسه فعلم حقيقة عجزه إذا اشتغل بتدبير نفسه،

و بهذا يكون المسلم الواحد أمة عظيمة قوية، لأنه جاهد نفسه مجاهدة في ذات الله حتي تحققت أن الله تعالى أولى بها منها وأعلم بخيرها منها، وأقدر عليها منها، وإن العقل الإنساني وإن كمل، والفكر الآدمي وإن رقي، لا يستقل بإدراك ما هو خير في الحقيقة ونفس الأمر، ولا يقتدر أن يقهر النفس على الأعمال التي بها نيل السعادة الحقيقية لما جبلت عليه النفس من حب النزوع إلى الملائم والرغبة في العاجل، فكانت أحكام الله تعالى ووصاياه وتعاليم رسول الله ﷺ، وهدى أصحابه رضوان الله عنهم والتابعين لهم بإحسان هي المراقي التي يركي بها المسلم إلى منازل السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة، ونيل الخير الحقيقي في الدنيا والآخرة.

فلو أن مسلما واحدا جعل القرآن إمامه وحكم على نفسه بوصايا رسول الله ﷺ واقتدى بمهدي السلف الصالح محافظا على الكتاب والسنة، عاملا بما حق العمل، فإنه بمفرده يمكنه أن يسود من هو بينهم، وأن يجعلهم جميعا يدينون بدينه ويعتقدون اعتقاده، لأنه باتباعه للقرآن الشريف وعمله بالسنة يكون عاملا نافعا لنفسه ولجميع بني جنسه بالشفقة والرحمة والفضيلة والنصيحة والإرشاد والمعونة والمشاركة، لأن المسلم الحقيقي أوجب عليه القرآن أول ما أوجب تعلم العلم الحقيقي النافع للدين والدنيا معا. فيتعلم العقيدة الحقة والعبادة المطابقة للسنة، والأخلاق الكريمة التي هي أخلاق رسول الله ﷺ، والمعاملة الحسنة التي تجعله يألف ويؤلف، والفنون والصنائع التي تنفع بني جنسه لينتفع بما لديهم مما لا بد منه له حتى يكون نافعا منتفعا، ويكون ما يقدمه لغيره من المنافع أعم وأنفع مما يناله من غيره. فمسلم مثل هذا إذا وجد منفردا بين أمم من النصارى أو اليهود أو المجوس أو الأمم المتوحشة لا يلبث إلا قليلا حتى يكون كشمس مضيئة، يستضيء بنور عقيدته الحقة العقلية ويقلده في أعماله النافعة وأخلاقه المرضية ومعاملته الحسنة ومزاياه الجميلة كل من رآه أو سمع به، لأنه إنسان تكمل بجمال يشقائق إليه كل إنسان ويدعي أنه مكتمل به ولو كان في دركات الجهل والشورور، لأن الإنسان بفطرته يمدح الخير ويذم الشر وإن عمل الشرور.

و رب قائل يقول : إنا نرى أكثر الناس أعداء للرسل عليهم الصلاة والسلام ولورثتهم القائمين لتجديد سننهم. فأقول له : لم يكن أكثر الناس أعداء للرسل، وإنما أعداء الرسل هم المتسلطون على العامة بالقوة القاهرة أو لدعوي الصبغة الدينية بالزور والبهتان ونري العامة يقلدون الزعماء بغير روية ولا تمييز بين الحق والباطل، ولكن بعد ظهور الحق وانبلاج أنواره تتقلص ظلال الباطل وتنجذب القلوب إلى الحق. وكم هوت عروش ملوك، ومالت تيجان عن الرؤوس، وفلقت هامات ملوك بأيدي أعوانهم وأنصارهم والمعضدين لهم والمتعصبين لهم عندما انبجحت أنوار الحق وأشرفت على القلوب، وأسكرت النفوس بما ثلجت به القلوب، عند ذلك تنجذب النفوس بكليتها إلى الحق، وترى من كان يمنعها عنه ويزين لها الباطل كأنه أوقعها في الشقاء الأبدي، وأبعدها عن السعادة الدائمة، فتقوم منتقمة منه ماحقة له ولذويه. فالمسلم الكامل منفردا يتلذذ بالآلام ويفرح بالشدائد ويميل إلى المصاعب ليقينه أنها تنتج السعادة الحقيقية له ولبني جنسه، ويفيد العالم بأجمعه من نوعي الإنسان والحيوانات خيرا عاما وعيشة طيبة في الدنيا وسعادة دائمة في الآخرة.

لقائل أن يقول : إذا كان المسلم منفردا لا يقيم بين قوم يخالفونه إلا قليلا حتى يصير مقتدى به من الجميع أو من عقلائهم، فلو كان هذا كما تقول فمالنا نرى أربعمئة مليون (1) مسلم كلهم يقلدون غيرهم ؟ وهم أنفسهم يعتقدون أنهم لا يمكنهم الاستقلال بأنفسهم ولا تدبير مصالحهم إلا اذا أدار شؤونهم غيرهم، ونراهم يسارعون في تقليد الأمم الأخرى الذين يخالفونهم في الدين والعقائد والأخلاق والبلاد والهواء، والمسلمون جميعا الآن كعالة على غيرهم يعمل فيهم بغير كتابهم، ويحكم عليهم بغير سنة نبيهم. القبيح شرعا صار حسنا لديهم، والحسن شرعا صار غير مألوف لديهم. وهذا المشهود المحسوس بغير ما تقول. فأجيبه قائلا: إنك بعد معرفتك بالمعاني والصفات التي لا يكون المسلم مسلما إلا بما يمكنك أن تحكم أن مجموع الأربعمئة

(1) هذا هو عدد المسلمين حين الطبعة الأولى للكتاب 1332هـ 1914م

مليون الذين تسميهم مسلمين لو اجتمعوا جميعا لم يمثلوا مسلما بمعناه الحقيقي، لأن مجموع المعاني التي يتمسكون بها من الوصايا الإسلامية بعض أعمال بدنية معتادة مجردة عن روح المراد منها. وجميع الوصايا الإسلامية أهملت أو أبدلها أهل الأغراض والحظوظ بما تأولوه بآرائهم الملائمة لهم، أو قلدوا فيه أهل الجهالة والبدع حتى صار الإسلام غريبا بين أهله، وبهذا تتحقق أن الوصايا الإسلامية لو تمسك بها واحد لأمكنه أن ينفع أمة عظيمة. ولو أن جماعة تمسكوا بحقيقة الإسلام وفهموا أمر الله سبحانه وتعالى من تنزيل أحكامه وبيان حكمه، والمراد لرسوله ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم ﷺ للملكو المعمورة ودانت لهم أكابر ملوكها وأذلوا أعداءهم.

و لعلك أيها المفكر تقول : إن أربعمائة مليون لا بد وأن يكون بينهم أربعة ملايين فهموا أسرار الشريعة واستبصروا في أحكامها وحكمها، فلم لم تتكون منهم هيئة تبث روح اليقين وتجدد دارس الأخلاق، وما أهمل من السنن الإسلامية ؟ وهل السواد الأعظم من أهل الطرق والعباد وطلبة العلم كل هؤلاء ليس بينهم من أدرك تلك المعاني وفهم روح الشريعة حتى كان يوجد منهم من يجدد للمسلمين أمر دينهم ؟ فأقول : معلوم أن الأمة لا يمكن أن تنشر بينها الصناعة الحقيقية المؤسسة على القواعد العلمية والأصول التجريبية إلا بصانع انكشفت له أسرار الصنعة. وتحقق من معرفة ما ينتج من المنافع والفوائد والمضار، وفهم فهما حقيقيا خيرية تلك الصنعة، وبذل للتحصيل عليها نفيس زمنه ونفائس أمواله، وفارق لأجلها عزيز أوطانه وأقرب أقاربه، معتقدا أن ما يناله خير من النفس والنفيس، و خير من الوطن والأهل، ثم يرجع إلى وطنه فينشر بينهم تلك الصنعة المفيدة النافعة، فيصبحون جميعا صناعا متقنين. وإن لم يوجد هذا يكونوا في صناعتهم بحسب ما يحسنه لهم حالهم في الضرورة والرخاء. فهل لو اجتمعوا جميعا يمثلون هذا الصانع منفردا ؟ لا : فكذلك ترى أن بين المسلمين كثيرين مؤهلين لأن يكونوا مسلمين بالمعنى الحقيقي، وأكثرهم أهل التسليم والانقياد الذين يسلمون أنفسهم لعلماء سوء ودعاة الضلالة، معتقدين أن كل ذلك ليس من الدين في شيء، فإن القرآن الشريف والسنة المحمدية السمحاء الحنيفية

البيضاء قد بينا أوصاف المسلم وأعماله القلبية والبدنية والمالية منفردا في نفسه، ومع أفراد عائلته ومع جيرانه وأهل قريته، ومع أهل الأمصار، ومع كل المسلمين، أين كانوا وكيف كانوا وبيننا منزلة كل فرد من أفراد المسلمين بالنسبة لبقية المسلمين.

و قد وصف الله سبحانه وتعالى المؤمنين في كثير من آيات القرآن وبين صفاتهم في آخر سورة الفتح وفي أوائل سورة الأنفال وغيرها، وبين ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم ﷺ أوصاف المسلمين وأخلاقهم وما يجب أن يكون عليه كل فرد في نفسه ومع بقية المسلمين في أكثر من ألف حديث، منها قوله ﷺ: (كل واحد من المسلمين على ثغر من ثغور الإسلام، فإذا تمهون إخوانك فاشدد لئلا يدخل العدو من قبلك) ⁽¹⁾ بين ﷺ في هذا الحديث أن كل فرد من أفراد المسلمين مطالب بنفسه أن يحافظ على السنة والكتاب، ولوترك العمل بهما كل مسلم، قال ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الطويل: (المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه، والمؤمن من أمن جاره بوائقه) ⁽²⁾ فلو أن أربعين متحققين بالصفات الإسلامية والكمالات الإسلامية لجدودا مجد الإسلام وأعادوه كما كان.

و أسأل الله تعالى أن يهدينا صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء، وأن يعيدنا من الاقتداء بالمغضوب عليهم من اليهود وبالضالين من النصارى، إنه على كل شيء قدير وصلي الله على سيدنا محمد وعلي وآله وصحبه وسلم.

⁽¹⁾ عند أبي داود وابن ماجه: جهاد والدرامي سير، ومالك في الموطأ بلفظ ((فاذا تمهون أخوك فاشدد لئلا يدخل العدو من قبلك))

⁽²⁾ أخرجه البخاري في الإيمان، والرق، وأبو داود في الجهاد، والترمذي في كتاب القيامة، والإيمان، والنسائي في الإيمان والدرامي في الرق، وأحمد في المسند 4|14، 3|154، 2|16

الشفاء :

هو كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ، لأن الكتاب والسنة من عمل بهما مصدقا مقرا زكت نفسه، وأشرق عليه أنوار اليقين فتحقق قدر الدنيا والآخرة . فيعمل في الدنيا ليجمعها وينفع بها جماعة المسلمين لنوال الآخرة، وبذل نفسه لنوال رضاء الله تعالى. وقد جمعت السنة حقيقة العقيدة وأجمل المعاملات وأكمل العبادات والقربات والأخلاق والسياسات النبوية التي بها سعادة الدنيا والآخرة.

أصل مرض الأمة الإسلامية :

أصل مرض الأمة الإسلامية ناشيء من ثلاثة أنواع : أمراء السوء، و علماء الفتنة، ودعاة الجهالة.

1- أمراء السوء :

أمراء السوء مالوا إلى الترف والطمع والغرور، وتقريب أهل المفساد، وسرعة الغضب والانتقام، وإذلال المصلحين، ومعاداة العلماء العاملين والأشراف المتقين، والنفور من الموعظة، والتكبر على العاملين بالتقوى، والاشتغال باللهو واللعب والغفلة عن أمور العامة، والظلم في جمع الأموال، والإهمال في إقامة الحدود ؛ لأنهم لا يباليون بعمل المنكر⁰ وساعدهم على ذلك علماء السوء الذين اتخذوهم أعوانا لهم، وأيدي لتنجيز شهواتهم، وسيوفا لقطع الحق وإحقاق الباطل، فشغلهم الظلم عن الإعداد للأعداء كما قال سبحانه : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)⁽¹⁾ وصار الأمير لا عدو له إلا النصحاء الأمناء من المسلمين، فقاومهم وأضعف قوته، حتى استولى الأعداء، على ثغور المسلمين لخلوها من الحصون

(¹) سورة الأنفال - آية 6

المانعة والجيوش الراغبة في الدار الآخرة، لأن الناس على دين ملوكهم، وبشغله أهملت الصناعات والتجارات لاشتغال الأمة بالوشايات وتفارقة كلمتهم بالتحزب.

2- علماء الفتنة:

ثم قام علماء السوء فتقربوا إلى الأمراء بجدل الكلام، وتأويل السنة والكتاب بما يهواه الأمير، وما ينالون به المنزلة العالية والسيادة والشرف، حتى يكون منهم المفتون بالضلالة، والدالون على غير الهدى مع إهمالهم للأعمال الشرعية، والازدراء بالفقراء والعمال وأهل الذكر من العارفين، وأهل علوم اليقين. وقد بلغ بمؤلاء الضالين المضلين أن ابتدعوا في الدين بدعا فرقوا بها بين المسلمين، وأوقعوا المسلمين في تكفير بعضهم ولعن بعضهم حتى بلغ حالهم من العداوة والبغضاء أن تساهلوا في أمور الجماعة وإحياء الكلمة وتحديد أمور السنة، حتى ذلوا وخذلوا وتمكن منهم العدو، وداخلهم الشيطان فصاروا تبعا بعد أن كانوا أئمة وسادة لجميع العالم. كل ذلك للطمع في الدنيا وإيثارها على الآخرة، وترك الحق وراء ظهورهم طمعا فيما لا ينفع في الدنيا ولا في الآخرة من الشهرة والسمعة ونفوذ الكلمة، ودعاهم الطمع والغرور وطلب زهرة الدنيا إلى أن ألفوا كتباً في بدعهم يردون فيها على أهل الإخلاص والصدق والتوكل والعلم اليقين والعمل بالحق، وسعوا في الأرض ينفرون المسلمين من أئمتهم وقادتهم، حتى إذا تسلط الكافر على المسلمين تركوا أمراء المسلمين. وقاموا لدمهم وموالة المتسلطين عليهم لنوال الرتب والشرف والأموال والجاه والرفعة. فواعجبا لكلاب الدنيا الظاهرين في حلال المؤمنين، المتجملين بجمال العلماء الراسخين، كيف لا ينهاتهم نهاهم ولا تمنعهم عقولهم ولا معقولاتهم ولا أحكام دينهم عن الغرور بالدنيا وهدم أركان الدين؟ ولا بد أن تظهر الحقيقة في يوم ما والله غالب على أمره.

3- دعاة الجهالة :

دعاة الجهالة إن لم يساووا علماء السوء في جلب المضرة على المسلمين فهم أضر منهم لأنهم يموهون على العامة أنهم الدعاة إلى الله تعالى، الوارثون لأحوال الأقطاب والأبدال ويموهون عليهم أنهم يمكنهم النفع والضرر ويلفتون المسلمين عن العمل الواجب عليهم شرعا وعقلا من العلم والعمل للدنيا.

ثم إنهم يجهلهم يوهمون أن التوكل ترك الأعمال، وأن الرضا عدم المعارضة وترك الناس يعملون ما شاءوا. ومنهم من يتقرب إلى الأمراء أو المتسلطين فيكونون أعوانا لهم على حب العامة والرضا بأحكامهم وأعمالهم، بل ويفهمونهم أن هذا هو الخير، وأن هذا فضل من الله ونعمة، وهو في الحقيقة سخط من الله ونقمة. ثم إنهم لطمعهم يوقعون العامة في بغض العلماء والأتقياء والدعاة إلى الخير فتحصل التفرقة ويقوم كل فريق لمناوأة الآخر فتتفرق الجماعة، ويسارع كل فريق إلى المتسلطين أو الأمراء فيستعينون بهم على أهل الحق، حتى يضعف القائمون بالحق ويختفون وينشر الباطل. وأول فتنة حصلت فتنة مسيلمة الكذاب، ثم حوادث الخوارج، ثم بنى أمية، ثم بنى العباس، ولكن كان نور الكتاب والسنة مشرقا على جميع المسلمين.

دواء ذلك المرض:

من نظر بعين العبرة في مرض المسلمين الآن وما أصابهم يجد ذلك ناشئا عن تلك الأسباب المتقدمة. ودواء ذلك المرض أن يتحد الأمراء والعلماء والدعاة بالقلب واللسان على العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإحياء سيرة السلف مع الزهد في الدنيا، والتوبة ببذل أنفسهم وأموالهم في إحياء سنة الرسول الكريم ﷺ بالحكمة والموعظة الحسنة. وإلا فالله سبحانه وتعالى له عباد أحبهم وأحبوه يجعل إحياء ذلك الأمر على يدهم، لأن الله غيور على دينه وسنته وكتابه وسنة نبيه ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم. وما الله بغافل عما يعمل الظالمون. أسأل الله تعالى أن يوفقنا لما

يجب من القول والعمل والحال، وأن يجمع قلوبنا على الحق، وأن يهب لنا عناية يحيي بها السنة إنه مجيب الدعاء، وصلي الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

تجدد الإسلام سعادة المسلمين

حال المسلمين فيما مضى:

المسلمون وإن كانوا قليلا في العدد والعدد، وكان أهل المعمورة أعداء لهم يناوئوهم ويكيدون لهم حتى جيرانهم وأقاربهم، ومع ذلك كانت تميل التيجان من على رؤوس الأكاسرة والقيصرة والتبابعة هيبة لهم ورهبة منهم. خامر الرعب قلوب الملوك في قصورهم، والخوف قلوب الشجعان في أكمل لأمتهم، حتى كان المسلم المنفرد كخميس⁽¹⁾ جرار، فأخضعوا الأمم للحق وقادوا العالم وسادوهم. كان القرآن حاكمهم إذا قال لهم أقيموا أقاموا ولو على جمر الغضا، ولو قال لهم أقدموا أقدموا ولا يتكلمون إلا إذا أمرهم القرآن ولو على الموت، فكانوا لا يأكلون إلا إذا أمرهم القرآن، ولا يتكلمون إلا إذا أمرهم القرآن، فالقرآن هو الإمام والقُدوة. وأميرهم أعلمهم بأسرار القرآن وأكملهم في العمل بالقرآن. فإذا سها نبهوه، وإذا نسي ذكروه، فإذا خالف خلعهوه. وإن حكم القرآن بقتله قتلوه، لأن الحاكم الحقيقي والحكم العدل هو القرآن، فما مضت فترة قصيرة من الزمن إلا والعالم جميعه إما مسلمون أو خاضعون أهل ذمة للمسلمين. وكان المسلم إذا عمل عملا وقيل له: لم عملت هذا؟ يقول أمرني القرآن، فيسأله عن الأمر فيخبره به، فيقول: إني أفهم في هذه الآية غير تلك، فيقول: إن رسول الله ﷺ بينها أو قوله كذا، فيسلم له أخوه ويعمل بعمله

(1) الخميس: الجيش، لأنهم خمس فرق: المقدمة، والقلب، والميمنة، والميسرة، والساق.

وعلمه. هكذا. كانوا كلامهم القرآن وعلمهم القرآن، لاءم ذلك نفوسهم أو لم يلائمها.

سعدوا وسادوا ليس في الآخرة فقط بل - والله - وفي الدنيا قبل الآخرة، ملكوا الممالك فلم تخرجهم عن التواضع لله تعالى ولرسوله ﷺ، ودانت لهم الأكاسرة والقيصرية وصاروا أرقاء يباعون في الأسواق وتباع نساؤهم. فكان ذلك أشد في قلوبهم موعظة وعلمًا بدناءة الدنيا وحقارتها فزهدوا فيها، ورجعوا في الدار التي لا يزول نعيمها ولا يبلى جديدها.

عمل العلماء:

قام العلماء بالواجب عليهم فزهدوا الدنيا وخالفوا أهلها، وكانوا قدوة حسنة أمام أفراد الأمة حتى في زمن الخلفاء الراشدين، كان أبو ذر الغفاري وأبو هريرة وسلمان الفارسي وغيرهم يكتبون لعمر بن الخطاب ﷺ جميعا يخوفونه من الدنيا فيقبل منهم، وخالفوا عثمان بن عفان ﷺ، وقام أسامة بن زيد لعلي بن أبي طالب عندما قال له إن رسول الله ﷺ قال:

﴿ من كنت مولاه فعلي مولاه ﴾⁽¹⁾ وطلب منه موالاته على معاوية، فقال يا أمير المؤمنين: أنت مولاي ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول لي: ﴿ أقتلت رجلاً... يقول لا إله إلا الله ؟ ﴾⁽²⁾، فأنا لا أواليك في هذا الأمر. وقال محمد ابن حنيفة رضي الله عنه في يوم صفين: إنها لفتنة، وأراد أن لا يقاتل فوكزه أبوه بكعب الرمح وقال: أتكون فتنة أبوك قائدها؟. وما حصل لمعاوية ﷺ من النساء اللاتي كن يمدحن أمير

(¹) أخرجه الترمذي في المناقب، وابن ماجه، وأحمد في المسند 84/1 - 118، 4 / 281 وعند أحمد في المسند عن رواية أخرى: (من كنت وليه فعلي وليه) المسند 35/5، 358، 361.
(²) عند البخاري في الدينة، ومسلم في الإيمان: ((يا أسامة: أقتلته... بعدما قال لا اله الا الله))
وعندهما من رواية أخرى: ((أقال لا إله إلا الله وقتلته...))

المؤمنين على بن أبي طالب ويذمّن معاوية رضي الله عنه. وما فعله ابن جريج مع المنصور. وما فعله الفضيل مع الرشيد ومالك بن أنس معه مما هو مشهور. كل ذلك كان عمل العلماء. وقد ضرب أبو حنيفة على تولية القضاء مرارا حتى رضي أن يكون عدادا للطوب خوفا على نفسه من معاونة الخلفاء مع أنهم كانوا أئمة الهدى. كل هذا نذر من كثير من عمل العلماء الذين رضوا بخدمة العلم والفقر إيثارا للآخرة على الدنيا ورغبة في النجاة منها.

وكان المسلمون في هذا العصر لا يمضي يوم إلا و تفتح فيه الممالك، وتدخل الأمم في الإسلام رغبة وحبا في التمسك به لا رهبة ولا خوفا على ضياع مال أو هلاك نفس، ولكن شاهدوا من المسلمين حكما عادلا، وعملا مقبولا للعقول، وحالا تميل إليه النفوس، وزهدوا فيما في أيدي الناس، وسلامة ضمير، وإعلانا بالحق والنصيحة لكل إنسان حتى كان يضرب الشريف الأمير قصاصا إذا ضرب أحقر أهل الذمة، مع الرحمة العامة والشفقة الحقيقية والمعاملة الطيبة. فكان المسلم يعامل الذمي كما يعامل أهله. إن كان كبيرا وقره، وإن كان صغيرا عطف عليه ورحمه، فعشقتهم النفوس ومالت إليهم العقول، إلا أكابره من أهل السيادة الدنيئة الذين خافوا على سيادتهم، فإنهم تعصبوا لدينهم حفظا للسيادة الفانية. هكذا كانوا وبهذا يكون من بعدهم.

دعوة إلى تجديد سنن ديننا:

أما نحن الآن فقد كثر عددنا وعددنا ومالنا ولكننا صرنا تبعا أذلاء لا لقلّة العدد أو لضعف الأجسام، أو لأن بلادنا قاحلة لا تنبت، أو لأن ديننا دين الكسل والبطالة وترك الدنيا وعدم الرقي والاختراع. لا، بل ديننا في دين العلم والعمل للدنيا والآخرة. دين البحث في الآثار والفكر فيما أودعه الله تعالى فيها وإظهار مكنون أسرارها المنطوية عليها للنفع العام. دين المجاهدة. دين الأخلاق الطاهرة. دين المعاملة الحسنة دين التوحيد والاتحاد والائتلاف. دين الرحمة والشفقة.

دين العمل النافع والسعي في النفع العام لجميع خلق الله - سبحانه - والرحمة حتى بالنباتات والحيوانات فضلا عن بني الإنسان. دين العدل والإنصاف. ليس دين رهبانية وخراب للدنيا وترك للعمل فيها كدين النصرانية. ولا دين تعصب وبغض لغير أهله والعمل لخاصة أهل الدين كدين اليهودية. بل هو الدين الذي أوجب على المسلم معاملة الذمي ك نفسه. أوجب على المسلم أن يسعى ويجد ويجتهد. فرض الزكاة ليعمل المسلم في جلب المال. فرض الحج ليسعى المسلم وينتقل ويسافر. فرض الصيام ليرحم المسلم الفقير من أي دين كان. جعل المنازل في الجنة بالعمل الصالح وعمل الإصلاح والصلح. حث على الزراعة وعلي التجارة وعلي الصناعة. وأمر بإعداد العدة بقدر الاستطاعة. كل ذلك لا يتوفر إلا بالتجارة والصناعة والزراعة. وفضل المتصدق على المتصدق عليه والرجل على المرأة بما أنفقه عليها. كل ذلك حث على العمل. أمر بالاقتصاد وتوفير المال وأخبر أن من أسرف يعاقب بالفقر، حث على الطب حتى من يعالج نفسه مريضة كأنه أحيائها. هذا وكل خير وفضيلة وسعادة في الدنيا والآخرة لا يمكن نوالها إلا بالتمسك بالسنة، ومع ذلك فإننا تركنا السنة وأهملنا العمل بما حتى رمانا أعداء ديننا بأن ديننا دين الخمول والتأخر. ذلك منا لا من ديننا. وإلا فمتى تمسك قوم قليلون بالدين على حقيقته وتأخروا؟ فهل بنا نجد سنن ديننا. وذلك لا يكلفنا أن نبذل أموالنا ولا أن نقتل أنفسنا ولكننا تأتمر بما أمر، وننتهي عما نحى، ونوالي من وإلى الله سبحانه ونعادي من عادي الله سبحانه، ونقتصد في زمننا ومالنا، فلا ننفق الزمن إلا في كسب علم أو فن أو رزق أو مُجْدة أو قرية أو صلة، ثم نحب إخواننا حبا يجمعنا. ولا يكون ذلك إلا بالزهد في الأمل وفي الجاه عند الناس، وفي الشهرة بينهم، بأن نعطي كل أخ حقه في غيبته كحضوره وننشط العمال ونستر الزلات، ونعامل الله تعالى في خلقه، ونجعل معاملتنا خفيفة على إخواننا حتى تنحصر الأموال والصناعة والفنون فينا. فإن حصر المعاملة فينا تنشطنا وتجدد ملكة الاختراع والجد في العمل، ونبغض من أبغضهم

الله تعالى من المجرمين والفساق والعصاة ولو كانوا آباءنا أو أبناءنا، ونحب من أحبهم
الله تعالى ولو كانوا غرباء فقراء بغضاء. والله الموفق لا غيره.

الدين إيمان وصدق طوية و علو نفس عن هوي و دنية
و يقين حق صادق بتحقق بالحق في حال صفا أو شدة
ثقة بربك عن شهود خالص و عزيمه في محو كل ضلالة
و توجهه لله منه به له في نصرة وتوكل بعزيمة
الدين إقدام على المعروف في مرضاته بظواهر وسريرة
حتى يجاهد نفسه وهواه بل و يجاهد الأعداء بعد طهارة
و يبيع لله النفوس وغيرها محوا لكل غواية و ضلالة
فإذا تطهر كل فرد مسلم جمعت قلوب المسلمين بحكمة
و تألفت وجمعها يبدو الهدي و يلوح نور الشرع ﴿يهدى للتي﴾⁽¹⁾
و يسود جمع المسلمين وفردهم و يذل أهل الكفر بعد معزة

الخلاص بالإخلاص:

تقدم الكلام على تعريف الإخلاص وبيان معناه يمثل محسوسة يعقلها العالمون في
كتاب ﴿معارج المقرين﴾⁽²⁾ ولما كان الإخلاص محله القلب الذي تنبعث منه الإرادة
فالهمة فالعزيمة فالعمل، كان عمل القلوب ولاشك هو الأول وعليه الإثابة والعقوبة،
ولا يظهر لعمل الجوارح كائننا ما كان. قال

(1) يشير الى قوله تعالى: (ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) آية 9 من سورة الإسراء

(2) هذا الكتاب وجميع مؤلفات الإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم يطلب من دار المدينة
المنورة للطباعة والنشر 11 شارع الشعب مجلس بالقاهرة.

﴿عَلَيْهِمُ﴾: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَفَعَ عَنْ أُمَّتِي السَّهْوَ وَالنَّسْيَانَ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ﴾ (1) ولما كان الإخلاص متوقفا على معونة الله تعالى للمريد بالإخلاص، ولا إخلاص إلا بعمل قلبي بدني، ولا عمل إلا بعلم، قال ﴿عَلَيْهِمُ﴾: ﴿النَّاسُ هَلَكُوا إِلَّا الْعَالَمُونَ، وَالْعَالَمُونَ هَلَكُوا إِلَّا الْعَامِلُونَ، وَالْعَامِلُونَ هَلَكُوا إِلَّا الْمَخْلُصُونَ، وَالْمَخْلُصُونَ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ﴾ فتصريف المواجد القلبية وأسرارها بالأعضاء العاملة لا يكون إلا بعد علم بأصول الشريعة وفصولها، مؤيد بنور الفقه من الله تعالى ومعونة بتوفيقه سبحانه وتعالى، حتى تتميز المواجد وتقوى العزيمة على عمل ما يوجبه الوقت مما هو خير في الحقيقة ونفس الأمر، ويحببه الله تعالى ويرضيه عن عامله، وما لو تركه العاقل في وقته وعمل عملا آخر ولو كان واجبا - لكان آثما. مثال ذلك: لو أن رجلا يصلي الفرض في آخر الوقت ورأى أعمى على بئر يكاد يسقط فيه فأقبل على صلاته وتركه لكان آثما عند الله تعالى. والواجب في مثل هذا أن يخرج من الصلاة بتأدية واجب الوقت. وفقهه القلب يكفيه قليل الحكمة. إذا تقرر هذا، فليس لجاهل عمل مقبول لجلهة بحقيقة الإخلاص في العمل وعدم معرفته بواجب الوقت، فقد يكون الواجب عليه شرعا السعي على المعاش فيصرف الوقت في غير ذلك، أو يكون الواجب عليه في الوقت نوع من أنواع العبادة المادية أو القلبية كالصلاة والحج والصيام والصالح والذكر والفكر وتعليم علوم الدين، فيستعمل الوقت في غير الواجب لجهله بحقيقة الإخلاص. وقد يكون المريد طاهر السريرة والنفس ولكنه جاهل بحقيقة الإخلاص فيسقط في أحوال التوحيد، ويكون العمل الذي يجب أن يكون لله معمولا لغيره ويحسب أنه يحسن عملا وذلك لتهاونه بنصيحة أهل العلم العارفين بالله وتلقيه منهم ما لا بد منه للمريد المخلص. وقد كان المسلمون في ماضي زمانهم لا تخلو مدينة من المدن من قائم لله بحجة، بل كان أكثر الأمراء والقضاة والأئمة العلماء أنجم هدى، حتى لو وقع

(1) عند ابن ماجة في كتاب الطلاق: ((إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان)) وفي رواية

أخرى ((الله تجاوز عن الخطأ والنسيان))

الرجل منهم في شبهة أو مرضت نفسه يجد له مائة طبيب يستطب بهم كما تجد في زماننا من كثرة أطباء الأبدان.

الإنسان في زماننا هذا يفوق الشيطان:

أصبحنا في زمان إذا ارتكب الرجل كبيرة تأبأها نفوس الحيوانات ويبرأ منها العقل ويوعد القرآن فاعلمها بالنار، ويعمل هذا العمل مجاهراً أمام الناس بكونه أضر أخا له أو اكتشف عيوبه أو احتال حيلة في أذيته أو قطع عيشه، أو سعى به إلى ذي سلطان أو اكتسب من الميسر كذا، أو شرب خمرًا جيدًا، أو أفسد امرأة على زوجها مما لا يحصى. رأى جلساءه يثنون عليه ويفتخرون به في مجالسهم، فيستحسنون عمله ويسارع كل منهم إلى أن ينال منزلته من الشهرة.

انظر بعينك إلى ما يرونه مدنية وشرفا وحضارة وفخرا، تر ما يذهب المروءة وبمحق الفضيلة ويفسد الأخلاق الطاهرة وينجس النفوس الركيعة، حتى أصبح القبيح مألوفًا حسنا، والحسن مهجورا مستزذلا، ذلك لأن الصغير يستحسن عمل الكبير ويألف عوائده فينشأ على تعوده صغيرا، ومن شب على شيء شاب عليه. صار الهوي إماما متبعا حتى اكفهرت معاني الإنسانية وتبدلت بالصفات البهيمية. فكأن الصورة الإنسانية صارت هيكلًا يحوي نفسا بهيمية. بل قد يتبرأ الحيوان الأعجم مما عليه الإنسان، وقيم الحجة عليه بأنه إنما يرتكب الشدائد لسد ضرورياته ويعمل ما يعمل بغير روية وفكر. فالإنسان في زماننا هذا يفوق الشيطان، لأن الشيطان يزين للناس محتفيا عن أعينهم، وأشرار الناس يعملون القبيح ويجهرون به ويفتخرون بوقوعه ويعظمون فاعله: ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾⁽¹⁾.

(1) سورة الحشر - آية 19

الإسلام دين الرقي والمدنية:

أيها المسلم الذي أطعت هواك فعصيت ربك. غرك مال تكتسبه أو جاه تفرح به أو قرب من ذي سلطان يستعملك لأغراضه فتأثم لخير غيرك، ثم إذا بلغ مراده أخزأك فصرت عدوا لجميع الناس ممقوتا من الله وخلقه. تهاونت بشعائر الله التي أمرك بتعظيمها لشهوة تغنى وأمل كاذب. لا بالعقل اقتديت. ولا بالقرآن اهتديت. ولكنك غرتك الدنيا عن الآخرة فهويت في مهواة الخزيان وألبست لباس الذل. تمسكك بالدين عز لك في الدنيا والآخرة. انظر كيف صار حالك. صرت ذليلا بعد العز. يحكمك من كنت تملك رقابهم وتراهم عبيدا تتجر فيهم. بل بلغ بك الجهل بفضيلة دينك إلى أن حسنت رذائلهم ورأيتها فضائل، حتى بلغ بك الذل أن حكموا فيك بغير كتاب ربك، وجعلوك في وطنك وبلدك لست أهلا للإكرام ولا محلا لأن تحكم نفسك بنفسك. بعيشك كيف كان ذلك؟ أنت كما يرمونك به أيها المسلم من أن دينك ليس دين الرقي والمدنية؟ أو أنك لست إنسانا بمعناه الحقيقي؟ لا، وكذبوا، بل سبب ذلك تركك وصايا ربك وسنة نبيك. أمرك ربك فقال تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾⁽¹⁾، وقال تعالى: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾⁽²⁾ أو صاك سبحانه فقال تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾⁽³⁾ وقال سبحانه أمرا: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾⁽⁴⁾ وقال سبحانه: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه﴾⁽⁵⁾.

(1) سورة آل عمران - آية 13

(2) سورة الأنفال - آية 36

(3) سورة المائدة - آية 2

(4) سورة الأنفال - آية 6

(5) سورة آل عمران - آية 28

و قال سبحانه: ﴿ لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ﴾ (1) وقال تعالى: ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ (2).

هذا بعض ما وصانا به، وأمرنا ﷺ بما يتعلق بمعاملة المسلم لغيره. ووصاياه سبحانه فيما يتعلق بالرحمة والعطف والود والصلة والبر والإحسان ومكارم الأخلاق وتعظيم شعائره سبحانه من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت ومراقبته جل وعز، ودوام الفكرة في نعماء والمحافظة على الإخلاص لذاته والخوف من عظمته، والأخذ بالعزائم من سنن نبيه ﷺ آيات لا تحصى عدا، يدركها من ألقى السمع لكتاب الله تعالى وهو شهيد. حثك الله سبحانه وتعالى على العمل في الدنيا للآخرة، قال تعالى: ﴿ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ (3) وقال تعالى: ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ (4) وقال تعالى: ﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ (5) وقال تعالى: ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ (6).

و الحسنة أعم من أن تكون قولاً أو اعتقاداً أو صدقة أو عملاً نافعا للمسلمين أو علماً نافعا أو فنا من الفنون مفيداً، أو إحياء صنعة من الصنائع الضرورية، إذا قصد بذلك النفع ابتغاء مرضاة الله، أو اختراع ما به قوة سلطان المسلمين وراحة أبدانهم

(1) سورة الممتحنة - آية 1

(2) سورة المجادلة - آية 22

(3) سورة الملك - آية 15

(4) سورة الجمعة - آية 1

(5) سورة آل عمران - آية 134

(6) سورة الأنعام - آية 16

وتيسير حوا نجهم، وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (1) الآيات في العمل في الدنيا لطلب الله تعالى وطلب الآخرة لا تحصر في كتاب الله. هذا ما أمرك الله تعالى به. أفمن كان يدين الله بأحكامه هذه بإخلاص وصدق بذل لغير الله، أو يرى غيره ممن دينهم يأمرهم بترك العمل في الدنيا وبالرهبانية أنهم يصيرون ملوكا عليه وهو ذليل بينهم؟.

المجد الذي ناله السلف الصالح:

ارجع أيها المسلم إلى تعظيم شعائر ربك، والعمل بوصايا سبحانه، وتذكر المجد الذي ناله أسلافك وهم قليل عددهم، مدقع فقرهم، في جاهلية مظلمة، فما أشرق عليهم نور الإسلام وسرت في قلوبهم روح الإيمان، إلا وقاموا عمالا لله مقتدين برسول الله ﷺ. فما كان إلا برهة من الزمان حتى ظهرت الفضيلة قي جميع الأنحاء وانبعثت الأنوار على جميع الأرجاء، وساد العدل بين الناس، وحصلت المساواة بين الخلق، حتى صار المسلم أخا المسلم، والكل عبيد الله، إمامهم القرآن وهدى رسول الله ﷺ، فأصبحوا كأنهم شمس أشرفت فأزالت ظلمات الظلم والجور، ونور علم انبعث فمحا الجهل وهزم ظلمات الأوهام فكأنهم كما قال الله تعالى: ﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾ (2) ملكوا الأرض شرقا وغربا وكأنهم ليسوا ملوكا. وذلك لأن الملك الحقيقي هو القرآن يرضون إذا رضي ويغضبون إذا غضب. إذا أمر أطاعوا وعملوا. وإذا نهي امتنعوا وتركوا. حتى كان الرجل منهم إذا أمره القرآن أن يقتل ابنه أو يخرج من ماله لفعل بسرور ورضاء. هذا بعض ما كانوا عليه، وأكل إليك ما وصلوا إليه في الدنيا من الحضارة والمدنية الحقيقية المؤسسة على الفضائل الكاملة، والحضارة الفاضلة المشيدة على العدل والمساواة والتعاطف والتراحم. كان

(1) سورة يونس - آية 26

(2) سورة الإسراء - آية 81

الذمي يرفع شكواه من أمير ولايته إلى الخليفة - أي الإمام الأعظم - فيقتص للذمي من أميره، كما يقتص من أمير للأمير مثله، لا تأخذه في الله لومة لائم.

أنتجت تلك النتيجة التي كان القصد من مقدماتها وجه الله تعالى وإحياء لكلمته تعالى ومرضاة له سبحانه، ولا لسياسة يقصد بها إرضاء المحكومين من الأمم أو انتشار الشهرة فإنهم رضي الله تبارك وتعالى عنهم مبرعون من تلك المبادئ الفاسدة المؤسسة على آراء أهل المدن الضالة والجاهلية. وبئست الأعمال، أعمال ظاهرها خير يقصد بها غير الله تعالى، ويراد بها استعباد الأمم بالقوة القاهرة، بحالة ظاهرها الرحمة وباطنها سلب الحقوق والأموال والقوة والسلطة من أيدي المستعبدين. أنتجت تلك الأعمال المؤسسة على قواعد القرآن المجيد وقصد وجه الله الكريم وإحياء سنة نبيه ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم أن أكثر المخالفين من النصارى واليهود والمجوس سارعوا إلى الإسلام، واعتنقوه بسرور ويقين كامل، واعتقاد أنه الحق، وقاموا لخدمته بعد أن تركوا لغتهم ودينهم وعوائدهم بغضا لكل ذلك، وحبا في لغة القرآن وسنة رسول الله ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم فأتقنوا اللغة العربية وخدموا القرآن بالتفاسير الجميلة، وبحثوا عن أحكام الدين وبينوها، وبينوا غرائب أسرار القرآن وأسرار فصاحته وبلاغته. ولو نظرا لعاقل إلى ما ألف من الكتب في فنون الفصاحة والبلاغة والتفسير وعلوم حكم القرآن وغير ذلك، لرأى أكثر ذلك منسوباً إلى غير العرب لم يكن هذا لسياسة عمياء يريدون بها التقرب إلى الأمراء والوزراء. لا، ولكن باشر اليقين الحق قلوبهم فانعقدت على محبة القرآن ومحبة السنة ومحبة رسول الله ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم وإن كان بعض الأعاجم بلغ به الحب في سبيل رسول الله ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم وفي عترته الشريفة إلى أن تغالوا في تعظيمهم، فذلك لما عاينته أبصارهم وفقهته قلوبهم من أخلاق فاضلة. وأسرار غالية وعلوم عالية.

قوم يحبهم ويحبونه:

هكذا يكون تجدد هذا المجد وإعادة هذا الشرف بالعمل بالسنة والكتاب، ومجاهدة النفس والحظ والهوى ابتغاء مرضاة الله تعالى.

على أني لا أفنط من روح الله تعالي، ولا أزال على يقين أن الله تعالى يأتي بقوم يحبهم ويحبونه، يجدد بهم سننه، ويحيي بهم معالم القرآن ومناهجه. يزهدهم في الدنيا ويرغبهم في الآخرة ويمنحهم الإخلاص لذات الله في القول والعمل والحال والعقيدة، حتى تزول تلك السحب الظلمانية عن شمس القرآن العلية، وترتفع ستائر الحظوظ والأهواء والطمع والغرور عن قلوب المسلمين. والله سبحانه وتعالى بشر بذلك في كتابه المجيد بقوله سبحانه ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾⁽¹⁾ وصلي الله على سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم.

جمال القرآن وأسراره:

مما يدل على جمال القرآن الذي إذا تجلى للأرواح تأهت بحبه، وشاهدت من كنوزه الخفية وأسراره الغامضة ما لا يحصر من الحكم والعلوم جميعها، ما تراه قام به علماء الإسلام غير العرب من الروم وبلاد العجم.

فقد دونوا ﷺ في أسرار القرآن؛ مما يتعلق بإعجازه وبلاغته وفصاحته، وكشف ما فيه من أسرار علوم الطب والحكمة والفنون والقوانين التي أنزلها الله تعالى لعمارة الكون وسعادة العباد، وشرح أسرار ما أودع في الكائنات من الخواص والآيات والآثار، وما جرى به العقل من البراهين القائمة على حقيقة التوحيد وجميل الأخلاق، وتركيب النفوس وأسرار تكميلها حتى تبلغ من الكمالات أن يكون الإنسان في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وما فوق ذلك من الأسرار الغيبية المتعلقة بمعاني الصفات الإلهية والأسرار الربانية، مما لا ينطلق به إلا مشاهد لأسرار الملكوت الأعلى، عالم بغوامض أسرار الحكمة، مطلع على مراتب الوجود، عالم بالنسب التي بين تلك المراتب من العلوم والفهوم التي لم يتكلم بها إلا نبي مرسل أو صديق لرسول من أولي العزم. ولم يختص بهذا الفضل مسلم دون مسلم بل عم ذلك، فترى علماء بخارى

(¹) سورة الحجر - آية 9

وخوقند وسمرقند ونيسابور وعلماء العراقيين وأفغانستان والهند وعلماء الشام والروم والأندلس ومصر والمغرب - ممن لا يحصى عددهم . قد قاموا فاستنبطوا جميع العلوم من القرآن، وخدموا القرآن الكريم بجميع العلوم، فكانت العلوم منه مأخوذة، وكانت العلوم وسيلة لإدراكه وفهمه.

لم تختص تلك الأنوار والأسرار للعرب دون العجم، لأن القرآن أنزله الله للناس كافة فكانت بشاشته تباشر القلوب فتطمئن بها، والنفوس فتتأله لها فتنتطق الألسن بالحكمة العالية. وقد استقبل جماعة المسلمين كتب العلماء من غير العرب برضاء تام واستحسان تام وقبول وإقبال. وكان العلماء يكدون لنوال أرزاقهم، ويفرون من الشهرة من معرفة الأمراء والولاة، ابتغاء مرضاة الله وخدمة للصلح العام. ولن يزال هذا النور ساريا، وتلك الشمس مشرقة. ولو أن الملائكة والعلماء العاملين اجتمعوا جميعا لكشف غوامض أسرار القرآن لما كوشفوا منه إلا بقدر ما تأخذ العصفورة من المحيط وما يعلم تأويله إلا الله تعالى.

الفصل الثالث اليقظة من نوم الغفلة ورقدة الجهالة

قال ﷺ: ﴿إِنَّ الْقُلُوبَ لَتَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الْحَدِيدُ وَجَلَاؤُهَا ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغْرُبْنَكَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾⁽¹⁾ من هذا الحديث الشريف نفهم أن نوم الغفلة هو صدأ القلب بالغفلة عن ذكر الله ونعلم من الآية الشريفة أن رقدة الجهالة من الغرور بالحياة الدنيا، وباطاعة شيطان الحظ والهوى والشح والإعجاب بالرأي.

المراد من الذكر وأنواعه:

لما كان ذكر الله تعالى جلاء القلوب من الصدأ، لزم أن نبين المراد من الذكر هنا بيانا يشرح للمطالع حقيقته. معلوم أن الغفلة عن الشيء لا تكون إلا بالاشتغال بغيره، والغرور بالشيء لا يكون إلا بحبه وعلم أنه خير وسعادة ولذة حتى يجنح ويميل عن غيره متساهلا. فإذا حصل هذا فإنما يكون الجهل بحقيقة ما رغب فيه وما رغب عنه. إذ من رغب في الفاني وجد في طلبه تاركاً الخير الباقي الحقيقي نحكم عليه بالجهل والحرق. ونبين له ضرر ما رغب فيه وخير ما رغب عنه، ليتحقق خطأه ويعلم ضلاله، فيتوب ويرجع إلى الصراط المستقيم، ويندم على ما فرط في جانب الحق. فإذا نبه من نومة غفلته وأوقف من رقدة جهالته ولم ينتبه، علمنا أنه شقي لا حظ له في السعادة الإنسانية، ولا قسط له من الخيرات الحقيقية، إلا أنه يجب علينا أن نعالجه بالأدوية المفيدة من الحكمة والموعظة الحسنة، حرصاً على نجاته بالهداية واتباع سبيل المؤمنين. ويكون بتعليم وكشف مبدئه ومعاده، وبيان نعم الله عليه، وتذكيره بعاقبة البغي والجهالة، وإظهار ما في نفسه وما في آفاقه من غرائب قدرة الله وعجائب

(1) سورة فاطر - آية 5

حكيمته سبحانه. كل ذلك مع إدخال البشائر عليه والمسرات ليحسن الإصغاء فلا ينفرد ولا ينزعج. حتى إذا قام المرشد بهذا العمل ولم ينجح في هذا الإنسان يكون الداعي قام بالواجب عليه حق القيام.

فيظهر من هذا أن ذكر الله تعالى محصور في نوعين: تذكير بالله في البداية حتى يعلم المرشد قدر ممن الله عليه، ويذوق حلاوة نعمه سبحانه، ويعرف نفسه وما فيها من الآيات، حتى تنكشف له الآيات ويسكن إلى الله سبحانه. وهذه هي الرتبة الأولى للذكر. ثم يكون الذكر في الرتبة الثانية وهو قسمان. الأول: ذكر القلب خاصة والثاني: ما يشترك فيه القلب مع الجوارح.

ذكر القلب:

قال تعالى: ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾⁽¹⁾ إشارة إلى ذكر القلب: ﴿ واشكروا لي ولا تكفرون ﴾⁽²⁾ إشارة إلى ذكر الجوارح، لأن الظاهر عنوان الباطن، وتارك الشكر بأعمال الجوارح كالكافر لنومة قلبه بالجهالة ورقدته بالغفلة عن مراقبة القادر الحكيم. وإنما تذكر الجوارح بالمحافظة على شعائر الله، إذا علم القلب العلم الحقيقي الذي تكون به الخشية من جلال الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ والخشية عمل من أعمال القلوب خزائنه القلب. وقال ﴿ صلى الله عليه وآله وسلم ﴾: يقول الله تعالى: ﴿ من شغله ذكرني عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين ﴾⁽³⁾ وشرح ذلك والله أعلم، أن السائلين الذين يثنى عليهم الله تعالى بأنه - جل ذكره - يعطيهم الفضل إنما يسألونه فضله ورضوانه، وليس شيء أفضل من الفضل والرضوان إلا المتفضل بهما سبحانه. فمقام الذكر هو هنا أرفع المقامات ولا يكون ذلك إلا بالقلب، فإن قوله ﴿ ﷺ ﴾ في الحديث: ﴿ شغله ذكرني

(1) سورة البقرة - آية 152

(2) سورة البقرة - آية 152

(3) عند الترمذي في ثواب القرآن: ﴿ من شغله القرآن وذكرني عن مسألتي.. وذكر بقية الحديث

(أي شغل قلبه، لأننا نرى كثيرا من الذاكرين بجوارحهم قلوبهم مشغولة بغير معاني المذكور فهم - مع ذكرهم بالجوارح - مشغولون عن الله تعالى .

تلك المظاهر والشؤون مرائي فيها تلوح لمن صفوا أسمائي
فالعارفون يرون سر تنزلي و الجاهلون مرادهم الآثي
أنا ظاهر لأولي القلوب مشاهد لأولي الصفا من صفوة الأمتاء
أنسوا بأنواره فطابوا وارتقوا عن ظلمة الأكوان والأهواء
فهمو معي بقلوبهم ومرادهم نظر لوجهي بعد نيل رضائي
لم يشهدوا غيري مريدا خالقا فمنحتهم مني جميل عطائي
فرحوا بفضلي فانجلت لقلوبهم شمس التجلي في سما الأرجاء
شربوا مدام محبتي فتحققوا بعد الشراب بصحة الأبناء
طابوا بها وعن الوجود بأسره غابوا بحبي لا يرون سوائي
شغلوا بذاتي عن شؤون تنزلي فأنا وليهم بسر قضائي
ما بين شكري و ذكر خالص و تبتل وتضرع بفنائني
عكفوا على ذاتي بنور قلوبهم فأبجتهم رؤيا جمال بهائي
فهم العبيد سرورهم بي دائما و أنا القريب لهم بعز خفائي
طربوا براح مدامتي ومحبتي فهمو شمس أشرقت بسمائي
لم يلهمهم كون الفناء عن الصفا و عن البقاء بصحة الأمتاء
فقلوبهم عمرت بنور مكاني و نفوسهم تاققت إلى العلياء
نحجوا على سنن الحبيب مُحَمَّدٍ حتى به وصلوا بكل هنائي
يارب صل مسلما ومباركا أبدا على شمس الهدي وضيائي
و الآل والأصحاب وامنحنا الرضا و تولنا بالنعور والآلاء

إذا تقرر هذا فذكر القلب هو العلم بآيات الله تعالى المشرقة أنوارها في الأنفس والآفاق، ثم بأسرار القدرة والحكمة، ثم مشاهدة حقيقة الآيات عن قادر حكيم. ثم شروق أنوار معاني الصفات لبيان حقيقة النفس للمشاهد وانكشاف

مراتب الوجود وتميز المكائنتين: مكانة واجب الوجود وممكن الوجود. وظهور النسب الحقيقي بين العبد وربّه ظهوراً يتحقق به العبد بكاملات منزلته من الفقر والاضطرار والعدم وغيرها، ويتيقن بكمال ولاية الله ورأفته ورحمته حتى يذوق لذة أنه سبحانه أولى به من نفسه، فتمتزع الرهبة بالرغبة، والخشية بالرجاء والخوف بالطمع، والعظمة بالمحبة. عند ذلك يكون الحق أقرب للعبد من حبل الوريد. وليس شيء هو أقرب للإنسان من حبل وريده إلا قلبه الذي هو منبه حياته وقوام حواسه وخزانة ذخائره وكنز تحفه. وهو مقام يكون القلب فيه بيت الحق لاحتياطه وإدراكه ولا علماً للحقيقة والكنهه و لكن بعلم يتحقق به أنه سبحانه القادر الحكيم المبدع المصور المعطي الوهاب القريب المجيب إلى آخر الأسماء والصفات، علماً جعله يحب الله تعالى ويخشاه سبحانه، فلا يغيب ولا يغفل، ومتى كملت مشاهد القلب والقلب سلطان الجوارح. قال ﷺ: ﴿ألا وإن في الجسد لمضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب ألا وهي القلب﴾⁽¹⁾ ومعنى هذا الحديث الشريف أن القلب إذا صلح صلحت الجوارح لأن تقوم بما أوجبه الله تعالى عليها ورغبها فيه، قايماً يكون فيه رضوان الله ومحبتة.

يا قلب حال الصفا تبدو معانيه تكون عرش استواء عن تجليه
تكون يا قلب معموراً ومبتهجاً بما تنزل نورا من أيديهِ
يدوم أنسك بالمحبوب إن ظهرت شمس المثال برمز عن مجاليهِ
يا قلب يا بيته الأعلى وصورته تقلبنا في المعاني لا مبانيهِ
أنت المحيط بأنوار مقدسة قد ضاق عنها محيط الكون عاليهِ
و سعت شمس المجالي عن تنزلها و العرش قد ضاق عنها ذق مبانيهِ

(1) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ومسلم في المساقاة وابن ماجه في الفتن، والدارمي في البيوع،

ومن رواية أحمد: ﴿ألا وإن في الإنسان مضغة... الحديث﴾ (المسند 27/4، 274)

مراتب ذكر القلب:

و للقلب مراتب في الذكر، فأول مرتبة من مراتب ذكره بعد العلم المتقدم: مقام التوبة وهو مقام على تنال به محبة الله تعالى. قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾. وقد شرحنا مقام التوبة في كتاب: ﴿أصول الوصول﴾ شرحا بين مجمل مسائله، فليراجعه من أحب أن يتجمل بهذا المقام.

الرتبة الثانية من مراتب ذكر القلب: مقام المحبة، فالخشية، فالخوف، فالطمع والرجاء، فالصدق، فالإخلاص، فالتوكل، فالتفويض، فحق اليقين بالتوحيد. فمراتب الكمال لذكر القلب تقدم الإشارة إليها رمزا في المواجيد النظامية، إذ حقائق التوحيد لا تسطر في الأوراق ولا تسعها العبارة. ولذلك كان بيانها من اللسان للأذن للقلب بالإشارة ورسمها في الكتب بالرمز صونا لسر الحق جلت قدرته من أن تتناوله الأنفس اللقسة، فوضع بالرموز والكنائيات والإشارات ليدوق منه الواجد على قدر مقامه من الذكر وهذه مقامات ذكر القلب وقد شرحنا جملا منها في كتاب: ﴿أصول الوصول﴾ وكتاب: ﴿معارج المقربين﴾ وكتاب: ﴿مذكرة المرشدين﴾ وفصلنا بعض ما أجمل منها في كتاب: ﴿شراب الأرواح﴾ فراجعها عند احتياجك لتزن حالك وتعلم مقامك والله ولي المؤمنين.

إشارة إلى أسرار القلوب:

وإليك ما يمكن وضعه في مثل هذا المختصر من الأبيات التي تشير إلى أسرار القلوب من غير خفاء ولا رموز:

أيها القلب بالجمال العلي فأنسنا لا بزهرة ودي
يا فؤادي وأنت بيت علاه عرش أنواره بمعني جلي
واجهن نوره به و تنعم بجمال مقدس أزي
و من الأفق أفق جهل وظلم فتجرد لأفق أعلي أخمي
أيها الروح بعد صفوي وقربى فاكشف الحجب عن جمال خفي

سالمى هيكلى وكونى سراجا
ناوليه بقدره الراح حتى
و لى الحال لاحظيه برفق
أيها الروح أنت ملك كريم
ركبت من عناصر واستعدت
هى بيت إما لإبليس مأوى
إن تزكت من حظها وهواها

* * *

إن أضاءت للروح شمس التجلى
هى شمس إن أشرقت لفؤاد
شمس قدس تلوح فى حال صفو
أفقها القلب إن أضاءت تراءى
يتحلى ناسوته بجمال
آه لو أنهما تراءت لعين
لا تراها إلا قلوب تحلت
أيها القلب بعد أن صرت عرشا
هل تفيض الأنوار حتى أهني

* * *

القلب فى بهجة بجمال رؤيته
و العين فى لطفة تشتاق تشهد ما
و النفس ما بين قلبى بل وباصرتى
فيها أضاءت ولكن سترت بسنا
تري الزجاجة والمشكاة وهى على
إن شاهدت أى معناه منزهة

و إن محانوره الأعلى معالمها حنت إلى مظهر عن نون نسبته
وإن تجلت معاني سر وحدته تنبي بعظموته وعجيب حكمته
تتمت بشهود الآي واجدة وجد المؤلفه من آيات قدرته
ما بين نفسي وروحي بل وباصرتي كالثلج والنار قد جمعها برحمته
للروح مجلي كمال في نزاهته والقلب كشف التجلي عين بغيته
و عين رأسي سر الآي مطلبها و الآي قد سترت بجمال عزته
صرت المؤلفه لا أنفك من وله نفسي وروحي وعيني بعد رؤيته
لا ينتهي ولهي أبدا وقد جمعت كما علمت معاليمي بحكمته
عناصري هي اركان الوجود إذا ففقتها سكنت نفسي لحضرتة
عجيب قدرته وغريب حكمته و جلي آياته وعميم نعمته
قد حيرت أنفسا طهرت لطائفها و أوقفت كل عقل عند رتبته

الذكر الذي يشترك فيه القلب مع الجوارح:

هو الذكر العملي الذي يسمى شكرا، قال تعالى: ﴿اعملوا آل داوود شكرا وقليل من عبادي الشكور﴾⁽¹⁾ فعمل الجوارح ذكر وشكر في آن واحد كما قال الله تعالى: ﴿يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقلنا عذاب النار﴾⁽²⁾ فجميع الجوارح تشترك في عمل الذكر، ولا يكون هذا العمل عملا شرعيا معتبرا إلا إذا كان صادرا عن القلب بحسن نية وإخلاص وجهه، ويقين حق عن شهود أو علم، حتى تكون المواجيد القلبية والإرادة والعزيمة لذات الله في مقام حق اليقين، أو لنوال الفضل والرضا في رتبة عين اليقين، أو خوف من جلاله وعقوبته في منزلة علم اليقين، وتكون أعمال الجوارح بعد هذا التحقيق على طريقة سننية، واقتداء بالأئمة الهداة الراشدين المرشدين، مع ملاحظة

(1) سورة سبأ آية 13

(2) سورة آل عمران آية 191

مقتضى كل نفس عند أهل التمكين، وكل وقت عند أهل التلوين، وكل يوم عند السالكين، حيث تكون الأنفاس عند أهل التمكين في مشاهدة ومراقبة. والساعات عند أهل التلوين في خوف ورجاء وحيرة وأحوال، والأيام عند السالكين في توبة واستغفار، قياما بالتكاليف، وطلبا في التعرف والفوز بالخير الأبدي الذي هو خير في منزلتهم.

هذا هو الذكر الذي يشترك فيه القلب مع الجوارح.

إذا لاح من قلبي ضياء بصيرتي تنور ناسوتي بانوار شرعتي
ولاحت له انوار غيب مصونة تعالت عن التشبيه أو عن إشارة
و ذاق من العين العلية راحها شرابا صفا من حضرة واحدة
و في الواد: وادي القدس يرتع سابحا يشاهد أنوار العلوم الجليلة
و يشرب من حوض الشهود سلافة مداما صفا يعطي لأهل المعية
لديها يلوح النور من ظاهر إلى عوالم أرجاء الفؤاد الخفية
فإذا لم تصدر أعمال الجوارح عن مواجيد القلب فذاك عناء وغفلة، وإن صدرت
أعمال الجوارح عن قلب يقصد غير رضوان الله وفضله وغير ثوابه والنجاة من عقابه،
بأن صدرت عن القلب لشهرة وسمعة أو لعلو في الأرض ورياء أو لطلب دنيا فانية
فذاك النفاق بعينه نعوذ بالله منه. والنفاق هو أن تكون العلانية علانية الصديقين،
والسريرة سريرة الشياطين، والمغرورون الذين يطلبون الدنيا بعمل الآخرة ﴿وهم
يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾⁽¹⁾ فما من عمل من أعمال الجوارح إلا وهو يتعلق به
عدة أحكام شرعية في كل مرتبة من مراتب الرجال. منها ما يختص بالقلب وهو من
أعمال القلوب، كأن يلاحظ العامل القادر الذي منحه القدرة على الحركة، وخلق له
الأعضاء التي تتحرك، والمكان الذي يتحرك فيه، وأمدته بالنسيم الذي يتنفس منه،
والنور الذي يرى به الأشياء فيتحرك إليها، والعضو الذي يبصر به الشيء الذي تحرك

(1) سورة الكهف - آية 14

إليه، ويشاهد الحكيم - سبحانه - الذي منحه العقل يدرك به النافع فيتحرك إليه والضرار فيجتنبه، يدرك به خواص الأشياء وفوائدها فيستعملها فيما لا بد منه وأكمل، فيكون بقلبه مشاهدا لربه حاضرا معه، ويستحضر القلب في هذا الوقت حكم الشرع في تلك الحركة واجبة هي أو مندوب إليها أم مباح عملها أم منهي عنها، فيكون عاملا بسنة رسول الله ﷺ.

ما يلزم للمريد في أعمال الجوارح:

هذا ما يتعلق بالقلب مما لا بد منه للمريد السالك حتى يتجمل بحقيقة علم التوحيد، فإذا قصر عن هذا فهو غافل القلب بعيد عن الرب محبوب عن مشاهد المقربين والأبرار. أما ما يتعلق بالجوارح فيلزم أن يلاحظ في كل عمل من أكل وشرب ونوم وتعظيم وبيع وشراء وحرفة وصلاة وصيام وزكاة وحج وزواج وختان ومجالسة ومعاشرة وجيرة، وغير ذلك من جميع الأعمال كيف كان يعمل ذلك رسول الله ﷺ، ثم يقتدي في ذلك بأئمة الهدى فلا يعمل عملا إلا بعد العلم اليقين أنه مطابق لسنة رسول الله ﷺ وعمل السلف الصالح؛ حتى يكون على طريقة سننية وحالة سننية، فإذا كملت مواجيد قلبه وعمل بجوارحه على غير الطريقة السننية متساهلا بتعاليم سنته، والتلقي عن العلماء حبا في العمل وجهلا بقدر العلم وأهله، فذاك قد يمن الله عليه لكمال إخلاصه بمحبة العلم والعلماء حتى ينتقل إلى السير على المنهج الحق. وإن ترك التعلم لجهلة بقدر نفسه فذلك مبتدع، وربما ابتلي بمرض الكبر والعباذ بالله فأنساه الغرور ذكر الله، قال الله تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم﴾⁽¹⁾.

(1) سورة المجاثية - آية 23

الأعمال المشتركة بين القلب والجوارح:

محصورة في أعمال بدنية خاصة. أو مالية خاصة. أو بدنية مالية. أما الأعمال البدنية فالصوم والصلاة وذكر الله القلي فكرا واستحضارا و يقينا ورغبة ورهبة وتعظيما وخشية وخوفا وطمعا وحبا، وغير ذلك من مقامات اليقين، والجهاد في سبيل الله بالنفس للمعدم، ومعاونة المسلمين بغير المال: كالعبادة وتشجيع الجنائز وإمطة الأذى عن الطريق وقيادة الأعمى والمساعدة بالجاء ورد غيبة المسلم، وكطلب العلم وتعليمه، وحفظ القرآن المجيد، والصلح بين الناس، وكغض البصر عن العورات، والبشاشة وحسن الإصغاء والمخاطبة وحمل أحوال الإخوان على أجملها، والإحسان إلى المسيء بالقول الحسن، والعتو وكظم الغيظ والصبر عند لزومه، وحب المسلمين، وبغض أعمالهم المخالفة للسنة بغضا يجعله يكره العمل ويكره أن يقع فيه وينفر منه وتنزع نفسه من رؤيته أمامه ولو كان العمل ملائما للطبع ولذة عاجلة أو خيرا فانيا من حظ أو شهرة أو سيادة أو مال أو أصدقاء ما دام هذا العمل منهيا عنه شرعا، فيكون لبغضه فيه متمثلا قبح صورته، ومستحضرا عاقبته ومشاهدا عقوبته، وعالما أنه رزيلة لأن الشارع سبحانه وتعالى حرمه، ويبغض الكافر، وينفر منه بقلبه وجوارحه. اللهم إلا أن يتقي منهم تقاة، فالمدارة أسلم، وليحذر ذات الله من أن توقعه الملابسة والمجالسة في المجانسة، فيبوء بسخط الله وغضبه، نعوذ بالله من ذلك، وليستحضر قوله تعالى: ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾ {26} تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب ﴿ (1).

استحضارا يعلم به سبل النجاة من السقوط فيما يسلب الإيمان من القلوب ولو كانت الأبدان عاملة بالطاعات قال ﴿ ﷻ ﴾: ﴿ إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا

(1) سورة آل عمران - آية 26 - 27

إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وإلى أعمالكم ﴿⁽¹⁾﴾ والمدارة إما طمعا في تأليف للدين أو دفعا لمضرة لا قبل له بها، وليس هذا بالدعوى فإن علام الغيوب لا تخفى عليه خافية.

و من الأعمال البدنية النظافة لله، وتحسين الهيئة تحذنا بنعمته، وتعلم حرفة أو صنعة أو عمل يعمله ليستغني عن سؤال الناس بالله تعالى، ومنها تعلم السباحة والرماية والكتابة وتدبير النفس والمنزل حتى يكون عضوا عاملا في الجسد الإسلامي، مقتديا بالسلف الصالح وإما ما لمن بعده، والأعمال البدنية الخاصة بالبدن لا تخفى على بصير، خصوصا أعمال الفطرة كإعفاء اللحية وحف الشارب وقص شعر الرأس ونتف الإبط وقلم الأظفار وحلق العانة والختان والحفاض ونظافة الجسم وغير ذلك، مع النية بأن هذا العمل لله تعالى اقتداء بسنة رسول الله ﷺ حتى يتشبه به صلوات الله وسلامه عليه بقدر الإستطاعة.

الأعمال التي يحتاج فيها الفرد إلى الاشتراك مع غيره

في المجتمع المنزلي:

إما أن تكون في المجتمع المنزلي كعاملية والديه وأخواته وإخوانه وزوجته وأولاده ومواليه، وهذا المجتمع الصغير هو الكبير في حقيقة الأمر، وأحوج إلى الحكمة والتدبير مع كل مجتمع وأحق بالمحافظة عليه والعناية به والحرص على أن يكون منظما تنظيما يضمن رغد العيش وطيب الحياة ودوام الراحة وإسباغ النعمة. والحكيم الحقيقي من أمكنه أن يدبر منزله تديرا حقيقا، فإن المنزل هو الأم وأس المجتمع وسبيل سعادة الأفراد والجماعة، ومن أمكنه حسن نظام منزله أمكنه أن يكون إماما لأكبر مجتمع. فإن تدبير المنزل به تربية رجال عاملين لخير المجتمع، ونساء عاملات لسعادته، ومتى أهمل تدبير المنزل ساءت حالة الأمة وشب الأبناء على الإهمال والإسراف في الوقت

(¹) أخرجه مسلم في البر، وابن ماجه في الزهد، وأحمد في المسند 2 / 285، 539

وفي المال والعرض، وتولدت الضغائن في قلوب الأهل والأقارب، وجهلوا قدر التعاون وقدر حقوق النسب وصلة الرحم، وغفلوا عن معرفة قدر المجتمع المنزلي مع شهود فوائده حسا، وتحقق كل فرد باحتياجه الشديد لمعاونة الآخر المعاونة التي لا يمكنه أن يعيش بدونها، الأمر الذي يكفي أن يكون داعيا لتوثيق روابط المحبة وتبادل أسباب الألفة، والإخاء، وتربية النفس على حب الأهل وبذل المال والجاه لاستجلاب مودتهم وألفتهم، لأنهم هم الأعضاء المتممة لجسمه ولغيره بل لجميع ضرورياته. فإذا تمت تلك المحبة الطيبة لنمو الجسم، وسرت تلك الفضيلة في أفراد العائلة بل في أعضاء الجسد الممثل لعائلة، كان كل فرد كعضو نافع لجميع الجسد بقدر صحته وعافيته بحيث لا يستغني عنه. ويكون للجسم من القوة والراحة والسعادة بقدر ما يكون للجسد من المنفعة بأكمل أعضائه، فيكون الأخ الشقيق أو لأم أو لأب في المنزلة الواحدة كاليمنى بالنسبة ليسرى، أو كالعين بالنسبة لأختها، ويكون الأخ كاملا بالنسبة للوالد فيكون الأبناء مقتدين بالأباء، ويرى الولد عمه بالعين التي يرى بها والده، وخاله بالعين التي يرى بها والدته، يبذل كل رخيص وغال فيما فيه سعادة الجميع ليعيش المجتمع المنزلي سعيدا راقيا، يحب الخير لكل فرد منهم لأن خير كل فرد هو خير الجميع. فإذا كمل المجتمع المنزلي وتكمل مجتمع الحلة أو السكة يتكامل بهما مجتمع القرية ثم المدينة.

الأمة على نمط المجتمع المنزلي:

ثم تتكون الأمة على نمط المجتمع المنزلي حتى تكون الأمة جميعها كجسد واحد قائم بكل عضو منه، وكل عضو قائم بكل الجسد، بحيث تكون السعادة الحقيقية منقسمة على كل فرد بقدر منزلته من الجسد الإسلامي، ففرد كالقلب وآخر كالعين وكاليد والرجل وكالأذن واللسان وكالأصابع وكالمعدة والأمعاء والكليتين والطحال، وتكون أعمال الأمة منقسمة على الأفراد كتنقسم أعمال البدن على جميع أعضائه ويكون الرئيس هو القلب، والنور الذي يستمد منه القرآن المجيد والسنة النبوية

وهدي الأئمة الراشدين المرشدين، ويمد بهذا النور جميع أعضائه العاملة عمل الوزراء كالكبد والكليتين والرئتين، وكأعضائه المنبثة في النواحي كالعنيتين والأذنين والأنف والذوق واللمس الممثلة بكبار الجند، وكأعضائه العاملة لحفظ الجسد والعناية به كالمعدة والأمعاء والأسنان واللسان المعين على بلع الطعام والأجهزة البولية وغيرها، وهم الصانع والعملة أهل الكد في المجتمع الإسلامي.

فيكون الإمام الأعظم عالما بقدر فوائد أصغر عامل للجسد وأصغر صانع، ومقدرا قدر المزايا التي تنال الجسد الإسلامي منه، ناظرا إليه بعين الأخ النافع والعضو العامل، حتى يكون كل فرد في عون كل فرد لعلمه بضرورة ذلك، وتحقيقه من أن ذلك هو السعادة في الدنيا والآخرة، ويكون أصغر صانع عالما بقدر النفع العائد عليه من بقية الأفراد من الأمن والعدل والسلامة وإعلاء الإسلام وإحياء السنة وسعادة المسلمين، فيحصل الحب الحقيقي لله تعالى ولجميع الإخوان المسلمين، ويكون المجتمع الإسلامي في أي بلد وأي جهة متماسكا تماسكا حقيقيا، مؤتلفا ائتلافا حقيقيا، ينمو في كل نفس ويعلو في كل يوم وتدوم سعادته وخيره وبره أبدا، بل ويكون سكان الأرض من مشارفها إلى مغاربها في سعادة وسرور بهذا المجتمع. المسلمون وغيرهم.

و هذا التدبير المنزلي وغيره لا يمكن أن يكون كاملا حقيقة إلا إذا كانت التربية مطابقة للقرآن المجيد، وسائرة على وصايا النبي ﷺ وعمل الأئمة بعده، حتى يكون في كل قلب غيرة على الحق وحب في الحق، ورغبة في نوال السعادة الحقيقية التي لا تنال إلا بكمال التمسك بالكتاب والسنة قولاً وعملاً وحالاً.

نتائج إهمال التربية:

فإذا أهمل المسلم تربية نفسه حتى فسدت أخلاقه وساءت عقيدته وصار كالحيوان الأعجم، أو الشيطان المارد أفسد المنزل كما ترى الآن. ترى المسلم وهو يدعي الإسلام يقطع رحمه ليصل الدنيا، ويعق والديه لينال شهوته، ويتمني لقرينه الموت ليرث ماله، بل يقتل أخاه لأبيه وأمه لينال مالا يدخره لأولاده، ويجهل المغرور

أن أخاه أولى به من أولاده، وأن أولاده الذين يرثون ما جمع لهم بظلم أخيه يأتي عليهم وقت ربما قتلوه ليأخذوا أمواله، وعمل كل واحد منهم في أخيه ما عمله أبوه في أخيه. انظر إلى المسلم تراه واقفا أمام الحاكم الذي يحكم عليه بغير الكتاب والسنة، ينتظر أن يحكم على أخيه له ثم يطلب عقوبة أخيه بالحبس، ويخرج مع أولاده ومع زوجته وأقارب زوجته كأنهم فتحوا بلادا للمسلمين.

فهل مثل هذا يكون قد هذب أولاده وعلمهم صلة الرحم؟ لا والله، ولكن أفسد أخلاقهم وجعلهم كالتابعون لبعضهم. ثم انظر إلى المسلم يسعى ليسقط أخاه المسلم عند من له عليه سلطة من غير المسلمين لينال وجاهة أخيه أو منزلته أو ماله، بل ليؤذيه ويضره بدون أن ينال كسبا إلا السرور بأذية أخيه على يد غير المسلم، ثم يتوجه فيخبر زوجته وأقاربها أمام أولاده ويفتخر بهذا العمل، ويمدح من عمل مثله فيخلق (الحاضرين) بأخلاقه. وقد يسعى بهمة في إظهار عيوب المسلمين أمام غيرهم ليتمكنوا من مؤاخذتهم عليها وإذلالهم. هذا العمري عمل الشياطين وأشر الوحوش الضارية. فمن كان هكذا فهو والله من أشر الشياطين، وأضر الأمراض على المسلمين. كيف يفرح مسلم أن يحكم على أخيه غيره بغير الكتاب والسنة له؟ فيرضى بحكم غير القرآن ويفرح بإساءة أخيه وينسى قدر الإساءة التي أساءها إلى نفسه وإلى الإسلام والمسلمين وإلى المروءة والفضيلة، ويجهل قدر ما خسر في جانب ما اكتسب، والله سبحانه وتعالى يمن علينا بالنور والهدى آمين.

مراتب اليقظة

المرتبة الأولى:

العلم بالحسن شرعا، والقبیح شرعا، بعقل يعقل علما يمكن النفس من استحضار فوائد الحسن العاجلة والآجلة، حتى يحصل له الشوق والميل إلى عمله مع ما فيه من ألمها وهجر مشتهياتها لما تناله في العاجلة من حسن السمعة والاحترام والقرب من أهل الجاه والتقوى في عاجلة الأمر وما هي واثقة بنيله بعد مفارقة كون

الفساد ودار الزوال ومنزلة النقلة إلى النعيم المقيم في دار البقاء ونزل السعداء، مع ظهور قبح القبيح حسا وإن كان يلائم النفس وتشتيه لما تجده من الألم العاجل، لتعلم من سوء السمعة ونفور الناس والشهرة بالردائل وقبح الحال، حتى أن ضمير الإنسان قد يحكم عليه بالدناءة والخزي ويكون دائما محتقرا أمام نفسه، ويستحي أن ينكر القبيح ويحجل من مقابلة الناس العقلاء الصالحين المصلحين، ويشند خوفه إذا ذكر عقوبة ذنوبه يوم الحساب، إذا لاحظ الإنسان تلك الملاحظات دل ذلك على يقظة قلبه، وتلك الملاحظة تجعله يقلل المعاصي ويميل إلى الطاعات.

المرتبة الثانية:

التوبة والإقلاع عن فعل القبيح مطلقا خلقا أو عملا أو قولاً، نادما على ما حصل منه عازما على أن لا يعود إلى الذنوب، ولا تكون التوبة خالصة حقيقة إلا إذا كان الداعي إليها التصديق الجازم عن علم يقين بيوم الحساب، والرغبة الحقيقية فيما عند الله بالقلب المخلص، لا لفقد ما يعينه على العمل أو فقد ما يعمل به أو خوف عقوبة الخلق أو طلب شهرة وسمعة أمام الناس أو منزلة ووظيفة حتى إذا تمكن عمل. فمن أخلص لعلمه اليقيني وأقلع وأتاب عازما على أن لا يعود وقع في الذنب فله أن يتوب ﴿إن الله يحب التوابين﴾⁽¹⁾ ومن أقلع لغرض أو مرض أو فقد فليس بتائب عند العلماء ولو لم يعد، حتى يطهر قلبه من المرض الملم به ويجد لذة التوبة الخالصة، فمن وجد تلك اللذة، وعلامتها طول الحزن على الذنوب وتمثيل مشتبهاته ﴿بهاوية﴾ تھوي به في نار جهنم، على أن لا تخطر على قلبه إلا وهي مبغوضة مردولة متيقن أنها باب العذاب الأليم. وبذلك يتحقق بصحة التوبة، والله هو التواب الكريم الغفور الرحيم.

(1) سورة البقرة - آية 222

المرتبة الثالثة:

المجاهدة وهي ثلاث مراتب: مجاهدة النفس وقهرها على عمل الواجب والمستحب. ثم مجاهدتها على ترك الحرام والمكروه. ثم مجاهدة العدو.

أهل السلوك على الطريق الأقوم ساروا بإخلاص وصدق عزائم
زكت النفوس وطهرت من رجسها فتجملوا بجمال دين قيم
وتخلصوا بجهادهم من غيهم نالوا القبول وأكرموا بغنائم
حتى إذ زكت النفوس تجملت بحقيقة التوحيد نور العالم
شربوا شراب الجمع بعد جهادهم منحوا الوصول إلى الولي الدائم
حجب المجانس والمفارق اشرفت أسرارهم بنور أعظم
الغيب أشرق بالصفاء لقلوبهم فتهم النفائس حجبت لا تظهرن
في حال جميعهم بغير طلاسيم بالفرق أوصاف المجيب الراحم
وهم الأئمة انجم تهدي إلى سبل النجاة بمحض وهب الراحم
أبدان رسل الله وراث الهدي بل انجم في أفق شمس القائم
هم وهم الهداه الوارثون أئمة وصلوا على وسط الصراط الأقوم
اخلاقهم وصفاتهم وعلومهم وهبت لهم من ذي الجلال المنعم
ورثوا بفضل الله نور رسوله فهم البدور بما ضياء المظلم
و المرتبة الأولى من مراتب المجاهدة: مجاهدة النفس على عمل الواجب
والمستحب، فالواجب ما لا بد منه، وهو ما بتركه تحصل المضرة في الدنيا والعقوبة في
الآخرة، وبالقيام به على الوجه الأكمل تحصل السعادة في الدنيا والآخرة - والواجب
إما واجب للنفس أو عليها.

الواجب للنفس:

فالواجب للنفس الذي يجب المحافظة عليه عند حصوله والعمل لجلبه عند عدمه هو: العافية والأمن والقوت. فإذا تحصل الإنسان على تلك الضروريات لزمه أن يحافظ عليها بكل غال ورخيص. ثم يجب على النفس تحصيل السعادة الحقيقية بتلك المعاني؛ أي بالأمن والعافية والقوت. فكأن تلك الواجبات لا بد منها حتى تتمكن النفس في عالم البقاء والتعيم ودوام المسرات. وهذه الواجبات للنفس قد سهل الله تعالى سبلها، فإنه سبحانه منح الخلق العافية فضلا منه، ومنحهم الرسل والعقل الذي يعقل عنهم وصاياهم، فبينوا للناس طرق الخير، ووضحوا لهم سبل النجاة، وخوفوهم من كل الرذائل وأذروهم عاقبتها، فمن أحب أن يكون آمنا على نفسه من سلب العافية، وعلى ماله من الضياع، وعلى نفسه من الهلاك بعد الموت فعليه بالتمسك بالسنة المحمدية. وتفصيل ذلك لا يحتاج إلى بيان. فإن أوامر الله تعالى محصورة في خيري الدارين، ونواهيه سبحانه محصورة في ترك الشرور. أما القوت فقد أوجد لهم سبحانه في الأرض معاش، وأنزل لهم سبحانه من السماء ماء ثجاجا فأخرج به سبحانه حبا ونباتا وحنات ألقافا، وسخر سبحانه وتعالى الشمس والقمر والكواكب، وأجرى الأنهار وخزن الماء تحت طبقات الأرض ليحفظه لنا، وجعل البحار العظيمة ملحة ليحفظ لنا الماء من التعفن، فجعل رزقه من الضروري لجميع خلقه بوسعة، بحيث أن الهواء والماء والضوء والنبات والأثمار والحيوانات النافعة والمعادن وغير ذلك من الجبال والكواكب أكثر مما يحتاجه الخلق بما لا يحصى من العدد: ﴿ وَإِنْ تَعَدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾ (1)

هذا وتحصيل السعادة لا يكون إلا بمجاهدة النفس على القيام أولا بما هو واجب لها من تحصيل الكمالات التي من أهمها العلم بالنفس ومبدئها ومعادها، وبما أودعه فيها مبدعها سبحانه، وبما أكرمها به سبحانه من التعيم فيها وحواليها مما لا بد منه

(1) سورة إبراهيم - آية 34

وأكمل، حتى تتحقق يرتبتها في الوجود وتعلم مقدار النعيم بالعجز عن حصرها، وتتيقن بحقيقة الاضطرار إلى جناب المنعم المتفضل، فيحصل لها السكون إلى حضرته العلية، ويحصل لها الحب والرغبة والرغبة، وعند ذلك تتمكن النفس من العمل الواجب لها والقيام بالواجب عليها حقيقة، وقد شرحت طرفا من هذا فكتاب ﴿ معارج المقربين ﴾ في باب قسم علوم النفس فليراجع.

الواجب على النفس:

لما كانت معرفة الواجب لا تكون كاملة إلا بعد معرفة الإنسان نفسه التي وجب عليها الواجب، والحقوق الواجبة عليها، ومعرفة من يجب له الواجب، والعلم بكيفية تأدية الواجب، لزم لمن أحب أن يعلم الواجب عليه ليقوم به أن يسعى في علم ما لا بد له أولاً..

الواجب على المسلم أنواع:

إما واجب لله، أو واجب لرسوله ﷺ أو لأولي الأمر منا، أو للوالدين، أو لمعلم الخير أو للأرحام والزوجة والأولاد ومن استرعاه الله عليهم وما استرعاه الله عليه ولجيرانه وأهل محلته وأهل المدينة، ولخاصة المسلمين وعامتهم، ولأهل الذمة ممن داموا على ذمة المسلمين ما وفوا بعهودهم. وكل نوع من هذه الحقوق يحتاج في تفصيل إجماله إلى أسفار، ولكنني أكتفي بشرح ما به يدرك المرید ما لا بد له منه، ويستبين للعالم بقية اللازم عليه مما أبينه، فيتضح له ما لم أذكره خشية الإطالة وخوف الملل، قال ﷺ: ﴿ من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ﴾⁽¹⁾.

(¹) في المسند الدارمي في المقدمة بلفظ ((لا تكون بالعلم عالما حتى تكون به عاملا)).

و قال ﷺ: ﴿المؤمن يكفيه قليل الحكمة﴾⁽¹⁾ وقبل البيان نقدم مقدمة.

معلوم أن مقاصد العمال محصورة في أربع: إما ان يكون المقصود الله تعالى، أو الدار الآخرة، أو المال، أو الذكر الحسن والشهوات النفسانية. فمن كان مقصوده الله تعالى يفوز بقسط وافر من كل تلك المقاصد بدون أن يكون مقصودا لذاته، بل لأنها وسائل للسالكين ومظاهر لمشاهدة معاني صفات الحق للمقربين، فيكون قاصدا لله تعالى فائزا بكل تلك المقاصد بدون قصد منه لها لأنها معارج له، لأن من طلب الله مخلصا أقبلت عليه الدنيا راغمة، وملا الله قلبه غنى به وأمنا، ومنحه حلال الكمال التي يكون بها وسطا عاملا من عمال الله تعالى عارفا بالله، ومن طلب الآخرة أضر بالدينا وهو الزاهد. ومن طلب الدنيا ﴿المال﴾ أضر بالآخرة من حيث صرف جميع همته في جمع المال، قال تعالى: ﴿أهكم التكاثر حتى زرتم المقابر﴾ وقال ﷺ: ﴿من كانت الدنيا أكبر همه جعل الله فقره في قلبه وملا يديه شغلا ولم ينل منها إلا ما كتبت له﴾⁽²⁾. وهو المغرور. ومن كان مقصده شهوات نفسه أضاع ديناه وآخرته و الذكر الحسن وأفسد صحته وهو الشيطان أو البهيم.

إذا تفررت تلك المقدمة فأقول وبالله التوفيق والمعونة:

الواجب لله تعالى:

هو أول الواجبات وأحقها بالأولية شرعا وعقلا، بحيث لا يتقدم عليه واجب قط وليس بإنسان من أهمل معرفة الواجب عليه لله والعمل بما علم. أقول ليس بإنسان

⁽¹⁾ عند الترمذي عن أبي هريرة بلفظ ((الكلمة الحكمة ضالة المؤمن... الحديث)) سنن الترمذي

⁽²⁾ وعند ابن ماجه في كتاب الزهد، والترمذي في القيامة بلفظ ((من كانت الدنيا همه جعل الله

وإن كان إنسانا صورة فإن الصورة الإنسانية قد تنقص عضو السمع أو البصر أو هما مع اللسان أو مع اليد، وتحكم عليه بأنه إنسان صورة، ولكنه لا يعتبر إنسانا بمعنى الإنسانية علما وعملا ونفعا وضررا، فكذلك قد تكون صورته صورة الإنسان كاملة في المبنى، وهو في الحقيقة والمعنى حقيقة سبع مفترس، أو سعال (ثعلب) خادع، أو خنزير سفاد، أو نملة حريص، أو طاووس معجب بجماله، أو بهيم لا يحسن تدبير نفسه.

أو شيطان مارد، إن أغناه الله تعالى استعان بنعمة الله على مخالفة أوامره، و إن أفقره دعاه الفقر الى الكفر و ارتكاب المعاصي، وإن توسط حاله نظر إلى ما في أيدي الناس من النعم فحسداهم، ورأى نفسه مظلوما وسب وكفر بالقضاء.

هذه الأنواع من الناس صورهم صورة الإنسان وحقائقهم غير حقيقة الإنسان وفي البحار أسماك على صورة الإنسان، وفي الغابات قرده على صورة الإنسان، والمعاني تتفاوت، فكذلك المعاني في صورة الإنسان تتفاوت ومن هذه الدلائل الحسية نحكم أن من لم يتبدىء بالواجب عليه لله تعالى - مبدع الكائنات وممد الكل بالأيدي والعطايا - ليس بإنسان.

الباب الثاني واجبات المسلم الفصل الأول الواجب لله سبحانه وتعالى

أولاً: المعرفة هي الواجب الأول لله سبحانه وتعالى:

أول واجب معرفة الله سبحانه وتعالى، وقد اختلف العلماء في طريق معرفته - سبحانه - على مذاهب شتى حتى تفرق الناس فرقا وأحزابا، يرى كل فريق منهم أنه على الحق وأن من خالفه على الباطل. وقد بينت أشهر مذاهب المختلفين وشرحت طرقهم في كتاب ﴿ معارج المقربين ﴾ إجمالاً، وبينت أنهم جميعاً لاخلاف بينهم إلا في اللفظ، فإن أصول الدين الإسلامي لا توجب الاختلاف بين المسلمين، وإنما الخلاف حصل في الطريق الذي تكون به المعرفة. فمنهم من قال: الرياضة والمجاهدة. ومنهم من قال: النظر والاستدلال. واختلفوا في وضوح الدلائل وغموضها حتى كان القائلون بالنظر والاستدلال فرقا مختلفة. ومن أراد الإطالة في هذا الموضوع فليراجع كتاب ﴿ معارج المقربين ﴾⁽¹⁾. هذا والإنسان بمعناه الحقيقي يمكنه أن يتحقق أن القرآن المجيد بين لنا طريق معرفته سبحانه، وحصرها سبحانه في التدبر فيما أبدعته قدرته وأحكمته حكمته سبحانه وتعالى - وأمدنا به من الفضل العظيم، بحيث لو نظر العاقل في نفسه - نظر عالم بما فاهم لما أودع فيه من غرائب الحكمة وعجائب القدرة، ولما في أعضائه الظاهرة والباطنة من الأسرار المدهشة والحكم المحيرة للألباب والمنافع الجمّة. وتفكر في أعضائه الظاهرة وفي أعمالها الغريبة من شحمة تبصر، ولحمة تسمع، وأخرى تشم، وأخرى يذوق بها، وأخرى تحس، ولسان ينطق، وعقل يعلم الغيب بالاستنتاج ويدرك حقائق الأشياء بالاستنباط، ونظر إلى ما حوله من مجموعة الأفلاك المنتظمة وتصريف الرياح المختلفة وتسخير السحب الهائلة وجريان الأنهار والبحار المفيدة، وما بين ذلك من نباتات وحيوانات وجمادات ومعادن، وما في كل ذلك من خواص ومزايا وأسرار وقوى فاعلة ومنفعة وما يتجدد في كل نفس من الشؤون والأحوال والحوادث والإثبات - يعلم حق العلم أن له مبدعاً أبدعه وأمهده بما به كماله ويقاؤه ونعيمه، ومن قرأ القرآن متدبراً يتحقق من آياته - خصوصاً الآيات التي

(1) يطلب من مكتبة: دار المدينة المنورة التابعة لمشيخة السادة العزمية 11 شارع مجلس الشعب.

ذكر فيها التفضل على الإنسان بما فيه وما حوله والتمنن عليه بإيجاده وهي آيات لا تخصي - يعلم حق العلم أن الطريق إلى الله سبحانه وتعالى هو النظر في آياته الكونية وفهم آياته المتلوة.

قول سيدنا علي في تنزيه الله تعالى:

و هنا أورد ما قاله سيدنا علي كرم الله وجهه في تنزيه الله تعالى قبل أن أنبه فكرك بآيات الآثار المحيطة بك لتذوق رحيق الأئمة وتقتطف أزهار رياض العلم بتنزيه مبدع الكائنات والله الموفق:

﴿ الحمد لله الذي لم يسبق له حال حالا، فيكون أولا قبل أن يكون آخرا ويكون ظاهرا قبل أن يكون باطنا. كل مسمى بالوحدة غيره قليل. وكل عزيز غيره ذليل. وكل قوي غيره ضعيف. وكل مالك غيره مملوك. وكل عالم غيره متعلم. وكل قادر غيره يقدر ويعجز. وكل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات ويصمه كبيرها ويذهب عنه ما بعد منها. وكل بصير غيره يعمى عن خفي الألوان ولطيف الأجسام. وكل ظاهر غيره باطن وكل باطن غيره ظاهر. لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان. ولا تخوف من عواقب زمان. ولا استعانة على ند مشاور. ولا شريك مكاشر. ولا ضد منافر. ولكن خلائق مربوبون. وعباد داخرون. لم يحلل في الأشياء فيقال هو فيها كائن. ولم ينء عنها فيقال هو منها بائن. لم يؤده خلق ما ابتداء. ولا تدير ما ذرأ. ولا وقف به عجز عما خلق. ولا ولجت عليه شبهة فيما قضى وقدر. بل قضاء متقن. و علم محكم. وأمر مبرم. المأمول مع النقم. المرجو مع النعم ﴾.

هذا ولما كانت الحكمة أشد تأثيرا على النفوس إذا ظهرت للنفوس في ألفاظ منظومة أحببت أن أورد لإخوتي المؤمنين - روحي الله وإياهم بريحان آياته الظاهرة في مكوناته، ومنحنا طمأنينة القلب بشهود أسرارها الباطنة في آياته، فإنما هي مكونات قائمة بآيات، وتلك الآيات دالة على أسرار مكون الكائنات وأنه القاريء لتلك المواجيد المنظمة، أن يلتقط لآئها الحكيمة الغالية من أصدافها اللفظية غير منتقد

على عدم مراعاة المحسنات اللفظية فإن المقصود منها الروح لا المباني. والله أسأل أن
يمنح القاريء نورا يستبين له به سر تلك المباني وخفي تلك المعاني، إنه مجيب الدعاء.

كيف تتفكر فيما أحاط بك

أيا أيها الإنسان من طين فخار تكونت كي ترأى مظاهر أسراري
و من نطفة أنشئت آيا جلية و صرت بمحض الفضل حصن
تدبر فانت الطين والماء فاشهدن جمالي وإحساني وسري وأنواري
أكنت سميعا أو بصيرا وعالما و لكنني أنعمت بالمسار
نسيت جمال الله فيك، تتيقطن فمن ينسه يلقي سعير النار
أيا طينة الصلصال من بجمالة تحلت بالنوار بعد فخار قرار
اتنسي مفيض الفضل والجود والعطا و تهجر أورادي وتترك اذكارى
و للدون والدنبا تميل وترتجى نوال الرضا والعفو إحسان غفار
تذكر جميلي من ﴿ألست﴾⁽¹⁾ وبعدها و تابع سبيلي مخلصا ياساري
و لا تنسي احساني اليك ورحمتي و كن مخلصا في خفية وجهاري
و لا تشغيل بسواي ترفع للعلا و تحظي بفضلتي صحبة الأخيار
فلا ينسي احسان الجميل وفضله سوي مبعد او جاهل ومماري

يا صورة الرحمن والنور العلي يا سدرة الأوصاف والغيب الجلي
فيك العوالم كلها طويت فهل يرقى به أهل الصفا بتأهل
خفيت بذاتك من معاني القدس ما بالعزم كي تسكن بوطن اول
أأنست بالكوان بعد شهوده تومي بأن القدس أول منزل
أولا سمعت ﴿ألست﴾ عند شهوده و سجدوا أملاك العلي بتنزل

(¹) يشير إلى قوله تعالى: ((واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذوبتهم وأشهدهم على أنفسهم

ألست بربكم)) سورة الأعراف - آية 172

فهاجر سكونك للكيان وبادون لا يشهدن إلا لذي قلب خلي
 فيك المعاني مشرقات بالذي أدركت سرا فيك من معني الولي
 حيطه الكون آية الإمكان يا سدره الوصاف والغيب الجلي
 و بها الآى أشرقت منبئات عن معاني الدليل والبرهان
 حيطه دون دركه اكل عقل لحنفا سرها بطيء المباني
 و هو كالدن نسبة وانتسابا لمعان في باطن الإنسان
 لم تسع ما بقلب فرد قريب و هي قد أعجزت سويدا المعاني
 قد أحاطت بهيكلتي بحدود و هو سور لكنز غيب مصان
 عجباً للعقول تعجز عما هو أي لمشهدي وعياني
 ضاق عما وسعته بيقين كل عال من الكيان ودان
 أنت ياكون حيطتي حال فرقي عند فوزي بحظوة في الجنان
 و انفصالي بعد اتصالي وحجي بعد كشفني في هيكل لي ثاني
 و انا حيطه وأنت خفي حال جمعي وحظوتي بالتداني
 أفق مشرق بنور على قد أضاءت به شمس المعاني
 حيطتي الوجه بعد محو وجودي ببقائي عن مقتضي الإمكان
 كان عقلي قبل اتصالي وفصلي يعقل الآي بانتساب المكان
 ثم لما لاح الجمال بمعني من معاني الجميل بالاحسان
 و هب العقل عنه يعقل معني هو سر التوحيد والقرآن
 صار صور الإمكان يعقل عني و انا العقل صورة الرحمن
 في سر وقني نور جلي يشرفن ظاهرا لروح الفاني
 و معان قد نزهت عن مبان قد أضاءت للمفرد الإنسان

نغمات الآثار لا الأوتار و اغاني الأفكار لا المزمار
 و مادم الذكرى بحانات صفو لامدام في حانة الخمار

و جهاد للنفس كي تتحلي
 و تخل عن الرذائل أولي
 أيها النفس في الفضائل مجد
 و هي عز في عاجل ونعيم
 أيها النفس في الرذائل خزي
 أقبلي فالكمال خلق جميل
 بعد علم بأن تلك المزايا
 أيها النفس: حظ دنياك فان
 و انظري في الوجود نظر حكيم
 و اعلمي باليقين أن شئونا
 أي عذر يا نفس - بعد التجلي
 كنت ماء يا نسل آدم قبلا
 صرت لي صورة سميعا بصيرا
 ثم ترقى عالين نزل شهودي
 او بسجين دار سخطي وبعدي
 فتدبر - يا ماء - ثم تحل
 كيف ترضي بلذة ونعيم
 جاهد النفس في جناب على
 و تشبه بالرسل صدقا وعدلا
 و دع الودون للبدنيء وبادر
 و اخلع الكون لا بسادع زهد
 و انظرن نظرة بعين يقين
 تر فيك الأنوار لاحت جهارا
 أهل عالين لا يرون الدنيا

ستر الكون عنهم فرأوه بعيون وهبت من الغفار
فتراهم بالله الله قماموا بلسان الأملاك كل نهار
ذكروه لما رأوه فذكروا عاملوه بشريعة المختار
ثم غابوا به وذكروا فذكروا بلسان السلام والجبار
و تحلوا منه بخلق وحوال و جمال القرآن والأذكار
نور العقول لأي الكون ميزان و الكون اجمعه للعقل ميدان
يجول فيه ليدي سره فيري ما فيه مرتبطا والفكر برهان
فلم يجاوز الكون لو سبقت أنواره تحجبته عنه اركان
ما للعقول إذا ظهرت مشاهدة للغيب في ستره لوصح إمكان
لكنها إن صفت من أفق حيطتها تقر بالحق والإقرار إيمان
حتى تمد بنور الوحي يكشف ما عنها تحجب والتحقيق إحسان
فضل من الله يوليه بسابقة لذي مقام على وهو إنسان
كالشمس راد الضحي يهدي إلى سبل بها الوصول وروح ثم ربحان
له يسلم أهل الأصطفاء ومن فازوا بسابقة والفوز رضوان
فيمنحون عيون الكشف من أحد بها يدوم لهم كشف وغفران
و عندها الغيب والسر المصون يري لأعين القلب والبرهان قرآن
نور من الله شمس للهدي ظهرت فيه شفاء وأسرار وتبيان
فشاهدن نوره واشرب مدامته و لا تمل للهوي فالخط شيطان
أسلم لمولك تشهد نور طلعتة تجليه للقلب آيات وأكوان
و اتبع سبيل مراد الذات متصفا بالصدق في حبه فالصدق إيقان
ترقي إلى حضرة الملاء العلي إلى حظيرة القدس والمحجوب رحمن
و خل مقتضيات العقل متبعا هدي النبي فإن الحق سلطان
و في معيته فادخل بسنته و حافظن فهى للأفراد ميزان
و الفرد شمس الهدي باب الوصول إلى نيل القبول وقد وإفاك فرقان

صلاة ربي على المحبوب كعبتنا بما تكون لنا البشري ورضوان

معالم الكون آيات تنبنا من سر غيب بدا فيه الخالقنا
و في السموات والأراضين آيته لاحت لأهل النهي جهرا تفهمنا
شهدت علانية للناظرين لها و أشرقت شمسها تنبي بوجودنا
و برهنت لذوي الأبواب قائلة الحق لاح جهرا شاهدهته بنا
لسنا بمجبب ولكنا دلالتله تبدو شمائل اوصاف العلي عنا
تعمي العيون التي قد أبعدت عنا و تظهرن لذوي الحسني حقيقتنا
المؤمنون بنا شهدوا صفات على و الغافلون راونا لا مكوننا
وقفت عزائهم عند الكيان فما نفذت بصيرتهم في سر مبدعنا
نا حجابا لأهل الغي نبعدهم و الحال أنا لنيل القرب قد صغنا
عجبا لمن عن نور خالقهم بنوره اذ بدا جهرا لهم علنا
أسماءه ظهرت للعين مشرقة و أشرقت شمسها حقاً لمن حسنا
تلك السموات والأرضون نور هدي تبدي محاسنه كما توصلنا
فشاهدن حسن ما فيها وكن يقظا و لا تقف عندها تنأ بما السننا
و نزهن حضرة الأسماء عن نسب و عن قيوم بعقل وانحض معنا
فنوره بعيون القلب تشهده و بالبصيرة ترآه وتصحبنا
لا يبدوا نور العلي إلا لمن سبقت بالفضل منه له الحسني ووافقنا
حظر على العقل نور الغيب يشهده و العقل قيد فشاهد نورنا منا

نور المكون للبصيرة لاحا في الكائنات فأشرقت مصباحا
لم يبق في ذا الكون من جزئية إلا ولاحت بالضياء صراحا
دلت على سر العلي تنزهت اسماءه بل افصحت إفصاحها
لاحت لأهل الفكر شمس صفاته فرآه بما آثارها مصباحا

لما كان جهل شيء من تلك الآيات المودعة في الإنسان والمحيطه به المسخرة مؤديا إلى الجهل بالحق - سبحانه - بقدر ما جهل من آياته، لأنه - سبحانه وتعالى - أقامها حججا واضحة وبراهين ساطعة على كمال تنزيهه-سبحانه - وكمال قدرته وحكمته، وعلي أحدية ذاته وأسمائه وصفاته المقدسة.

و لا بد لي في هذا الموضوع من أن أفضل هذا الإجمال بلماع إلى تلك الآيات الظاهرة في الأرض وفي السموات وفي نفس الإنسان، مما هو محسوس بالجوارح ولا يحتاج إلى بحث وتنقيب، حتى تنبه قوى الفكر فتجول في هذا العالم جولة متدبر يري أنه عاجز عن شكر المنعم - سبحانه - مضطر في كل نفس إلى معونته - ﷻ - فيقوى عامل الفكر بعد الذكر حتى يرتقي من عالم الحس إلى عالم الخيال، ولديها يمكنه أن يتمثل الآيات العلوية فتلوح عليه أنوار مبدع الكائنات، وتنبج له أسرار القادر الحكيم الحي القيوم، ولديها تقوي عوامل الحيرة والدهشة فيرتقي من عالم الخيال إلى العجز المطلق، ولديها يحضر فلا يغيب، وليس بعد العيان بيان، ويكون شبيها بالعوالم الروحانية ممن وصفهم الله بقوله:

﴿الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾ {20} والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربه ويخافون سوء الحساب {21} والذين صبروا ابتغاء وجه ربه وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويذرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ﴿ (1).

الحكمة هي ضالة المؤمن المنشودة:

هذا وإن بعض إخواننا كرهوا بعض العلوم التي تبين بعض الآثار الكونية ظنا منهم أن ذلك يخالف السنة والكتاب، والحقيقة التي لا مرأ فيها أن المؤمن لا يعادي علما من

(1) سورة الرعد - آية 2-24

العلوم كائنا ما كان، ولكن المؤمن يبحث عن الحكمة أين كانت وهي ضالته، فهو يطلع على كل علم ليأخذ منه الحكمة ويرفض سواها كما قال ﴿عَلَّمَ﴾: ﴿الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها﴾⁽¹⁾ وليس المؤمن العالم بأسرار القدرة السارية في الآثار الكونية - علويها وسفليها - كالمؤمن الذي لم يعلم، فإن المؤمن العالم على اليقين الحق وهو حجة الله القائمة على الخلق المتحقق حقيقة بخشية الله تعالى كما قال الله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾⁽²⁾ وقال الله تعالى لحبيبه ﴿عَلَّمَ﴾: ﴿وقل رب زدني علما﴾⁽³⁾ ولا أبعد بك أيها الأخ عن القصد، ولكن تدبر معي سر الإسراء وحكمة المعراج الصريحة في القرآن المجيد التي هي قوله تعالى: ﴿لنريه من آياتنا﴾⁽⁴⁾ تر أنك مفروض عليك أن تكون عالما علم اليقين بما كان حق يقين لرسول الله ﴿عَلَّمَ﴾ لتكون من أهل اليقين، وتأمل معي إلى قوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود﴾⁽⁵⁾ {27} ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴿عَلَّمَ﴾⁽⁵⁾ فإذا تأملت ببصيرتك، وتحققت أن الله حكم أن الذين يخشونه سبحانه هم العلماء حقيقة - بعد ذكر تلك الآيات العجيبة - تحققت أن العلم بالله تعالى لا يكون إلا بعلم بآياته الظاهرة في آثاره وعجائب قدرته وغرائب حكمته المنبلحة في مكوناته، وبقدر ما فاتك من علم شيء منها فاتك من العلم بالله. والله ينبه إخوتي المؤمنين في جميع بقاع الأرض إلى العمل بالقرآن الشريف وإحياء السنة المطهرة.

(1) أخرجه الترمذي في كتاب العلم، وابن ماجه في الزهد.

(2) سورة فاطر - آية 28

(3) سورة طه - آية 114

(4) سورة الإسراء آية 1

(5) سورة فاطر - آية 27-28

معرفة آلاء الله بالنظر والفكر:

و لو نظرت معي أيها الأخ - أرشدك الله - فيما ورد من الآيات القرآنية الحاتئة على الفكر والاعتبار والنظر في آيات الله الظاهرة في مكوناته، لتحققت أن أوجب الواجب على المؤمن معرفة آلاء الله بالنظر والفكر، وإليك بعض آيات تكشف لك الحقيقة في هذا، المقصد العظيم، قال الله تعالى: ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون {21} الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ (1)

و قال الله تعالى: ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم {163} إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ (2)

و قال سبحانه وتعالى: ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار {190} الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقتنا عذاب النار ﴾ (3)

و قوله تعالى: ﴿ الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون {2} وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات

(1) سورة البقرة - آية 21-22

(2) سورة البقرة - آية 163-164

(3) سورة آل عمران - آية 19-191

جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون {3}
وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان
يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم
يعقلون ﴿١﴾

و قوله تعالى: ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره
ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ (2).
و قوله سبحانه وتعالى: ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا
وقمرا منيرا ﴾ (3).

و قوله تعالى: ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون
{33} وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون {34} ليأكلوا
من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴾ (4)

و قوله ﷻ: ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا {6} والجبال أوتادا {7} وخلقناكم أزواجا
{8} وجعلنا نومكم سباتا {9} وجعلنا الليل لباسا {10} وجعلنا النهار معاشا
{11} وبنينا فوقكم سبعا شدادا {12} وجعلنا سراجا وهاجا {13} وأنزلنا من
المعصرات ماء ثجاجا {14} لنخرج به حبا ونباتا {15} وجنات ألفافا ﴾ (5)

و قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه {24} أنا صببنا الماء صبا
{25} ثم شققنا الأرض شقا {26} فأنبثنا فيها حبا {27} وعنبا وقضبا {28}

(1) سورة الرعد - آية 2-4

(2) سورة الحج - آية 65

(3) سورة الفرقان - آية 61

(4) سورة يس - آية 33-35

(5) سورة النبأ - آية 6-16

وزيتونا ونخلا {29} وحدائق غلبا {30} وفاكهة وأبا {31} متاعا لكم
ولأنعامكم ﴿١﴾.

و قوله تعالى: ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين
الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر
والسما ذات الرجع والأرض ذات الصدع ﴾ ﴿٢﴾.

و قوله جل شأنه: ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء
كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ ﴿٣﴾.
و جماع تلك الآيات قوله تعالى: ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن
لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾ ﴿٤﴾.

هذه بعض الآيات التي تنبه فكريك وتيقظ قلبك من نوم الغفلة، وعقلك من
رقدة الجهالة، وتشغلك عن عكوفك على خدمة جسمك، وقصر همتك على
شهوات بطنك وفرجك، واجتهادك فيما ييسر لك هذه المطالب والحظوظ الفانية،
والملاذ الموبقة لك يوم الحساب، فعليك أيها الأخ المسترشد - أرشدني الله وإياك -
إن كنت تحب أن تكون من المطيعين لله، الممتثلين لأوامره التي جاءت بها الرسل
عليهم الصلاة والسلام، العاملين بسنة سيدنا ومولانا
مُحَمَّد ﷺ أن تقبل بكليتك على ما يقربك إلى ربك، ولا تنس نصيبك من الدنيا،
وإياك أن تكون منكبا بكليتك على الدنيا ناسيا يوم الحساب فتكون من الذين قال
الله تعالى فيهم: ﴿ اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومآواكم النار وما لكم
من ناصرين ﴾ ﴿٥﴾.

(١) سورة عبس - آية 24 - 32

(٢) سورة الطارق - آية 5-12

(٣) سورة الغاشية - آية 17 - 2

(٤) سورة الإسراء - آية 44

(٥) سورة الجاثية - آية 34

الآيات الظاهرة للفكر:

و إليك - أيها الأخ الراغب في نوال العلم النافع - طل من وابل الآيات الظاهرة لفكرك يكون وراءه- بمعونة الله - وابل اليقين وكشف التمكين، ولتقريب ذلك أضرب لك مثلاً: لو نظرت إلى طيارة في الهواء تحمل إنساناً، أو سفينة تجري في اليم بدون الهواء، أو عربة تجري في الأرض بدون خيل تجرها لحصلت لك الدهشة والحيرة لقصورك عن معرفة سبب ذلك، مع أن ذلك سهل عليك لو تأملت، ويمكنك أن تعمل مثله لو تفكرت فيه، ولكنك عند أول نظرة إلى تلك الأشياء الغريبة ينطلق لسانك قائلاً: سبحان الله ! مع أنك يحيط بك ما أنت تشهده طول عمرك حساً وذوقاً وسمعا وشمّاً ورؤية من الآيات التي تتحير فيها عقول العقلاء، وتدهش فيها نفوس الأذكياء، وتعجز عن إدراك حقائقها أفكار الحكماء، ويرجع عنها خاسئاً وحسيراً، ويرتد الطرف عنها كاسفاً وكليلاً، وأنت جامد لا تتعجب وهامد الجسم تنزل عليك أمطار الحكمة قلا تهمز، كأنك لم تسمع ولم تبصر ولم تفقه، ولك سمع وبصر وقلب، انظر بعين بصيرتك إلى هذه الأجسام السماوية الرفيعة وشدها وصلابتها وحفظها من التغير والفساد إلى أن يبلغ الكتاب أجله فإن الأرض والهواء والبحار بالإضافة إليها كحلقة ملقاة في فلاة، قال تعالى: ﴿والسمااء بنينها بأيدي وإننا لموسعون﴾⁽¹⁾ ثم إلى دوراتها مختلفاً، فإن بعضها يدور بالنسبة إلينا رحوية، وبعضها حائلية، وبعضها دولابية، وبعضها يدور سريعاً وبعضها يدور بطيئاً، ثم إلى دوام حركاتها من غير فتور، وإلى إمساكها من غير عمد تعمد بها أو علاقة تدلي بها، ثم انظر إلى كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها، فإن بعضها يميل إلى الحمرة، وبعضها إلى البياض، وبعضها إلى لون الرصاص. ثم إلى مسير الشمس في فلکها مدة سنة، وطلوعها وغروبها كل يوم، واختلاف الليل والنهار، ومعرفة الأوقات، وتمييز وقت المعاش عن وقت الاستراحة، ثم إلى إمالتها عن وسط السماء حتى وقع الصيف

(1) سورة الداريات - آية 47

والشتاء والربيع والحريف. وقد اتفق الباحثون على أنها مثل الأرض آلاف المرات وفي لحظة تسير أكثر من قطر الأرض، وقد وضع ذلك جبريل عندما سأله رسول الله ﷺ: ﴿هل وجب الظهر يا جبريل؟ فقال: لا نعم، فقال له ﷺ﴾ ما معناه: ما هذا؟ فقال له: من وقت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس خمسمائة عام⁽¹⁾ أي مسافة يقطعها المجد في خمسمائة عام.

ثم انظر إلى جرم القمر وكيفية اكتسابه النور من الشمس لينوب عنها بالليل، ثم إلى امتلائه وانحاقه، ثم إلى كسوف الشمس وخسوف القمر! ومن العجائب السواد الذي في جرم القمر فإنه لم يسمع فيه قول شاف إلى زماننا هذا وكذلك في المجرة وهي البياض الذي يقال له سرج السماء، وهو على ذلك يدور بالنسبة إلينا دورة رحوية، وليست تلك الكواكب المنتورة في هذا الجو الفسيح ولا حركاتها المنتظمة حصلت باتفاق أو عبثا- تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا- بل في كل كوكب من الكواكب الصغيرة في عين رأسك خواص ومزايا وفوائد لا تحصى ولا تعد، بحيث لو اختلفت حركة من حركات دورانها واختلفت عن مركزها لاختل نظام جميع العالم علوا وسفلا، فسبحان الحكيم القادر الذي خلق الأشياء مرتبة منظمة.

و ربط أعلاها بأسفلها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾⁽²⁾ فكل الكواكب السماوية مرتبطة بكل العوالم الأرضية، فما من ذرة من الذرات من مركز الأرض إلى العرش إلا وهي مرتبطة بكل ذرة أخرى متوقفة عليها بحكمة وتدبير وإرادة قال سبحانه وتعالى: ﴿الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك

(1) وقد روى الترمذي وأحمد عن النبي ﷺ أنه قال: ((بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة)) سنن الترمذي، ومسنند أحمد 29/3.

(2) سورة الأنبياء - آية 3

البصر خاسأ وهو حسير ﴿⁽¹⁾ ومع هذه الأطراف المتناثية والأجواء الواسعة تري الاتصال من كل العوالم علويها وسفليها حاصلًا محسوسًا، فتري كل كائن فاعلا ومنفعلا، وكل ذلك بمشيئة الله وقدرته، وهو الفاعل المختار لا شريك له، كما قال سبحانه، ﴿ وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾ ⁽²⁾ فالكل في الكل مسخر كما دبرته الحكمة وأبرزته القدرة، والله أسأل أن يشهدنا آياته لتطمئن قلوبنا، وتسكن إليه- سبحانه- نفوسنا آمين.

ثم انظر إلى ما بين السماء والأرض من انقضاض الشهب والغيوم والرعود والبروق والصواعق والأمطار والثلوج والرياح المختلفة المهاب، وتأمل في السحاب الكثيف المظلم كيف اجتمع في جو صاف لا كدورة فيه، وكيف حمل الهواء المجتمع من قطرات صغيرة حتى صارت كالجبال فتلاعب بها وساقها الله إلى المواضع التي أراد إحياءها فترش وجه الأرض، وترسله قطرات متفاضلة لا تدرك قطرة منها ليصيب وجه الأرض بلطف، ولوصبه الله صبا لأفسد الزرع بخدشه وجه الأرض وهدم المنازل، ويرسلها الله سبحانه وتعالى مقدارا كافيا، لا كثيرا زائدا على الحاجة فيعفن النبات، ولا قليلا ناقصا عن الحاجة فلا يتم به النمو، كما قال تعالى: ﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر ﴾ ⁽³⁾ ثم انظر بعد ذلك إلى ما ينزله الله تعالى من الأمطار على رؤوس الجبال ويطون الأودية ثم يجمعه سبحانه وتعالى فيكون سيلا جارفا، تتلاقى فروعها المختلفة ومجاريه المكتنفة للجبال حتى تجتمع في مجري واحد، فتجري منه الأنهار كالروح السارية بإذن الله تعالى في جسم الأرض فيحي الله بها الأرض بعد موتها، فمنها ما يجري إلى الشمال، ومنها ما يجري من الشمال إلى الجنوب، بحكمة حكيم قادر، وتدبير مريد مقدر وعناية معط وهاب.

⁽¹⁾ سورة الملك - آية 3-4

⁽²⁾ سورة الأنعام - آية 18

⁽³⁾ سورة المؤمنون - آية 18

و انظر إلى ما ينتج عن ذلك من الخير العميم للنباتات والحيوانات والإنسان، و ما يسهل به من المواصلات، يسير الفلك المواخر فيها لنبتغي فضلا من ربنا- سبحانه- ولنشكره على نعماه، ولنعلم عدد السنين والحساب، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾⁽¹⁾ ثم انظر أيها الأخ بنور فكرك إلى اختلاف الرياح فإن منها ما يسخره الله تعالى ليحمل السحب ويسوقها إلى الأرض الميتة، ومنها ما ينشرها ومنها ما يجمعها، ومنها ما يعصرها، ومنها ما يلقيح الأشجار ويحمل البذور إلى المراعي والأودية بإذن الله تعالى، ومنها ما يربي الزرع والثمار، ومنها ما يجففها. ثم انظر إلى الأرض كيف جعلها الله قرار لتكون فراشا ومهادا، ثم إلى سعة أكنافها وبعد أقطارها حتى عجز الآدميون عن اكتشاف القطبين للآن⁽²⁾ مع ما أظهره الله تعالى على أيدي الصناع من عجائب الآلات المسهلة للرحلة، وما من الله به على العقول من استخدام البخار وتيارات الكهرباء والانتفاع بزيت البترول والفحم المتحجر، وما أمد الله به الأفكار من كشف خواص كثير من الكائنات النافعة لبني الإنسان، و مع هذه التسهيلات فالإنسان عاجز عن علم أطراف الأرض المتناحية وهي مسخرة له بما فيها، ولا يزال في الكائنات الحية الأرضية وفي الجمادات خواص لم ينكشف منها إلا النذر اليسير، قال تعالى: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾⁽³⁾ فسبحان من لا يعلم قدره غيره، ولا يبلغ الواصفون صفته.

(1) سورة النحل - آية 14

(2) كان ذلك عند نشر الطبعة الأولى للكتاب سنة 1332هـ - 1914م

(3) سورة الإسراء - آية 85

سجود الخيال وحيرة الألباب عن إدراك القادر الحكيم:

إذا كان الإنسان المسخر له ما في السموات وما في الأرض عاجز عن إدراك الخواص الضرورية له، كيف يحيط بالآيات الخفية عنه إلا بنور يهبه الله لمن يشاء بعد أن يوفقه للعمل بالقرآن المجيد والسنة المطهرة، بعد هذا العجز البين الذي قام عليه برهان العيان كيف يمكن الإنسان العاجز أن يحيط علما بواجب الوجود العلي قدرا عن أن تدركه البصائر. المنزه قدرا عن أن تحيط به- سبحانه- الأرواح الطاهرة أو النفوس الزكية. فسبحان من أعجز العقول عن إدراك حقيقة المعقول من الكون المحسوس، وأعجز الأرواح عن أن تحوم حوالي عزته وجبروته، أو تشرف على علي عظمته وكبريائه، وإنما العجز عن إدراك حقائق الآيات الطاهرة وسر إبداعها وغريب إمدادها برهان على سجود الخيال عن تمثيل هذا الجنب العلي، ودليل على حيرة الألباب عن إدراك القادر الحكيم. وليس الإنسان وحده هو الطالب الحائر في عظمة هذا المقام العلي، بل كل كائن من عوالم الملكوت الأعلى يطلبون الله كما نطلبه، قال رسول الله ﷺ:

﴿ إن الملائكة الأعلي ليطلبون الله كما تطلبونه ﴾ وقال الله تعالى: ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه و تعالى عما يشركون ﴾ (1).

آيات القدرة الباهرة في الأرض:

ثم انظر أيها المسترشد نظرا ثانيا تر ظهر الأرض محلا للأحياء وبطنها مقرا للأموات فتراها وهي ميتة كما قال الله تعالى: ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ (2) ثم أظهرت أجناس المعادن

(1) سورة الزمر - آية 67

(2) سورة الحج - آية 5

وأخرجت أصناف الحيوانات، قدرة باهرة وحكمة محيرة للعقول. ثم انظر يا أخي - نور الله قلبك - إلى صنع ربك - سبحانه - في أحكام الجبال الشامخات، التي جعلها الله - سبحانه وتعالى - أوتادا للأرض تمنعها من أن تميد، ثم تأمل إلى إسكان الماء في الأرض وإيداع أوशल الماء في خزانات فوق قمم الجبال، وجعل الأرض ذات مسام فتوصل تلك الأوشال إلى الواحات البعيدة عن الأنهار التي لم يقدر الله - سبحانه وتعالى - أن ينزل عليها الأمطار، حتى إذا وصلت إلى تلك البقاع فكانت كعيون تجري على سطح الأرض بقدرة اللطيف الرؤوف وحكمة الرزاق الكريم. وقد تجتمع تلك الأوشال في الأماكن المرتفعة وعلى قمم الجبال وتجري مجتمعه حتى تتكون منها الأنهار، فسبحان مسخر السحاب ومصرف الرياح ومجري الأنهار.

شيء من أسرار البحار وعجائبها

ثم انظر إلى خفي الألفاظ وجلي الإسعاف تر البحار العظيمة كبحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) وبحر القلزم (البحر الأحمر) وبحر فارس (الخليج الفارسي) وبحر المانش وغيرها من البحار المتسعة كالمحيط الهندي ترها كخلجان صغيرة للمحيط الأعظم الذي يحيط بالأرض الذي يسمى بالمحيط الهادي، وبحر الظلمات (المحيط الأطلنطيقي) وتر اليبس كجزيرة في وسط هذا المحيط تتخللها خلجانه وتجري في جسمها الأنهار والعيون وتعلم أن اليبس من الأرض جزء صغير بالنسبة للمغمور من ماء المحيط لحكمة غفلت عنها أيها الأخ الراغب فيما عند الله. أشير لك إلى شيء من أسرار هذا المحيط الجلية المحسوسة. منها مزج الهواء بأجزاء متناسبة من الأبخرة المتصاعدة منها ليكون صالحا للتنفس، و لولا ذلك لاختنق الأحياء، ومنها حفظ عنصر الماء الزمن المقدر من أن يصير آسنا، وأوتنا والماء كما علمت سر حياة العوالم الحية، وقدر الله تعالى بحكمته وتدييره أن يجعل منه جزءا صالحا لحياة الإنسان والحيوان والنباتات، وجعل لذلك أسبابا جلية لعقلك، وواضحة لفكرك، لا تختل ولا تفتت، أحكم إبداعها وأكمل نظامها، قدرها بتقديرها نافعة لكل

حي وزيادة، وما زاد منها عن اللزوم جرى بقدره الله تعالى وحكمته حتى يرجع إلى مصدره ومقره.

ثم انظر إلى ما في تلك البحار والأنهار من الكنوز التي أوجدها الله تعالى ذخيرة للإنسان، قال الله تعالى: ﴿ وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾⁽¹⁾. فترى فيها من أنواع الحيوانات والجواهر ما لا يحصي عددها إلا الله تعالى. فما من صنف من أصناف حيوان البر إلا وفي البحر أمثاله وأضعافه، وفيها أجناس لا يعهد لها نظير في البر.

ثم انظر إلى خلق اللؤلؤ في صدفة تحت الماء، وإنبات المرجان واليسر في صميم الصخر تحت الماء وهو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر، ثم إلى ما عدها من العنبر، وإلى أصناف النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه ثم إلى السفن كيف سيرت في البحار وسرعة جريها، وإلى إيجاد الأنهار ومعرفة الريان موارد الرياح ومهابها وسواقيها، وعجائب البحار كثيرة لا تحصى. والمؤمن البصير يكفيه قليل الحكمة.

إبداع القدرة وإحكام الحكمة في المعادن:

ثم التفت عن يمينك وانظر ما أبدعته القدرة وأحكمته الحكمة من أنواع المعادن المختلفة وأصنافها المتفاوتة التي أودعها الله سبحانه تحت الجبال وجعلها كنوزا للإنسان، وميز سبحانه وتعالى بين خواصها وفوائدها وألوانها وأشكالها فمنها ما ينطبع كالذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والقصدير، ومنها ما لا ينطبع كالفيروز والياقوت والبرجد. وانظر بفكرك إلى معادن الأرض كالنفط والقار والكبريت وأنواع النطرون والشب والبتروك وغيرها، وأقلها الملح الذي لو خلت منه بلد

(1) سورة فاطر - آية 12

لسرى الفساد إلى أهلها، وتدبر ما أودعه الله تعالى في العقول من معرفة استخراج تلك المعادن وتنقيتها وكشف خواصها حتى انتفع بها الإنسان فسبحان الهادي الموفق.

قدرة القادر وعجيب صنعة الصانع في النباتات:

ثم انظر يا أخي إلى أنواع النباتات المختلفة الألوان والأشكال، وإلى أنواع فواكهها المختلفة الطعوم والروائح والألوان والأزهار، وتأمل إلى أنها غرست في أرض واحدة وسقيت بماء واحد، وفكر في قدرة القادر الحكيم وعجيب صنع الصانع البديع، وتدبر قوله تعالى: ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾⁽¹⁾ فسبحان من أنبت من أرض واحدة نباتا يسقى بماء واحد ويمر به هواء واحد مختلفا اختلافا بينا، كالاختلاف بين العسل والخل والملح والصبر وغير ذلك من التفاوت، ويخرج سبحانه من نواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب، ومن حبة بر واحدة سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة. هذا ولو تأملت إلى أرض البوادي وتشابه أجزائها وفكرت في حالتها إذا أنزل الله عليها الأمطار فإنك تراها قد اهترت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، تنبت أنواعا متشابهة اختلفت طبائعها وكثرت منافعها، فما من ورقة تنبت من الأرض إلا وفيها منفعة أو منافع لا تحصى، يقف فهم البشر دون إدراكها.

عجائب تحير العقول:

ثم انظر أمامك إلى ما أنعم الله به تعالى من أصناف الحيوانات وانقسامها إلى ما يطير ويقوم ويمشي على بطنه أو على رجلين أو على أربع وما يعيش في الماء أو الهواء أو جوف الأرض، وما يعيش في الأودية والصحارى والغابات، وما يعيش في النار كالسمندل، وتعجب في أشكالها وألوانها وصورها وأخلاقها وأفعالها، تر عجائب

(1) سورة الرعد - آية 4

تخير العقول، وأعمالا تندهش منها الألباب من تشييد المساكن، وادخار المآكل وتنظيم العيشة، وإعداد العدة للطوارئ، والحيلة لدفع الأعداء، والسياسة العجيبة في جلب ما لا بد منه. ولو نظرت إلى أقل حيوان كالبقعة أو النملة أو النحلة وتبعت أعمالها لحكمت أن الإنسان في حاجة إلى تلقي دروس من تلك الحيوانات الصغيرة وكيف لا؟ ولو نظرت إلى بناء النحلة بيتها، وجمعها الغذاء، وادخارها القوت للشتاء، وحذقها في هندستها ونظرت إلى العنكبوت في نصبها الشبكة للصيد وتفننها في الحيلة لذلك، لتحققت أنه ما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من الأسرار والحكم والخواص ما به يتحقق المؤمن بعجائب قدرة الله سبحانه وتعالى، وغرائب حكمته، وكان كأنه في معية الله تعالى لا يغيب عنها وشهد بعين بصيرته سر قوله سبحانه: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾⁽¹⁾ وشهد لطف اللطيف بكل خلقه حيث منح كل حيوان صغيرا كان أو كبيرا ما به يحفظ حياته ويجلب غذاءه ويدفع عن نفسه شر العدو والحر والبرد.

النباتات وسط بين المعادن والحيوانات:

و انظر - أيها الأخ الحاضر القلب- إلى ما حولك من النباتات التي جعل الله سبحانه ثمارها غذاء لك، وأوراقها وأغصانها غذاء لحيواناتك، وسوقها تستعملها في مساكنك.

و آلتك اللازمة لك، وخزن لك فيها- سبحانه وتعالى - حرارة الشمس التي تتشع على الأفق لتستعملها عند حاجتك لها فتكون لك نارا تنضج بها خبزك وأدمك وتدفع بها عن نفسك قر البرد وتدير بها حركة آلتك البخارية. وتفكر في قوله تعالى: ﴿أفرأيتم النار التي تورون ءأنتم انشأتم شجرتها أم نحن المنشئون﴾⁽²⁾ ثم تناول

(1) سورة السجدة - آية 7-8

(2) سورة الواقعة - آية 71-72

شراب التوحيد ورحيق الألطاف الإلهية من قوله تعالى:
﴿فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقطباً وزيتونا ونخلًا وحدائقاً غلبا وفاكهة وأبا متاعاً لكم
ولإنعامكم﴾⁽¹⁾.

خلق الله النباتات وسطا بين أنواع المعادن وأنواع الحيوان، فجعلها - سبحانه -
أكمل من المعادن ودون الحيوان، فهي تزيد عن المعادن بالغذاء والنمو، وتنقص عن
الحيوان بالحس والحركة. واللطيف الخبير لم يهب لها موهبة الحس رحمة بها ورأفة عليها
لأن الله رءوف لطيف رحيم، وذلك لأن النباتات تصادمها الأجسام الصلبة، ويقطع
منها الإنسان الفروع والأغصان في كل حين، وقد يقطع الشجرة قطعاً قطعاً، فلو
وهب الله لها الحس لكان ذلك تعذيباً لها، فسبحان اللطيف الرءوف بخلقه، غمر كل
نوع من مخلوقاته برحمته فكما وسع الملائكة والإنس والجن برحمته، وسع الحيوانات
والنباتات والمعادن بها قال الله تعالى
: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾⁽²⁾.

و لم يهبها الحركة لحكمة ولطف. أما الحكمة: فلأن الأشجار لو تحركت
لأفسدت صغار النباتات والمسكن. ولطفه بها - سبحانه وتعالى: أنها لو وهبت
الحركة لأضر ذلك بها فسبحان اللطيف الخبير.

و انظر يا أخي إلى الحب والنوى إذا وضعتهما في الأرض الندية وأصابهما
حر الشمس انشقا بقدرة الله تعالى وامتصا الأجزاء الصالحة من الأرض ومن الماء
وتراكمت تلك الأجزاء عليها بحكمة الله وتدييره وقدرته، وصار لهما عروق وقضبان
وأوراق وأزهار، وأصبحت شجراً عظيماً ذا ساق وأغصان وفروع وثمر، فسبحان الخلاق
العظيم ما أعظم شأنه وأوضح برهانه.

⁽¹⁾ سورة عبس - آية 27-32

⁽²⁾ سورة الأعراف - آية 156

و أعجب من ذلك اختلاف روائحها فترى بعض الأشجار لها رائحة زكية، وبعضها لها أزهار لا رائحة لها، وبعضها تكون أزهارها وأوراقها طيبة الرائحة، وبعضها يكون جسمها طيب الرائحة، وبعضها تكون لا رائحة لها فإذا احترقت فاح شذا عرفها، وبعض النباتات تؤكل كلها، وبعضها تؤكل أوراقها، وبعضها تؤكل ثمارها وفاكهتها مع كثرة اختلاف اللون والطعم والشكل، وما من ورقة من أوراق الأشجار إلا وهي تخالف الأخرى، فلا نرى نوعا من أنواع النباتات يشابه الآخر.

و انظر إلى إبداع شكل الأزهار المختلفة مما تتحير الأبواب فيه من قدرة القادر الذي أحكم هذا الصنع البديع، فهي بجهة للأبصار، وطيب لعضو الشم، ولذة لعضو اللمس ولعضو الذوق، وشراب وغذاء، ومشهد لعلي الآيات، ومظهر لسر التجليات لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

الإِنسان شجرة الرب سبحانه :

و هنا إشارة بديعة تشير إلى أن الإنسان شجرة الرب وأن النباتات شجرة الإنسان، ولذلك فإنك ترى يا أخي الإنسان رأسه في العلو وأغصانه مدلاة على الأرض، فهو يتغذى وينمو وباب الغذاء عند رأسه، والأعضاء الباحثة عن جودة الغذاء وطيبه عند رأسه، فالأنف يشم الطعام قبل إدخاله في الفم ثم يأذن بقبوله، والعين تنظر إليه قبل إدخاله ثم تحكم بجودته، واللسان يذوقه قبل بلعه ثم يرى صلاحيته فيرسله إلى المعدة، والأسنان تمضمه الهضم الأول. وكذلك النبات فإن رأسه في جوف الأرض وله عروق شعرية كاشفة، وعروق نباتية ماصة، فإذا وجدت الرطوبة دنت فمصت وإذا وجدت البيوسة انكمشت وتحولت، وكما أن الإنسان يمرض بترك الأكل أو بفقده فكذلك النباتات تذبل بفقده الغذاء، فالراغب في نيل مشاهدة الله تنكشف له تلك الآيات فتجلي له معاني التجليات قال الله تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في

الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد
(1) ﴿

نموذج من فهم الناس لزهرة واحدة :

ولو كتبنا ما يفهمه أنواع الناس في زهرة واحدة لما وسع ذلك مجلدات ضخام، أورد لك نموذجا من ذلك: لو أن عالما كميابويا أخذ زهرة وحللها وكشف ما فيها من أنواع المعادن والغازات المختلفة والجواهر ذات الرائحة الطيبة، وعضو الذكورة والأنوثة فيها، ثم بين خواص كل نوع منفردا، وخواصها مجتمعة. وجاء الطبيب فبين لنا ما تزيله من الأمراض، وما تفيده من تنبيه القوة، وما يحصل منها من الضرر إذا لم تستعمل بحكمة، وتأثيرها على الأجسام الحيوانية والمعادن. وجاء الشاعر العبقري والناثر البليغ فوصفها بالعبارة وصفا يمثلها بالخيال بأكمل حقيقتها. وجاء المصور فرسمها رسما نظريا. وجاء الفيلسوف فشرح لنا قواها القابضة وما فيهما من الرطوبات، وأبان لنا عن توسط عناصرها وامتزاجها، وعمما فيها من قوة الإدراك التي تتحول بها إلى الشمس شروقا وغروبا، والخواص التي بها هذا التجاذب الغريب. ثم جاء الحكيم العارف بالله تعالى فأبان لنا أسرار عجائب قدرة الله وشرح لنا الآيات الظاهرة فيها بعباراته الروحانية وإشاراته القدسية لما وسع ذلك مجلدات، وهذا في زهرة صغيرة.

و ربما دخل الإنسان روضة فتحت أزهارها، وتناجت أطيارها، وتمايلت أغصانها وجري الماء تحتها في أحاديده كأنه سبائك الفضة يجري في جداول من مسك، فلا يلتفت لفتة متدبر، ولا ينظر نظر مستبصر، ولا يصغى لتسبيح تلك الأزهار لمبدعها الحكيم القادر لغفلة قلبه وعمي بصيرته، فسبحان الظاهر الذي لا يحجب عن الأفكار لظهور آياته. الباطن الذي لا تدركه الأبصار علوا وعظمة وكبرياء وهو اللطيف الخبير.

(1) سورة فصلت - آية 53

أقسام النباتات

اعلم يا أخي - من الله عليك بنور الفكرة حتى تشهد آياته الظاهرة في السموات والأرض - أي لم أجعل هذا المختصر لأشرح فيه جمل علم النبات، بل لألمع فيه ما ينبه فكري لتلك الأسرار الخفية عن الغافلين، المحجوبة عن الجاهلين، ولتتميم الفائدة المقصودة من كتابي هذا أشرح لك ما لا بد منه مما يضر جهله بالمفكر السالك في طريق الله العامل بكتاب الله تعالى، فإن القرآن المجيد حثنا على الفكر في كل ذلك، وشنع - سبحانه - في كتابه على الذين لا يعقلون ولا يتفكرون ولا يتدبرون ولا يستبصرون ولا يتوسمون ولا يفقهون ولا يسمعون ولا يبصرون، أعاذني الله وإياك أيها الأخ الفاضل من أن نكون محلا لتشنيع الله وأهلا لما يوجب سخطه، وجعلني الله وإياك وإخواني المؤمنين ممن أثنى الله تعالى عليهم ومدحهم وبشرهم، آمين.

إذا تقر هذا فأقول لك وبالله التوفيق: النبات قسمان شجر، ونجم. وفي كل قسم من الخواص النافعة والأسرار الغامضة ما ثبتت به الحجة على الوجدانية، وظهرت به محجة الفكر للسير إلى حضرة القرب، ولكن لأولي الأبواب. فالأشجار ما لها ساق. والنجم ما لا ساق له. والأشجار العظام كالحیوانات العظام، والنجوم كالحیوانات الصغار، وترى الأشجار العظيمة جدا لا ثمر لها كشجر الساج والذلب والعرعر لأن القادر الحكيم خلقها لينتفع الإنسان بخشبها، فقدر سبحانه وتعالى أن تصرف جميع المادة إلى نفس الشجر وجعل مادة الأشجار المثمرة ينصرف بعضها للثمار وبعضها للشجر، كما ترى في الغالب حال الذكور والإناث في الحيوان فإن الذكر أعظم بدنا من الإناث للحكمة التي قدرها الله تعالى بأن جعل الأنثى محلا للحمل والوضع، فتتجزأ المادة إلى غذاء الجنين وغذاء أمه. انظر إلى حكمة الله تعالى في خلق الأوراق كيف جعلها سبحانه زينة للأشجار، ورفعها عن الثمار لتقيها حر الشمس وتدفع عنها قر البرد، وفرق بين الأوراق لتغذى الثمار من حرارة الشمس ومن رطوبة الهواء

بحكمة حكيم قادر، فليست متكاثفة على الثمار فتحجب عنها مادة غذائها، ولا بعيدة عنها فتفسدها شدة الحرارة والرطوبة، ولو حصل ذلك لما تم نضجها، فإذا نمت الثمرة وصلحت تناثرت الأوراق حتى لا تضعف الشجرة بامتصاص مائيتها، كما ترى في الحيوان إذا أكملت الأم رضاع ابنها أبعدهت عنها، فسبحان من ألهم النبات وعلم الإنسان ما لم يعلم، ومن أراد تفصيل تلك الأنواع وفائدة خواص كل نوع فليطالع كتب المفردات لابن البيطار، أو التذكرة لداود، أو القانون لابن سينا أو غيرها من الكتب، فإن مختصرنا هذا وضع ليقظة القلوب من الغفلة، وتنبية العقول من نومة الجهالة، وبيان الواجب على الإنسان لمولاه تعالى.

النظر إلى ما في الحيوانات من الخواص والآيات:

انظر إلى مالا بد لك منه مما لا يخلو منه منزل إنسان، من الحيوانات الداجنة التي جعلها الله ليتغذى الإنسان ببيضها ولحومها، وغيرها مما جعله الله للإنسان يتغذى بألبانها ولحومها وينتفع بأصوافها وظهورها وأوبارها وأشعارها. يسر الله لها الغذاء فتخرج صباحا إلى مراعيها وتعود إليك في المساء وقد خزن الله لك الألبان في ضرعها، وبارك لك فيما تحمله في بطنها فكلها نافعة لك، ومنها ما خلقه الله لتركبه وزينة لك. ولما كان قصدنا في هذا المختصر بيان الآيات الظاهرة الجلية، وما بين كل مرتبة من مراتب الوجود و بين بقية المراتب من الاتصال، ليكون ذلك نبراسا لفكرك تهتدي به في آيات مبدع السموات والأرض. فاعلم يا أخي - أنسك الله بشهود آياته الكونية، وفقه آياته القرآنية - أن الحيوان وسط بين الإنسان والنبات، فهو بالنسبة لغذائه ونموه أشبه النباتات، وهو بالنسبة لأنه يحس ويتحرك أشبه الإنسان، فتراه زاد عن النباتات بالحس والحركة، ونقص عن الإنسان لأنه لم يهب له الوهاب النفس الناطقة، لحكمة أكشف لك ظاهرها على قدر ما يدرك عقل المرشد المسترشد، ووهب له الحس والحركة رحمة منه وفضلا، وهذه القوي من الله - سبحانه وتعالى - بها على جميع أفراد الحيوان حتى أنواع البعوض التي لا تري بالعين المجردة، بل ولا تري بالنظارات المعظمة،

وقد شوهد أن قطرة ماء آسن نظر إليها بنظارة معظمة فوجد فيها من أنواع الحيوانات المختلفة الألوان والأشكال مالا يحصي عدده، ونظر في جو متعفن إلى جزء من الهواء بتلك النظارة بعينها فوجد فيه من أنواع الطيور المختلفة ما لا يحصي عدده، ووراء ذلك ما لا يمكن أن يشهد بالنظارة لصغر حجمه ودقته، وفي كل حيوان من تلك الحيوانات عيون تبصر بها، وأذان تسمع بها وأرجل وأجنحة ورأس وقلب وأمعاء.

قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا﴾ (1) صريح هذه الآية أن الله - سبحانه وتعالى - يضرب الأمثال ولو بأصغر حيوان لا تراه العين المجردة، ولا يرى بالنظارة المعظمة، فيكون غيبا يصدق به الذين يؤمنون بالغيب وينكرو الكافرون، وقال بعضهم:

يا من يري مد البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الأليل
و يري عروق نياطها في نحرها و المخ في تلك العظام النحل
اغفر لعبد تاب من فرطاته ما كان منه في الزمان الأول
و بالجملة ففي كل حيوان لا يشهد بالنظارة المعظمة من الأعضاء ما في أكبر حيوان
فسبحان القادر الحكيم الذي لا تحصى آياته ولا تستقصى أسراره. هذا وفي كل
حيوان من تلك الحيوانات فوائد ومنافع وخواص أو مضار، بحسب تدبير الحكمة
الإلهية وتدبير المشيئة الربانية.

حكمة الحس والحركة للحيوان:

أذكر لك - أيها الأخ البار - حكمة الحس والحركة اللتين وهبهما الله تعالى للحيوان:
اعلم أن الله تعالى لما قضى لكل حيوان أمدا معلوما، وأبدان الحيوان متعرضة للآفات
المفسدة لها والمهلكة إياها، اقتضت الحكمة الإلهية أن تهب لها القوة الحساسة لتشعر

(1) سورة البقرة - آية 26

بواسطتها بالمنافي فتدفعه عن نفسها إذا أحست بألم، فلولا هذه القوة لما أحس الحيوان بالجوع إلى أن يموت بغتة فجأة من عدم الغذاء، ولكان إذا نام فأصاب يده أو رجله نار لم يكن يحس بها حتى يتنبه من نومه فإذا هو بلا يد ولا رجل. وأما الحركة فإن الحيوان لما كان محتاجا إلى الغذاء ولم يكن غذاؤه يحفه في جميع الأوقات اقتضت الحكمة الإلهية آلات الحركة ليتحرك بها إلى الغذاء، ولولا القوة لاحتاج الحيوان إلى الغذاء ولم يقدر على المشي إليه فمات جوعا كشجرة لا تجد الماء حتى تجف، ولكان إذا أصابه آفة من حرق بقي على مكانه حتى يدركه الغرق أو الحرق. ولما كانت الحيوانات بعضها عدو لبعض اقتضت الحكمة الإلهية لكل حيوان آلة يحفظ بها نفسه من عدوه، فمنها ما يدفع العدو بالقوة والمقاومة كالفيل والأسد والجاموس. ومنها ما يسلم من عدوه بالفرار فأعطي آلة الفرار كالظباء والأرانب والطيور ومنها ما يحفظ نفسه بسلاح كالقنفذ والشهيم والسلحفاة. وما يحفظ نفسه بحصن كالفأر والحية والهوام. ومقتضى الحكمة الإلهية أن الله تعالى خلق لكل حيوان من الأعضاء ما يتوقف عليه بقاء ذاته ونوعه لا زائدا ولا ناقصا، ولذلك اختلفت أشكالها وأعضاؤها وتنوعت أنواعها بأنواع كثيرة.

روي عن سيدنا عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿إن الله تعالى خلق في الأرض ألف أمة، ستمائة منها في البحر وأربعمائة منها في البر﴾⁽¹⁾ ومن أراد أن يري بعض الأنواع التي تحيط به من الحيوانات فليوقد نارا في وسط غيطه بالليل، ثم ينظر ما يغشى تلك النار من أنواع الحيوانات فإنه يري صورا عجيبة وأشكالا غريبة لم يكن يظن أن الله خلق شيئا منها في العالم. على أن الذي يغشى تلك النار يختلف باختلاف المواضع من الغياض والجبال والبحار والصحارى، فإن

(¹) يتلاقى هذا الحديث في المعنى مع ما رواه أحمد عن النبي ﷺ وآله ((ما أمتي في الأمم إلا كالشعرة)) المسند 441/6

سكان كل بقعة تخالف سكان غيرها، وما يعلم جنود ربك إلا هو، فسبحانه ما أعظم شأنه وأعز سلطانه وأوضح برهانه لا إله إلا هو سبحانه.

الوصول إلى مقام القرب والفوز بحقيقة الحب:

فإذا نظرت يا أخي إلى هذا الفضل الواسع ونظرت إلى ما فيه من آثار رحمة ربك سبحانه، وتأملت فوجدت طبقات الأرض لا تخلو من الحيوان، وفسيح الأجواء لا تخلو من الحيوان، وأعماق البحار عامرة بالحيوان، بل والغابات والأودية وقمم الجبال، بل وأجواف النيران لا تخلو من الحيوان، وبطن الصخور، وأدركت الحكمة في إبداع تلك الكائنات وكيف رفع السماء وخلق الإبل، وكيف نصب الجبال وكيف بسط الأرض، وشاهدت الاتصال بين مراتب الوجود، علمت كيف تتقرب إلى واجب الوجود ومقتضى تلك النعمة على كل موجود، وعرفت قدر نفسك بالنسبة لجناحه العلي فسبحته بلسانك وقلبك وشكرته بجوارحك وأعضائك، وتحققت العجز عن إدراك حقيقته، وابتغيت الوسيلة إليه، وفوضت جميع أمورك إليه متوكلا عليه سبحانه، وفرت منك ومن كل من سواه حتى تصل إلى مقام القرب وتفوز بحقيقة الحب، قال الله تعالى: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾⁽¹⁾ وخوفا عليك أيها الأخ من الملل أقتصر على ما بينت لك مما ينبه فكرك ويوقظ قلبك ويلفتك إلى معادك، وما تعرف به أن الله تعالى سخر لك ما في السموات وما في الأرض جميعا منه، فتخلص له العبادة كما قال الله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون﴾⁽²⁾.

(1) سورة الزمر - آية 9

(2) سورة الداريات - آية 56 - 57

جاهد تشاهد:

فإن دعاك داعي العلم إلى تحصيل أسرار الكائنات وعلم ما خفي في تلك الآثار فجاهد نفسك وركها، واعمل بما علمت يورثك الله علم ما لم تعلم، ولا تطمع يا أخي أن ينكشف لك سر فوق مدارك فكرك وعقلك إلا بجهاد أكبر في ذات الله، وعمل في سنة ماضية على صراط مستقيم، لا في بدعة محدثة وطريق معوج، ولديها تظهر لك خفيات الأسرار من تعلق سر القيوم بكل شيء، وشروق انوار القادر في كل شيء، وانبلاج أنوار الحكيم فيك وفي الآفاق، ثم ترفع ستارة الوهم عن الخيال، ويزول حجاب التقييد عن الإطلاق، وتظهر لك حقيقة قوله تعالى: ﴿وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه﴾⁽¹⁾ يعلمك سر التسخير وحكمة التدبير، فتكون لك ما تشاء عند ربك، ويكون ربك سبحانه وتعالى أقرب إليك من حبل الوريدك، بل وأقرب إليك من كل محيط بك ومشهود لك، يستجيب لك لاستجابتك له، ويواجهك بمواجهتك له، ويقبل عليك بإقبالك عليه سبحانه وتعالى، وكل ذلك فضل منه سابق. قدر ذلك أزلا وأمدك بالمعونة والتوفيق حتى صرت إنسانا كاملا أو صديقا. وقد ألمعت إليك يا أخي في الكتب السالفة بشيء من مجاهدة النفس في الذكر والفكر، وبينت لك الطريق المستقيم وشرحت لك المقامات والأحوال فيما كتبتك لك- أيها الأخ- من الكتب الجامعة لمقامات الأئمة وأحوالهم وعباراتهم وإشاراتهم، وفقني الله وإياك لما به نجا أنفسنا مما يوبقها، ومن الله على وعليك بالعمل بالكتاب والسنة، وعلمي الله وإياك علم ما لم نعلم إنه مجيب الدعاء.

النظر في الإنسان

أفعمت الدفاتر بشرح خواص الإنسان، فلم يبق طيب ما هر إلا وشرح حقيقة جسمه وبين أسرارها، وفصل أعضائه وبين وظائفها وما يحفظ عليها صحتها وما

(1) سورة المجاثية - آية 13

يعيدها إن فقدت، فما من مفصل من المفاصل ولا وريد ولا شريان ولا عضو من الأعضاء العاملة إلا واختص به طبيب ماهر، حتى صار للسن طبيب خاص، وللجلد كذلك، فلم يبق فيلسوف إلا وجعل الإنسان كعبة بحثه، وأظهر غوامض أسراره، وقام علماء النفس فبينوا أنواع النفوس وما يحفظ عليها صحتها وما يعيدها عليها إن فقدت، وقسموا فضائل النفس ورذائلها وما به ترقى إلى منازل كمالاتها حتى يكون الإنسان إنسانا حقيقيا بمعناه. وكل تلك العلوم مأخوذة من القرآن الشريف، لأن الله سبحانه وتعالى بينها بصريح العبارة، حيث جعل الإنسان خليفة لجنابه العلي، وصورة مذكورة لحضرته العلية، ومخلوقا منحه القوة على أن يتحمل الأمانة، وجعله سبحانه وتعالى إن زكى نفسه وطهرها ووفى بعهده وعمل بما أمره يجلس يوم القيامة على كرسي من نور حول العرش في جوار ربه جلّت قدرته وتنزهت ذاته، وإن ظلم نفسه وخالف أمر ربه وجحد نعمة المنعم هوى في هاوية البعد ولظى القطعية وأليم العذاب، ولما كان هذا المختصر وضع ليقظة القلوب أحببت أن أتكلّم على الإنسان بما يناسب هذا المقصد.

الإنسان:

الإنسان هو النوع الوسط بين الملائكة والحيوانات، فهو بالنسبة لغذائه ونموه وحسه وحركته حيوان. وبالنسبة لإدراكه وقوة تصديقه بالغيب وتخيله الغائب بالمشهود ورفيقه في مراتب العلو حتى يدرك ما وراء المادة ويبلغ درجة أن يانس بالمفارق ملك مقرب، هذا هو الإنسان. فالإنسان حان الشراب للسالكين، ودنان الراح للواصلين، والشراب الظهور للعارفين، ظهر مبناه وغاب معناه. وإن الإنسان بمعناه لا بمبناه. وكم من وحش كاسر وشيطان ماكر وخنزير سفاذ في صورة إنسان. وكم من ملك روحاني وكروبي هائم في جلال ربه وعال آنس بمعية مولاه في صورة إنسان. فمن وقف عند الصورة وحكم عليه قال: حيوان. ومن نظر بعين البصيرة إليه قال: مخلوق تخدمه الملائكة، وولي تولاه الله، ومحجوب قربه الله، وإنسان سخر الله له ما في السموات وما

في الأرض جميعاً منه. الإنسان صوره الله بيده طينة صلصالية، ونفخ فيه من روحه القدسية، وأسجد له ملائكته فقرّبهم بسجوده وعلمهم، وأبى السجود له إبليس فأقصاه وأبعده لتركه السجود للإنسان. الإنسان قرب الله به من قرب وأبعد من أبعده.

الإنسان صوره الله وهو مني في رحم أمه فهو المصور لأبيه أولاً والمصور لكل إنسان ثانياً، قال الله تعالى: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ (1). وقال سبحانه وتعالى: ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ (2). الإنسان جمع الله فيه الضدين، وأقامه حجة على عجز العقول عن اكتناه الغيب. جمع فيه العناصر المختلفة حقائقها المادية، وبين الروح المجردة الكاملة النوارنية، فألفت الروح العناصر وهي مفارقة لها، فسبحان القادر الذي لا يعجزه شيء. الإنسان مركب من النفس والبدن، وهو الوسط وخير الأمور الوسط، ولذلك كان أهل القرآن خير بني الإنسان لأنهم أمة وسط. ركب الله في أحسن صورة روحاً وبدناً. وميزه بالنطق والعقل سرا وعلنا. زين ظاهرة بالحواس والحظ الأوفى، وجمل باطنه بما هو أشرف وأقوى. ومنحه الذكر والفكر والحفظ.

فالإنسان مملكة عظيمة وعالم صغير: النفس سلطان المملكة والعقل وزيرها والقوى جنودها، والحس المشترك صاحب بريدتها، والأعضاء خدمها والبدن كله محل المملكة، والحواس تسافر في جميع الأوقات في عالمها، وتلتقط الأخبار الموافقة والمخالفة تعرضها على الحس المشترك الذي هو واسطة بين النفس والحواس، لأنه بواب المملكة وهو يعرضها على القوة العقلية لتختار ما يوافق وتطرح ما يخالف، فسبحان من جعل هذا الجسم الصغير عالماً تنطوي فيه العوالم.

(1) سورة الحجر - آية 29

(2) سورة آل عمران - آية 6

إذا تحققت هذا يا أخي وعلمت أن للإنسان جهات شتى: جهة يكون فيها مقرب من الله أنس بشهود جماله سبحانه وتعالى، وجهة يكون بها في روضات الجنات، وجهة يكون بها في أسفل سافلين مع مردة الجنة والشياطين؛ ونظرت بعين بصيرتك فيما انطوي في هذا الجسم الصغير من الأسرار والحكم ثم جاهدت نفسك أن تنكشف لك أسرار النفس وكيف تعلقها بالبدن، أمتصلة هي أم منفصلة؟ وهل هي جوهر أم لا؟ وأين مكانها منه إن كانت متصلة؟ وظهرت لك من غرائب أسرارها أنها ليست جوهرًا ولا عرضًا، ولا محل لها في الجسم، وإنما تعلقت به تعلق تديير، فإنك إذا رأيت أنها تقبل صور الكائنات كلها معقولها وغير معقولها، ماديها ومجردها، وتحفظ ذلك ولا ينمحي بقبول غيره، ظهر لك أنها ليست جوهرًا وليست عرضًا لأن العرض لا يقوم به غيره، ثم تدبرت أفعالها الخاصة بما حكمت على نفسك بالعجز عن إدراك حقيقتها، سر قوله تعالى: ﴿قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾⁽¹⁾. عند ذلك تحققت بعجزك عن إدراك ربك سبحانه وتعالى، لأنك عجزت عن علم حقيقة مخلوق من مخلوقاته، فكيف تحيط علما بالخالق، تنزه وتعالى عن أن تدركه الأبصار أو تحوم حوالي عزته وعظمته الأرواح الطاهرة والنفوس الزكية.

إذا صرف الإنسان همته يا أخي إلى جهة من تلك الجهات المتقدمة للتحقق بها. فإن وقف همه على حظوظ البهيمية رضي من أمر دنياه بالتغذي وتنقية الفضلات، وإن صرفها إلى الحيوانية كان إما غضوبًا كسبع أو أكولا كبقر، أو شرها كخنزير أو جرعا ككلب أو حقودًا كجمل أو متكبرًا كنمر أو ذا روغان كتعلب، أو جامعا لكل تلك الصفات فيكون شيطانًا مريداً وهو في صورة إنسان.

فلا تغتر يا أخي بالصورة، فكم من إنسان جميل الصورة ذي هيئة وبزة ومال يعظمه الناس ويكون يوم القيامة أقل من الذر! وإن صرف همته إلى الجهة الملكية يكون

(¹) سورة الإسراء - آية 85

متوجها إلى العالم الأعلى ولا يرضى بالمنزل الأسفل والمربع الأدنى، فيكون مرادا بقوله عز وجل: ﴿وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾⁽¹⁾. والله الموفق. وبذلك فضل كثير من العلماء الإنسان الكامل على الملائكة، وذلك لأن الملك روح مجردة والإنسان دائم الجهاد لم يخلص من مقتضيات عناصره ودعوات حظوظه وشهوته مما لا خلاص منه إلا بشق الأنفس، قال الله تعالى: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾⁽²⁾ فأنت أيها الأخ الراغب فيما عند الله تبلغ بجهادك الأكبر درجة تكون بها أفضل من الملائكة لأنك مجاهد وهم ليسوا بمجاهدين.

الفكر في الإنسان

تقدم الكلام على النفس في: (معارج المقربين) وشرحنا فيه جملاً تتعلق بالنفس الناطقة الملكية، وألعبنا إلى شيء من أفعالها الخاصة بما إجمالاً ترغيباً لطالب المزيد وتعليماً للمستترشد نكتفي به عن إعادته في هذا المختصر، لأن القصد فيه يقظة القلوب من نوم الغفلة وشحن الفكر ليجول في هذا العالم الفسيح جولة يرجع منها بقبس الأنوار التي تبين له مناهجه وتزكو بما نفسه، ويكون بها ممن أثنى الله تعالى عليهم بقوله: ﴿إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب﴾⁽³⁾. وقوله: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾⁽⁴⁾ وغيرها من الآيات التي مدح بها المتفكرين في آياته وشكرهم وأثنى عليهم، حيث أن المقصود البحث عن النفس بحثاً يؤدي إلى الفكر، فالواجب على أن أتكلم على أنواع النفوس وعلى أفعالها الخاصة بها، وأبين هل يمكن أن تكون نفساً

(1) سورة الإسراء - آية 7

(2) سورة النساء - آية 95

(3) سورة الزمر - آية 21

(4) سورة الجن - آية 13

واحدة مسارعة إلى جناب القدس الأعلي مقبلة على الله سبحانه وتعالى أولاً. اعلم أن النفوس سبعة أنواع : نفس جمادية، ونفس إبليسية، ونفس نباتية، ونفس حيوانية، ونفس ملكوتية، وروح قدسية، ونفس كلية، وبحثنا هنا في الأنواع التي تكون في الإنسان.

قوي النفوس:

اعلم - أيها الأخ المسارع إلى مغفرة ربك، الراغب أن تفوز بالنعيم المقيم في جنات عرضها السموات والأرض كما قال الله تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾⁽¹⁾ أن الإنسان أول ما يخرج الله تعالى من بطن أمه يكون مجرداً عن قوي النفوس كما قال سبحانه وتعالى: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾⁽²⁾ فأول ما يجعل الله له من قولا النفوس الغذائية التي بها يتغذى لأنه كان في بطن أمه كالنبات يتغذى بالامتصاص، وليس ذلك يمنع من أن يكون متجملاً بقوي الحس والحركة، ثم يجعل الله له قوى الحس بأنواعها، فيحس بها الملموس مثل الحرارة والبرودة والطعوم والروائح والأصوات والألوان والمبصرات، ويجعل له قوة الميل في قلبه فيشتاق إلى ما يحبه أو يكرهه، ثم يجعل له سبحانه قوة أخرى هي القوة المتخيلة يحفظ بها مارسم في نفسه من المحسوسات بعد غيبتها عن مشاهدة هذه الحواس لها، وهذه القوة المتخيلة تتركب المحسوسات بعضها على بعض، وتفصل بعضها عن بعض تركيباً وتفصيلاً مختلفاً بعضه كاذب وبعضه صادق، ويجعل الله له في قلبه قوة ميل إلى ما تحيل أو عنه، ثم بعد ذلك يجعل الله فيه القوة الناطقة التي هي النفس الإنسانية: (الحقيقة الخاصة للإنسان المميزة له عن بقية أنواع الحيوانات، وهي التي يمكن أن يعقل

⁽¹⁾ سورة آل عمران - آية 133

⁽²⁾ سورة النحل - آية 78

بها المعقولات ويميز بين الجميل والقبيح، وبها يحوز العلوم والصناعات) ثم يمدد الله سبحانه بقوة في قلبه يميل بها إلى ما يعقله ويشتاق إلى أن يتجمل بالحكمة وأسرارها.

أعضاء تلك القوى:

و لكل نوع من تلك القوى أعضاء منها رئيس ومنها مرؤوس مسخرة بقدره الله تعالى وحكمته، ولسنا في حاجة إلى تفصيلها وإن كان المريد الصادق يحب أن يشهد الآيات الظاهرة في نفسه الدالة على حكمة الحكيم القادر وتدبير الصانع المبدع، ليكون ذلك أدعى إلى كمال معرفته وإخلاصه في العبادة لربه سبحانه، و صرف جميع أوقاته في الاشتغال بشكره سبحانه. فأشير إلى ذلك بالمع خفيف: إعلم - يا أخي - أن القلب ملك المدينة يرأس ولا يرأس وتحتة رؤساء أتباع له، فالقوة الغازية رئيسها في الفم وخدمها متفرقة في سائر الأعضاء مثل المعدة والكبد والطحال والأمعاء، والمثانة التي تخدم الكلية، والكلية التي تخدم الكبد والكبد الذي يخدم القلب، وعلى هذا تتركب القوة الغازية. والقوة الحاسة ورئيسها القلب وخدمها الحواس الخمس المشهودة عند الجميع المتفرقة قواها في العينين والأذنين والأنف وفي اللسان وفي الراحيتين، وكل عضو من هذه الخمس يدرك ما يخصه فكأنها أصحاب أخبار موكل كل عضو منها بأخبار ناحية من نواحي المملكة. والقوى المتخيلة محلها القلب ليس لها خدم وهي حاكمة على المحسوسات تفرد بعضها عن بعض، وتركب بعضها إلى بعض بحالة قد تكون موافقة للمحسوس أو مخالفة له. واما القوة الناطقة فهي الرئيسة على الكل لا يرأسها شيء. وأما قوة الميل إلى الشيء أو عنه التي تسمى بالنزوع، وهي القوة التي تشتاق إلى الشيء أو تكرهه. وبها تكون الإرادة، فإن الإرادة ميل إلى ما أدركته أو عنه وهذه القوة لها خدم فإنها تتلقي نتائج أفعالها الخاصة إما بالحس أو بالتخيل أو بالقوة الناطقة، وتحكم فيه بأنه ينبغي أن يؤخذ أو يترك، والميل قد يكون إلى علم أو عمل أو ترك والعمل إما بالبدن جميعه وإما بعضو منه، فالميل الحقيقي يكون بالقوة النزوعية لأن محلها القلب، والأعمال بالبدن تكون بقوى منبثة في جميع

أعضاء البدن من القوى الرئيسية، فسبحان من حير الألباب وأدهش العقول بما أبدعه بقدرته وحكمته ونظمه بإرادته وتدييره ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ (1).

و لو أني فصلت لك يا أخي كيف ينزل الطعام في المعدة ثم تتولى خدمته القوى المنبثة فيها من القادر الحكيم، وبيئت لك أنه سبحانه جعل في المعدة أنهارا من عسل يصب على ما تأكله من الأملاح مزاجا متناسبا، وأنهارا من خل وأخرى من ماء ملح، وأخرى من ماء حريف وأخرى من ماء مر، ليعتدل غذؤك في معدتك، وتلك الأنهار تجري من غدغد تصب عند اللزوم - بحكمة وتديير - المقدار المطلوب بميزان وتدقيق، بحيث لو نقصت نقطة أو زادت اختل توازن الأمزجة وحصل المرض للجسم. ولو علمت أن الله سبحانه وتعالى جعل للمعدة حركة لا تفتت سواء كنت نائما أو متحركا يصير بها الغذاء قطعة واحدة ولونا واحدا وطعما واحدا سهل الامتصاص والإنحدار، وعلمت كيف جعل الله بين المعدة وبين الأمعاء من الصمام الذي يفتح عند اللزوم ويقفل عند اللزوم، فلا يفتح إلا بعد تمام هضم المعدة واشتياق الأمعاء بعد فراغها إلى الطعام، لتتحقق أن الله جعل ملائكته تتولي هذا العمل النافع بتديير وترتيب ونظام، ولا لوم علي إن قلت ملائكة فإن الملك هو قوة مسخرة بإذن الله تعالى: ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ (2) وهذا النظام العجيب والترتيب الغريب لا يكون اتفاقا، تعالى الله عما يصفه الواصفون.

و هذا نذر يسير من الآيات المتعلقة بالمعدة، فكيف لو ألمعت إليك بأفعال الأمعاء ومسامها الشعرية التي تمتص الصالح من الغذاء عند انحداره من المعدة إلى الامعاء،

(1) سورة الأنعام - آية 13

((2) سورة الأنعام - آية 13

(2) سورة التحريم - آية 6

وعلمت أن الأمعاء منها ما هو طولك ثمان عشرة مرة، ومنها ما هو طولك اثنتا عشرة مرة، وأن الطعام يمر في كل جزء منها ويمتص منه في كل جزء من تلك الأجزاء مواد تغاير الأخرى، وما يمتص تقوم الكلية فتمتص منه المائية فتنقيه من الماء، ويقوم الطحال فينقيه من الكدر، وما صفا منه يذهب بقوة الله تعالى إلى الكبد فيطبخه طبخا جيدا ويصبغه بالحمرة ثم ينتقل إلى القلب، وهناك يطهره الله تعالى بالتنفس بواسطة الرئتين، ثم يصرفه الله سبحانه وتعالى من القلب إلى جميع الأعضاء بحكمة وتدبير وقوة مدير، فيصرف إلى العين ما يناسبها من الغذاء وما يصلح الحدقة، وإلى الأذن كذلك، وإلى الأنف وإلى بقية الأعضاء بمقادير متناسبة، بحيث لو كان اتفاقا وتحول ما يغذي الفخذ إلى العين لأصبحت العين نائمة مفسدة بقوتها مشوهة للوجه، وأصبح الفخذ كغلاف الزهرة، فسبحان الحكيم القادر العليم. تنبه أيها الأخ فما خلقت عبثا لأنك حملت الأمانة، وما خلقت لتكون ترابا لأنك خلقت لتكون أبدي الوجود، فلا تنظر إلى آيات ربك وحكمه نظرة الغافل اللاهي الذي لاهم له إلا شهوة بطنه وفرجه أو أهل الغواية الذين يجمعون الأموال لكبت الأعداء وإساءة الحساد والعلو في الأرض بغير الحق، أو أهل الضلالة المترفين الذين يعتقدون أن هذه الدار لادار بعدها.

آلات العلم:

اعلم - يا أخي - أن علم الشيء قد يكون بالنفس الناطقة وقد يكون بالمتخيلة وقد يكون بالإحساس، فإذا كنت - أيها الأخ - ملت إلى تحصيل علم للنفس الناطقة، فإن ذلك العلم لا يمكنك أن تتحصل عليه إلا بقوة أخرى في الناطقة، التي نحن في صددها وفي الحث عليها، وهي القوة الفكرية التي تكون بها الفكرة والروية والتأمل، وهي الضلالة المنشودة لنا. أسأل الله تعالى أن يمن علينا بالشوق إلى علوم النفس الناطقة، ونمو قوة الفكر، حتى يحصل الاستنباط ويثلج القلب بالإيمان بالغيب، وإن كان الميل إلى علم شيء يدرك بالإحساس كان الذى نناله به فعل مركب من عمل

بدني ونفساني، فإن اشتقنا إلى رؤية شيء احتجنا إلى رفع الأجنان، فإن كان بعيدا مشينا إليه، وإن كان مستورا رفعا عنه ستارته بيدنا، فالإحساس نفساني والحركات بدنية.

و هكذا يمكنك - أيها الأخ الحكيم المتدبر - أن تجول بفكرك جولة في الآفاق وفي نفسك وفي الأرض حتى يتبين لك الحق، وعندما تحصل لنفسك البهجة الحقيقية واللذة الحقيقية التي لانسبة بينها وبين الملاذ الحسية بوجه من الوجوه، وتسري تلك البهجة من النفس الناطقة إلى بقية النفوس والقوى التي جعلها الله فيك، حتى تكون أيها الأخ، وبكل قوة من قواك مقبلا على الحق ناهجا على الصراط المستقيم، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض﴾⁽¹⁾ وتكون مسلما حقيقيا بكل معاني مادة ((أسلم)) من التسليم والاستسلام والسلام والسلامة والسلم والإسلام، وتكون على ملة أبيك إبراهيم عليه السلام كما وصاك ربك سبحانه وتعالى فيجملك ربك بحلة: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾⁽²⁾ وتحقق بقوله تعالى: ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾⁽³⁾ ويمنحك الله الروح الملكية التي تقتدي بها جميع قواك، وتتشبه بها النفوس التي قامت بها حقيقتك، ولديها تتحد تلك النفوس في الوجه، وتكون كنفس واحدة و تكون أيها الأخ ملكا في صورة إنسان، تشرق أنوارك على الملكوت الأعلى بما يصعد إليه من أفعالك الملكية، وأحوالك النبوية، وأعمالك الشرعية، وعقيدتك الحققة، ولديها تشتاق إلى الموت لا لأنك تموت ولا لأن الموت يكون له سلطان عليك بل لتتصل به ﴿الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين

(1) سورة الشورى آية 53

(2) سورة آل عمران - آية 11

(3) سورة الأنعام - آية 79

وحسن أولئك رفيقا ﴿⁽¹⁾ وتفارق المفارق لك من بني جنسك وإن كانوا مشاكلي
لك في الصورة لأن المجانس لك في الصورة فارقك في الاعتقاد والقول والعمل والحال،
والمفارق لك في الصورة وهو عالم الملكوت الأعلى صار مشاكلا لك فيما تقدم، قال
الله سبحانه وتعالى: ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس
فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم﴾ ⁽²⁾ وقال ﴿صلى
الله عليه وآله وسلم﴾: (الموت تحفة المؤمن) ⁽³⁾ وكان الصحابة وأهل العلم بالله تعالى
من التابعين وغيرهم يلقون بأنفسهم على الأعداء عند الجهاد حيننا إلى لقاء الأجابة
سيدنا محمد ﷺ وحبزه وفي المقام تنفخ فيك روح من القدس بمدك الله بها فتكون
في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

أسرار هذا المقام:

و أسرار هذا المقام غامضة، وأحواله خفية، وعلومه قلبية، ولا يمكن الإشارة إلى شيء
من ذلك في مثل هذا المختصر وقد ألمعت إلى هذا المعنى في الآيات الآتية:

في هيكل سر غيب لا بتحديد بحيلة او حلول او بتجريد

سر على عن الإدراك ظاهرة ينبي بعلم به قد صح توحيدي
بعين قلبي أراه وليس له كيف يمثله سري بمشهودي
إذا تجردت عن قيد العناصر في فك الطلاسم عن وهمي وترديدي
و عن خيال به المعني ممثلة و عن عناصري الأولى وتقيدي

⁽¹⁾ سورة النساء - آية 69

⁽²⁾ سورة البقرة - آية 94 - 95

⁽³⁾ رواة الطبري في المعجم الكبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص ووثقه صاحب مجمع الزوائد / 2

يلوح في جمال عين صورته
به أري الوجه ما وليت مشرقة
يا صورة الحق والأسرار غامضة
إليك طال حيني بعد معرفتي
يا نفحة القدس في شور حوي حكما
إليك قد ألهت نفسي وبغيتها
حتي اكون بلا كون يقيدي
أواه لي ساعة لولا العناصر قد
لكن نفسي في أنسي محصنة
و في معية فرد الذات ساجحة
جلا النفس بعد يقينها بشهودي
و طهرتها التحقيق بالغيب عندما
و بمجتها مرأي جمالي منزها
لديها هي النفس الزكية جملت
منزهه لا يبيد أو بتجديد
أنواره ليسويدا القلب بشهودي
عن العقول بدرك أو بتعدين
هل من شهود بمحض الفضل والجود
بغير مزج وخلط أو بتشديد
عندية تمحو إطلاقي وتقيدي
عن مشهد الوجه في انسي وتجريدي
حجبت لطائف قلبي بحت بعهودي
بمصن متفضل بالحفظ وودود
في كوثر الحب أو حوض مور ود
و رفعتها عندي بحفظ حدودي
تناول راح حقيقة التوحيد
بمراة هذا الكون لا بقيود
بسر فلاحني أو بنور شهودي

البحث عن المرشد أولاً:

و لا أقف بك إلى هذا الحد من العلم، ولكني أحثك أيها الأخ أن تهتم أولاً بالبحث عن المرشد الذي منحه الله تعالى العلم به سبحانه وتعالى وبأيامه وآياته وأحكامه، فإذا ظفرت به وأنست من نفسك حسن الإقتداء والاتباع، وجعلت لك عملاً خاصاً ينشرح صدرك إليه، وأحب أن يكون نفسانياً، لا أعني بالنفساني إلا إخلاص النية وحسن الإرادة في أعمال البر التي ييسرها الله لك، إن بلسانك ويدك، وإن بهما وبما لك، وإن بهما وبجاهك، حتى تكون يا أخي جاهدت في الله بمالك ونفسك مجاهدة تنتج المشاهدة.

أفعال النفس الملكية الخاصة بما:

النفس الملكية أفعالها الخاصة بما اكتساب العلوم الإلهية والمعارف الربانية، والفكر فيما ظهر من الآيات، والاستعداد لليوم الآخر، واستحضار عظمة العظيم، والتدبر في حكمة الحكيم، وقدرة القادر، ومشاهدة معاني الصفات في جلي الآيات، ولذلك فإنها تفر من أفعال الجسم الخاصة به، فكلما كان للإنسان شوق إلى أعمال النفس الملكية، ومنحه الله الهمة والتوفيق، ومنع عنه العوائق كلما تزايد فضله، وكوشف بأسرار الحكمة وصار روحانياً كاملاً، فعليه أن يعتني بنفسه، وينصرف عن الأمور العائقة عن بلوغ كمالته، فإن الإنسان قد يتهاون بهذا الأمر حتى تعوقه الرذائل والخبائث والحظوظ والشهوات والأطماع والغايات عما خلق له، ويظن لجهله أن ما هو فيه من الشهرة وكثرة الأموال ونفوذ الكلمة والترف والنعمة والملاذ البدنية أنه هو الكمال النفساني، ويفتخر لجهله بكثرة المال، وكذب، فإن الفخر إنما هو للمال والجمال بيته وجودة ركائبه وحسن ملبسه وجمال جهه ولا فخر في هذا كله للمفتخر، وإنما الفخر للبناء وللجواد والخياط ولأمه التي كانت جميلة الوجه. وإنما الفخر بالكاملات النفسانية والفضائل الحقيقية التي هي خاصة بالإنسان، لا بمنحك شهبي

وفراش وطى وعيش هني وثوب بهي، فإن أدنى الحيوانات مبتهج بكل تلك المعاني أكثر منه:

عليك بالنفس فاستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

المجاهدة لنيل الكمالات النفسانية:

إذا نظرت بفكرك فيما ألمعنا إليه من الآيات، وتحققت أنك لم تخلق عبثاً، وأن أعمالك محصاة عليك، وأن أنفاسك معدودة عليك، ولا ملجأ ولا منجى لك من الله إلا إليه، وتحققت الحكمة التي لأجلها خلقك الله وسخر لك عوالم ملكه وملكوته، وأعد لك مقعد صدقه، لتكون في جواره العلي، قمت من نومة غفلتك، ورقدة جهالتك، وبذلت ما في وسعك وطاقتك، لتنال الغاية القصوى التي ينالها عبد مسلم آمن بالله ورسوله وبالقرآن المجيد، محققاً زينة الحياة الدنيا ويهتجتها، فإزا من غروره وسالكا طريق الاستقامة التي هي أقرب طريق فيه السلامة والنجاة، وهو طريق أئمة الهدى - الصراط المستقيم - الذي بينه لنا رسول الله ﷺ وتجنب الشرور العائقة لنا عن هذا الكمال، ونفارق الخليل والصديق والصاحب إذا عاقنا عن هذا الكمال، بل والزوجة والولد، بل ونقلل الأكل والشرب والنوم ونهاجر من الأوطان إن كان في ذلك نيل الكمالات النفسانية، والفوز بالنعيم الأبدي، وتجريد الفكر للنظر في الآيات، وكيف يرضى العاقل أن يبيع النعيم الأبدي بدفع ألم يزول؟. فإن كل ما نراه لذة في هذه الدار هو في الحقيقة ليس بلذة، وإنما هو دفع ألم أسأل الله سبحانه وتعالى أن يمنحني وإخوتي المؤمنين جميعاً الخير الحقيقي في الدنيا والآخرة إنه مجيب الدعاء، حتى نسارع إلى مقامات القرب والملك الكبير والنعيم الأبدي والسرور الحقيقي،

ونصل إلى قرة العين التي بشرنا الله تعالى بقوله: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ (1)

من هذا تتحقق أن أفضل الأعمال التي تصدر عنك أيها الأخ وبها تتقرب إلى ربك وتنال بها السعادة الحقيقية هي أفعال النفس الملكية الخاصة بها من الفكر في آلاء الله، واستنباط ما به الخير من الأفعال، ومراقبة القريب والشوق إلى جنابه العلي، والاجتهاد فيما يقربك إليه من أعمال البر والتقوى، ثم تكون أعمال النفوس الأخرى مع الروية والاعتناء بالنفس الملكية والعلم بأن تلك الأعمال موافقة للكتاب والسنة صادرة عن إخلاص وصدق. وبذلك تكون - أيها الأخ - من أولياء الله المقربين، ومن عباده المخلصين، ومن العارفين الروحانيين الذين يبشرهم تعالى بقوله: (لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) (2).

سلم الارتقا وباب التداني حسن ظن بالله في كل شان
و يقين به الفؤاد مضى بشموس المهدي من القرآن
و جهاد للنفس بعد يقين و اجتهاد في ذات ذي الإحسان
و تخل عن الغرور بمال و يجاه أو رغبة في الكيان
و تحل بالزهد في كل فان بكمال التصديق والإيمان
و اشتغال بطاعة الله دوما مع رغب في الذات لا في الجنان
و فناء عما سوي الله تبدو لك منه شمس الصفا بالتهاني
و التفات إليه بالعزم رغباً في نوال الرضا وفضل الحنان
كل هذا متابعا هدي طه فهو حصن الوافي وكهف الأمان
و هو نور المهدي صراط قويم من يخالف يهوي إلى النيران

(1) سورة السجدة - آية 17

(2) سورة الزخرف - آية 68

و حمى الله أمره وهده
فأتبعه تنل رضا الله تحظي
أحي سنن النبي فيك بعزم
و إلى التوب بادرن أن تحالف
كل ذنب وإن تراه صغيرا
صغر الذنب جاهل بمقامي
هفوة العارفين أكبر ذنب
قول طه وفضله بالبيان
بنوال الزلفي وبالإحسان
و انشـرئها بحكمة الفرقان
في صغير، وخل عنك التواني
فهو نار إن لم تنل غفراني
و بفضلي وعزتي وحناني
فابذل النفس تمنحن رضواني

كمال النفس

أكمل النفوس نفس المصطفى ﷺ:

إن الله تقدست ذاته وتنزهت صفاته خلق نفس سيدنا مولانا رسول الله ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم نوراً من نوره سبحانه وتعالى منزهة مطهرة، أكمل النفوس على الإطلاق من الرسل والملائكة، وأمد نفوس الرسل عليهم الصلاة والسلام من هذا النور المحمدي، فهي أكمل النفوس بعد نفس سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ، طهرها الله تعالى وركاها وعصمها لأنه سبحانه وتعالى جعل نفوس الأنبياء أئمة لعباده وقدوة لخلقهم وأظهر على أيديهم صلوات الله وسلامه عليهم ما لا يقدر على إيجاده إلا الله سبحانه وتعالى من عجائب الآيات وغرائب المعجزات، ولما كانت أنوارهم أفاضها الله تعالى عليهم من نور سيدنا ومولانا محمد ﷺ كما هو صريح القرآن المجيد، وسر بشائر أسفار الرسل عليهم الصلاة والسلام خصوصا ما صرح به سيدنا عيسى بن مريم رواية حوارية برنابا عنه ﷺ بقوله (الرسول الذي يأتي من بعدي محمد أتمنى أن أكون حاملا لحذائه) ولا أقول ذلك تنقيصا لمقامات رسل الله صلوات الله عليهم، أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين. ولكن إظهارا لفضل الله علينا جماعة المسلمين وتحديثا بنعمته علينا، ودليل ذلك قوله: ﷺ «وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه

النور المبين (طبعة نهائية) 420

قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴿١﴾.

نفوس الرسل عليهم السلام:

لست في مقام التفاضل ولكني في مقام الفكر في النفوس، فانظر يا أخي إلى النفس التي جعل الله لها الأرض مجرا لجيا وأجهاها في سفينة هي ومن أحببت، وانظر إلى النفس التي جعل الله لها النار روضة من رياض الجنة. وإلي النفس التي جعل الله لها العصا ككلمة (كن) فجعلت البحر يبسا، وصارت حية ذات روح تسعى، وفجرت بنابيع الماء العذب من الحجر الصلد. وتفكر في النفس التي منحها الله الكلمة فأحيت الموتى وأبرأت الأكمه والأبرص، وخلقت من الطين كهيئة الطير. ثم أقبل بقلبك وقالبك، واعلم بأن تلك المعجزات آيات للإثبات قد تنتج لمن شهدها الكمالات وقد لا تنتج. وانظر إلى الروح القدسية التي هدى الله بها بعد الضلالة، وجمع بها بعد التفرقة، ونور بها بعد الظلمة وأحيا بها بعد الموت، وأعز بها بعد الذل، وقوى بها بعد الضعف، ومكن بها بعد الخوف. تناول يا أخي من صافي هذا الشراب الطهور كيف أقام الله سيدنا ومولانا مُحَمَّدًا ﷺ مقاما لم يقم فيه قبله نبي مرسل ولا ملك مقرب، وكيف لا وقد أقامه مقام نفسه سبحانه، وذق ذلك من آيات القرآن الحكيم، فإن هذا المختصر ليس محلا لهذا. أسأل الله تعالى أن يعيننا على شكر النعمة التي أنعم بها علينا

وسيدنا مُحَمَّدًا ﷺ.

(١) سورة آل عمران - آية 81

نفوس الأولياء:

و من النفوس الكاملة نفوس الأولياء الذين طهرهم الله وزكاهم، وجعلهم ورثة لرسله ونجوماً في أفق صراطه المستقيم، وأظهر بهم غرائب وعجائب، فكم أحيا بهم قلوباً ميتة وهدى بهم نفوساً لقسىة، وكم شفا عند دعائهم من الأمراض، وأنزل الأمطار وأزال البلاء ونفس الكرب، وجعل السباع لهم مركباً، والوحوش تأنس بهم، والطير تتساقط عليهم، وغير ذلك من الآثار العجيبة التي لا يقصدون عملها ولكن الله سبحانه وتعالى يكرمهم بها لأنهم أولياؤه المخلصون. ويظهر ذلك على أيديهم ليظهرهم لعباده ولينبه بقدرهم عند خلقه ليحسن الاقتداء بهم والاهتداء بهديهم، فإذا تفكرت في تفاوت تلك النفوس وتباينها وفي خصوصياتها، علمت يا أخي قدر الفضل العظيم وذقت حلاوة التوحيد.

نفوس أهل الفراسة:

و هناك نفوس يا أخي يكشف لك أهلها من وراء الستائر بعض ما جرى به القدر تلويحاً لا تصريحاً فتشير بما يلوح لها وتبشر: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾⁽¹⁾ وقال ﴿تَتَّقُوا اللَّهَ﴾: (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)⁽²⁾ وكم من بشائر كانت يقيناً، ومن إشارات كانت أقوى من التصريحات! وهي نفوس فاضلة مؤهلة لمقامات الولاية ومنازل العناية وتلك النفوس كثيراً ما تستدل بالأحوال الظاهرة على الأمور الباطنة.

نفوس أصحاب القيافة والكهنة وأصحاب العرافة:

ومنها نفوس أصحاب القيافة، و القيافة إما قيافة البشر وإما قيافة الأثر. فقيافة البشر أن تدرك النفس أن هذا المولود ابن فلان أو ابن فلانة، فيؤتى للرجل منهم بالمولود

(1) سورة الحجر - آية 75

(2) رواية الترمذي في كتاب التفسير

ومعه عشرون رجلا وعشرون امرأة فيقول هذه أمه وهذا أبوه فيكون كما قال، وكم حصلت منهم عجائب. ويكثر هؤلاء القوم في بني مدلج. أما قيافة الأثر فتكثر في بلاد المغرب و قد رأيت في بلاد السودان كثيرا من الناس يقيفون الأثر حتى قد يسرق من الرجل ماله ليلا، فيحضر الرجل منهم فيمشي معهم حتى يصل إلى المال الضائع ويحضره، ورأيتهم يعرفون قدم الشاب من الهرم والرجل من المرأة، ولكن ذلك لا يكون إلا في الأراضي الرملية التي تظهر فيها الآثار.

و منها نفوس الكهنة. وهي نفوس تتلقى الروحانيات وتكتسب أحوال الكائنات التي تدل عليها المنامات وغيرها من الحادثات ولهم حوادث لا تحصى وغرائب لا تستقصى، أشهر ذلك ما أخبر به سطيح وشق الكاهنان من قرب بعثة النبي ﷺ وما يكون من الفتح والنصر له ﷺ.

و منها نفوس أصحاب العرافة. وهي نفوس تستدل ببعض الحوادث على بعض لمناسبة بينها أو مشابها، وكثيرا ما أخبروا عن أشياء وافقت الحقيقة، ولا يخلو كل زمان من وجود كثيرين من أهل تلك النفوس.

النفوس المؤثرة:

هذه النفوس لها قوة تأثير فمنها ما يؤثر بالنظر، فإذا نظر الرجل منهم إلى آخر أو إلى ماله نظر تأثير أضره ذلك، وقد ينظر أحدهم إلى نفسه أو ولده أو ماله. وتلك النفوس تأثيرها بالانفعال الذي ينتجه الحسد أو التعجب. وقد ورد في العين أحاديث كثيرة، وقد وردت الأدعية النبوية والرقي لدفع شر العين. ومن قرأ المعوذتين في كل يوم صباحا ومساء بعد خواتيم البقرة وقال: (أعوذ بكلمات الله التامات كلها من شر ما خلق، بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، اللهم صل على سيدنا محمد الرؤوف الرحيم، وأغذني من شر كل ذي شر في الأرض وفي السماء، يا حفيظ يا سلام يا الله). حفظه الله من شر العين.

و من تلك النفوس ؛ النفوس المؤثرة بالتمتمة والعزائم واجتماع الهمة لدفع ضرر أو لجلبه لعدوهم ولا يلزم أن تكون تلك النفوس مؤمنة، بل قد يقع ذلك من المؤمن والكافر، ومن الرجل والمرأة، والحر والعبد، لأنها نفوس مستعدة لذلك، وربما كان لها ذلك التأثير قبل سن البلوغ، ويعرف ذلك بشدة التأثير من المؤلم وظهور الذل والالتجاء إلى الدعاء. ومن تلك النفوس المؤثرة نفوس أهل الطلسمان والتمايم العالمين بطبائع الحروف والإنسان والحيوان، وبطوابع الأفلاك ؛ ولهم تأثير عجيب في أعمالهم بقوة تأثيرهم خصوصا على أهل النفوس القابلة للتأثير، ويكون ذلك بعلمها أشد. فكم فرقوا بين الزوج وزوجه، وجعلوا بعض الناس في ذهول عن لوازمهم الضرورية، وأثروا على بعض الناس بإضعاف الخيال، حتى يرى كأن آتيا يأتيه ويتكلم معه ليلا، أو يتخيل ذلك نحارا. ومن هذه النفوس المؤثرة نفوس الذين يبينون الضائع ويكشفون خبايا الأرض، فإن لهم تأثيرا عجيبا على بعض النفوس، حتى يجرد الذي يؤثر عليه من عالم الحس مع يقظته كأنه نائم يسمع ويجيب ويمشي، وذلك بتأثير نفساني على قوى النفس الإنسانية. ولم يكن للمسلمين عناية بمثل هذه الأمور التي نحى عنها الإسلام، ولكن كان يعتني بها أهل النفوس المؤهلة لها بالفطرة فبقيت آثارها للآن، ومتى كملت عقيدة التوحيد، وطهر الخيال من تمثيل الحقائق بغير حقيقتها، لا تؤثر تلك النفوس على من اتصف بتلك الصفات. وقد ظهر ببلاد بني الأصفر تأثير تلك النفوس وهو الذي يسمونه بالنوم المغناطيسي. ومن تلك النفوس نفوس تؤثر بازواج بعض النغمات، وأصوات الطبول، تأثيرا عجيبا يفضي إلى زوال بعض الأمراض كالفالج واللوقة ومبادي النقطة وأمراض من أنواع التشنج، ولكن أصحاب تلك النفوس لا بد أن يكونوا حكماء ليعملوا تلك الأعمال بمقادير متناسبة وفي الأمراض المخصوصة.

و قد ادعى أهل الغواية هذا العمل بحالة مزعجة حتى أفسدوا خيال كثير من الناس، وأوهموهم أن هناك عقاريت تأتيهم، وشيوخ تزورهم لا للإستشفاء بل لخديعة الناس وسلب أموالهم، ويسمونه الآن بالزار، والضرر به صار عاما والمصاب به صار طامأ،

وما ذلك إلا من استيلاء الجهالة على العامة. وقد كثر بذلك الفساد في النساء، حتى صار الرجل يأخذ زوجته بيده ويذهب بها إلى الزار، وربما صنعه في بيته، وقد يكون من أهل الفضل والعلم، وهذا كله من كيد النساء - إن كيدهن عظيم. ومن تلك النفوس: نفوس تؤثر على النفوس لتكوين بعض عقايق وتآلفها وسرعة الحركة في ذلك، وعمل ما يخيل للرائي صورا وأعمالا غريبة، وأصحاب هذه النفوس يلزم أن يكونوا علماء بخواص العقاقير أو تلقوا هذا العلم، ويسمى بعلم النارجيات وله تأثير غريب في هذا الباب، وهذا لا بأس إن لم يجر فسادا بأن كان المراد بالعمل به إظهار أسرار العقاقير منفردة ومزوجة، كما يحصل ذلك في التراكيب الكيماوية.

و أما إن جر إلى فساد بأن يوهم الناس بأن ذلك من فعل العفاريات، وأن هنا كنزا يريد فتحه، أو أنه يمكن أن يحضر العفريت الفلاني يتكلم معه ؛ فإذا حصل منه فساد فمحرم شرعا.

و تأثير النفوس لا ينكره إلا من لا نفس له فإن الله سبحانه وتعالى كما جعل لكل نبات ولكل معدن ولكل حيوان خواص وتأثيرات، فإن الله تعالى جمع ذلك في نفوس الإنسان وأكثر. وكم رأينا من أعمال الحواة والمشعوذين وتأثير نفوس السحرة ما لا يصدق به الإنسان إلا برؤيته.

تأثير نفوس أولياء الله الكاملين:

و في تأثير نفوس أولياء الله الكاملين العجيب الذي ورد في الكتب السماوية ما فيه البرهان على ذلك، فإن آصف بن برخيا ولي وأحضر صرح بلقيس في أقل من لمح البصر وإن مريم بنت عمران صديقة وكانت تأتيها الفاكهة التي ليست موجودة في الأرض كل يوم. ونطق الغلام شاهد سيدنا يوسف الصديق. وإكرام الله تعالى للصديق الأكبر سيدنا أبي بكر رضي الله عنه عندما أمر بإرسال الجيش إلى بني حنيفة وإلى الروم وفارس وقام الصحابة جميعا منكرين ذلك، وقال له سيدنا عمر ابن الخطاب

ﷺ: كان رسول الله ﷺ يقاتل بالملائكة فالزم بيتك ومحرابك، فغضب وقال: والله لو لم يكن إلا أني أقاتل منفردا لما قعدت عن الجهاد، وأثر على جميع الصحابة، فكان ما كان مما لا يخفى على مسلم. وما أكرم الله به الفاروق رضي الله عنه وهو يخطب على منبر رسول الله ﷺ، وفي أثناء الخطبة نادى: ((يا سارية الجبل !)) والقصة مشهورة. وذكر ما أكرم الله به أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين وأتقياء المسلمين إلى وقتنا هذا لا تسعه الأسفار، وما وهبه الله تعالى للنفوس من الأفعال الخاصة بها روض زاه زاهر تقتطف منه الأفكار المؤهلة لمشاهدة آيات الله، فسبحان الواسع العليم القادر الحكيم.

نفوس تعلم الحوادث الكونية الغائبة:

و من النفوس المؤثرة نفوس تعلم الحوادث الكونية الغائبة عنها بتركيب أعداد وتحليلها وتلك الأعداد تجمع من مجمل الطالع الفلكي والسؤال المقصود وتوضع جداول مقسمة على نسبة أصول معلومة لديهم، تنتج الجواب المطلوب نظما أو نثرا وتسمى بعلم البازرجي، وتلك النفوس لها تأثير عجيب في تقسيم الأعداد إلى أجزاء متناسبة، ووضعها في أوافق واستخراج أسماء منها، واستحضار قلب صاحب النفس بتلاوة بعض العزائم عليها، فيحصل من ذلك تأثير عجيب على النفوس الأخرى. ومن تلك النفوس نفوس تخط في الرمل خطوطا مقسمة إلى نقاط ثم تسقطها زوجا زوجا وتركب ما بقي أمهات وتستنتج منها بنات وأوتادا وموازين، وهناك شكل من هذا يمكن أن يخرج منه ستة عشر حرفا فيه الجواب المطلوب. ومنها ما يؤثر بالحصى، وقد رأيت ببلاد مصر نساء يستعملن الفول والملح، وفي بلاد السودان يستعملن الودع ويخبرن بجواب السؤال، فيحصل ما يقلن، وذلك من تأثير النفوس. ومنها نفوس تنظر إلى الكف، فتعلم منه علوما حصلت وتحصل، وأصحاب هذه النفوس اصطلاحوا على أن يجعلوا للخطوط التي في الكف معاني مخصوصة ويستدلون بها على أشياء. ولو نظرت يا أخي في بني الإنسان نظرة متفكر يظهر لك أن لكل فرد منهم مزايا وخصوصيات

وعلوما واسرارا لا يمكن أن تجمع في واحد، ولا بد أن تكون منتشرة لكل فرد قسطا، والعلم كله في العالم، قال الله تعالى ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد يحسب أن لن يقدر عليه أحد يقول أهلكت مالا لبدأ يحسب أن لم يره أحد ألم نجعل له عينين ولسانا وشفقتين وهدينا النجدين فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾⁽¹⁾ هذه بعض الآيات التي يمكن أن تسطر في بطون الأوراق.

العلم والذوق:

أما ما يتلقاه المؤمن بعمله بعلم عن الإلهام الإلهي من تصريف القدرة وأسرار الحكمة، ومعاني التجلي، وظهور معاني الأسماء ومشاهدة الكائنات قامت بآيات الصفات، فذلك لا يتلقى إلا بالإلهام، لأنه ذوق، والذوق فوق العلم لأنه شهود، وليس كل عالم وهب له الذوق، ولكن كل من وهب له الذوق حصل له العلم، ولا أريد بالعلم الذي يعمل به المرید في البداية ما زاد عن الواجب ليورثه الله علم ما لم يعلم، فإن كل مسلم مطالب أن يتعلم ما يجب عليه شرعا ومالا بد له منه مما به تحصيل معاشه وبر والديه وصلة رحمه وتربية أولاده والقيام ببقية الواجبات الشرعية من حج وجهاد وصدقات وتعاون على البر والتقوى، فإن ذلك كله واجب عند وجود مقتضاه، فإذا عمل المسلم ما وجب عليه عملا بعلم ورثه الله ما لم يعلم.

و إلى هنا أري أنني جعلت لك نموذجا تنهج عليه في سيرك بفكرك في هذا العالم، واختصرت لك على ما يمكن أن يكون مثلا تنز به، وبقي علي - أيها الأخ المخلص - أن أبين لك ما يجب عليك لخالفك ومبدعك ولرسله صلوات الله وسلامه عليهم ولجميع الخلق بنسبتهم إليك، راجيا منك - أيها الأخ السائر على الصراط المستقيم

(1) سورة البلد آية 4-17

— أن تجتهد في العمل بما تعلم وأن تستمد من الله سبحانه وتعالى أن يعينك على ذلك وأن يمن عليك بعلم ما لم تعلم وتحقق أيها الأخ البار أني لم أكتب هذه المواضيع لثقتي بنفسي أني العالم الحقيقي أو المحيط بعلوم السنة والكتاب، أو لتكون لي المنزلة عند الناس، أو لأجمع به مالا أدخره، وإن كنت أعلم من نفسي أنها لا تزال لقسة، ولكني أنزلتك يا أخي منزلة نفسي وأحببت لك ما أحبه لها، ورأيت أكثر أهل زماننا هذا تركوا آداب الدين وفضائله وراء ظهورهم، وعلوم العلماء المدونة في كتبهم هجروها، والتفتوا إلى القشور التي وضعها الفرنج مما نسخوه أو مسخوه من كتب سلفنا الصالح، ورأيت إعجاب أهل زماننا بآداب بني الأصفى وشعرهم وعلومهم، ولو أنهم اطلعوا على علوم آبائهم وآداب أسلافهم وحكمة أجداهم والكنوز الخفية التي كنزها لنا إخواننا الذين سبقونا بالإيمان لميزوا بين الثرى والثريا، وبين الحق والباطل، فأعاد الله عصر دمشق، وزمان بغداد، وأيام الأندلس والمغرب، وأوقات مصر والعراق، ونبه الله إخواني أهل عصري إلى فتح تلك الكنوز الخفية في بطون الكتب في متاحف أوروبا ومكاتبها من آثار أجدادنا الكرام، وأسلافنا العلماء العاملين، إنه مجيب الدعاء.

يا أخي، ما من علم من علوم الدين أو الأخلاق، أو النفوس أو القوانين أو المعاملات أو علوم الآداب والمعايشة والمجالسة أو علوم الصناعة والتجارة والطب والحكمة وعلوم الزراعة والسياسات، بل كل علم من العلوم مما يحتاج إليه المجتمع العمراني، إلا وأنزله الله تعالى إما مفصلاً في القرآن أو مجملاً، وبينه رسول الله ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم بطريق الحكمة النظرية والعملية في علوم الدين وما يتعلق به، ونظرياً في علوم الصناعات والزراعات وغيرها. وقام أئمة العلماء ففصلوا ذلك الإجمال حتى انحصر العلم كله في جماعة المسلمين، والفنون كلها والحرف كلها، فلم يكن خليفة من الخلفاء ولا قاض من القضاة ولا قائد من القواد إلا وهو سابق في علم أو فن أو صنعة أو حرفة، فكانت ترى منهم العالم الديني الذي ورث أسرار الرسل عليهم الصلاة والسلام يستنبط الأحكام بما منحه الله من قوة الاستنباط، وما من به عليه

من الاجتهاد، وما تفضل به من القياس. وترى الطبيب الماهر الذي كشف أسرار الأعضاء ووظائفها وخواص النباتات ومزاياها وسر تولد المعادن ونموها. وتري منهم العالم الرياضي الذي بلغ به العلم إلى حد حتى وضع علم الجبر المنسوب إلى جابر، أو وضع علم استخراج قوى العدد المسمى الآن لوغارتم المنسوب للخوارزمي. ومنهم من وقع به العلم اليقين في علم المعادن حتى وضع قوانين تحليلها وتركيبها وتطهيرها من الأجسام الغريبة وكيف تتولد وتترقى، حتى أمكنهم أن يوجدوا بعض المعادن بتركيب مواده الأصلية بالنسب الأصلية. ومنهم من استكشف حواص كثير من النباتات والمعادن والحيوانات بالتجارب العملية. ومنهم من بحث في النظام الشمسي بحث عالم متقن بقوة الفكر والعلم، حتى علم مقاديرها الحقيقية والنسب بينها ومقدار بعد كل فلك عن الآخر، وتأثير كل فلك بقدرة الله تعالى على الأجسام الحيوانية والنباتية والمعدنية والجمادية وعلى النفوس. ومنهم من علم تأثيرها الروحاني على بعضها وعلى ما عداها بالرياضة الفكرية والبدنية. ومنهم من اجتهد بعد الرياضة بالحكمة النظرية إلى أن أثبت بالحكمة العملية خطوط الطول والعرض، ومقادير درجات الأرض وأنواع علوم تخطيطها، ومزجوا بذلك علم طبقاتها وتفاوت أقاليمها وحاصلات كل إقليم، وأثبتوا أنواع دوران كل كوكب دورانا حقيقيا - وبالأخص دوران الأرض وما يتولد من ذلك - و أثبتوا قوة التجاذب بين المجموعة الشمسية بما أزال المجهولات العلمية عن تلك الحقائق، ومحا أباطيل وخرافات اليونانيين والرومانيين والفراعنة والآشوريين والفينيقيين والبابليين وبيضوا ما سود به هؤلاء المتقدمون صحفهم من الأكاذيب على العلم والتاريخ. ومنهم العالم المخترع الذي خدم الصناعات بما من الله به عليه من منن الإخلاص في الدين.

فيسهل عليك أيها الأخ أن تطالع تراجم الصحابة رضوان الله عنهم في طبقات ابن سعدون وتراجم الأطباء في طبقات ابن طفيل، وتراجم الأدباء والأمراء في تاريخ ابن خلكان، وتراجم الفقهاء والصناع والمحدثين والمتكلمين والرياضيين والمؤرخين في كتب

التراجم، لتعلم يا أخي - أيدك الله - ما أودعه الله من العلوم والأسرار في القرآن الشريف ولتعتقد أن في الإنسان كنوزاً وأمامه مراقي لو فتحت له تلك الكنوز ورفي على تلك المراقى بلوغ من الكمالات ما به تنكشف الحقيقة عن سر تسخير الله له ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه.

ثانياً: الشكر وهو الواجب الثاني لله سبحانه وتعالى:

الشكر في حال الجمال ثناء و الشكر في حال الجلال دعاء
 و الشاكرون هم العبيد تحققوا بمراد مولاهم وذاك صفاء
 شهدوا بعين قلوبهم مولاهم و فرضوا به عنة فدام هناء
 ما بين شكر أو دعاء حالهم و هموا الى مولاهم فقراء
 فالعسر يجذبهم إليه تضرعا و اليسر يوصلهم وهم أمناء
 لم يلههم عن رهم فقر ولا يشغلهم عنه غني ورخاء
 معه نعم بقلوبهم، ووجههم بيقينهم في رهم نضراء
 دامت بشائرهم بكشف قلوبهم و لهم توالى ما بذاك خفاء
 دخلوا الحصون حصون حفظ وليهم بملايس الحسني لهم اضواء
 العلم هد بهم وزكي نفسهم و العلم نور للهدي وشفاء
 نعم العبيد لربهم صدقوا له صدق العبيد فدامت الالاء
 دنياهم كشفت لهم فتحققوا أن السكون الى الدي الداء
 و الدار دار نعيمه وشهوده ظهرت فعشوقها فصح وفاء
 و لهم جمال الحق أشرق نوره فتحققوا أن الكيان هباء
 فرروا إلى مولاهم بعزائم و الفضل من مولي الجميل عطاء
 الله ربي والحبيب مُجَدُّ هو قبلي ووسيلتي وهناء

الواجب الثاني لله تعالى:

هو شكره سبحانه وتعالى وحمده والثناء عليه بالقلب واللسان والجوارح، واعتقاد أن له سبحانه وتعالى صفات هو وصف بما نفسه سبحانه، وأثبتها العقل بشهود دلائلها اليقينية، وانكشفت للأرواح بعد الخلاص من ظلمات الكثافات الكونية، وهي أنه تعالى حي قادر مريد سميع بصير متكلم حكيم واحد فرد صمد، منزه عن النقائص والأشياء والنظراء والوكيل والوالد والولد والصاحب والزوجة، قيوم كل شيء قريب مجيب منعم وهاب، ويجب أن نسميه بأسمائه التي وردت في كتابه العزيز على لسان نبيه ﷺ المثبوتة في النصوص الشرعية. ويجب أن تدبر معانيها الكمالية بما يليق بجناحه العلي من النزاهة والتقديس، ونفهم أنوارها الظاهرة في الآثار الكونية المنبئة عن على العظمة وعظيم القدرة والحكمة والطف والحنان والرحمة والود والنعمة والرأفة وجميل المنة والكرم والفضل والإحسان، لتشرق أنوار تلك الصفات والأسماء على القلوب فتعمرها بحقيقة الإيمان وكمال اليقين. ويجب أن نؤمن بالملائكة الروحانيين الحافين حول العرش وسكان السموات والسفرة الكرام، وأمنة الوحي والموكلين بالأقطار والرياح والحفظة والكتبة وبمنكر ونكير وبخزنة الجنة وخزنة النار وبالملائكة الكروبيين الهائمين في جلال العظمة الإلهية، وبالملائكة العالين بأنواع من الملائكة لا يعلمهم إلا الله تعالى. ويجب أن نصدق بالكتب التي أنزلها الله تعالى على رسله الكرام على نبينا وعليهم الصلاة والسلام، كأسفار سيدنا نوح وسيدنا إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وتوراة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام، وزبور سيدنا داود عليه الصلاة والسلام، وإنجيل سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام.

إجمال الواجب بالنسبة للقرآن:

يجب أن نصدق أن القرآن الكريم مهيم على جميع الكتب، وهو كتاب الله وحجته البالغة على جميع الرسل والناس أجمعين، جمع جميع كتب الله سبحانه وزاد عليها، وبين

ووضح وأقام الحججة وبين المحجة وشرح الأخلاق والعقائد والعبادات والمعاملات بأمثلة يعقلها العالمون، وأخبر عن القرون الماضية يعبر وبصائر وتذكرة يتنور بنورها العاقلون.

فأعجز البلغاء وأدهش الفصحاء، خنع له العقل وسجد له الخيال وانقادت له الأرواح الطاهرة والأنفس الزكية ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾⁽¹⁾ ويجب أن نجعل القرآن إماما متبعا وقاضيا نافذ الأمر والنهي، نعمل به، نحل حلاله ونحرم حرامه ونرتله حق تلاوته، نشاهد فيه أسرار المتكلم سبحانه، ونتناول منه شراب القدس الطهور، وتأنس أرواحنا عند تلاوته بمشاهدة الجمال والجلال والكمال الإلهي أنسا بمعنى المعية الحقيقية مع التنزيه، حتى كأن التالي للقرآن يسمعه من ربه سبحانه. تقشعر الجلود عند ترتيله، وتلين القلوب عند سماعه، وتشتاق الأرواح عند تدبره لعالم القدس الأعلي. فالمسلم الحقيقي يحب القرآن ويجب أن يكون عاملا بالقرآن، ويجب أن يكون العمل بالقرآن أكثر من محبته لنفسه، لأنه بترك القرآن يخسر نفسه ويتمنى أنه كان ترابا أو لم يكن شيئا مذكورا، وبالقرآن يفوز بالسعادة الأبدية في جوار رب العالمين. والمسلم الذي لا يغار للقرآن أو يتساهل بأحكام القرآن أو لا يسعى في إعلاء كلمة القرآن ليس بمسلم عند العلماء وإن كان مسلما عند نفسه. وأول بلاء نزل بالمسلمين تساهلهم في إقامة أحكام القرآن وميلهم إلى الهوى، حتى صاروا ليسوا أهلا للقرآن ولا لبشائره ولا يأبه الله بهم حتى سلط عليهم الكفار وأذلهم بأذل العالم، قال تعالى: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾⁽²⁾ بشري في القرآن.

و إنما المؤمن من كان عمله بالقرآن وحاله بالقرآن وماله بالقرآن ونومه وأكله وخلقه بالقرآن، يجب ما حببه فيه القرآن ومن حببه فيه ويعادي من أمره القرآن بمعاداته ولو

(1) سورة الأنعام - آية 38

(2) سورة النساء - آية 141

كان أقرب قريب وأحب حبيب، يغضب للقرآن ويرضى للقرآن. هذا إجمال الواجب بالنسبة للقرآن والمسلم البسيط يعلم تفصيل هذا الإجمال والله الموفق.

التصديق بالرسول واعتقاد أفضلية خاتمهم:

و يجب أن نصدق بالرسول عليهم الصلاة والسلام خصوصا من ذكرهم الله تعالى في القرآن وأثنى عليهم، ونعتقد أنهم صادقون أمناء بلغوا الرسالة ونصحوا للناس، وأن الله أرسلهم لهداية الخلق ليكونوا حجة لله سبحانه على عباده وحجة لعباده يوم القيامة و يجب أن نعتقد أن سيدنا محمد ﷺ خاتم رسل الله سبحانه وأفضلهم وأكملهم. بعثه الله تعالى على فترة من الرسل فآتم به حقيقة العقيدة، وأكمل به مكارم الأخلاق وأفضل المعاملات، علمنا بعمله وقوله وحاله كل محبوب لله تعالى من القول والعمل والحال والعلم، ونهانا عن كل ما يكره الله من الأعمال والأقوال والأحوال. فهو الرحمة الحقيقية الواسعة والنعمة العظيمة على الإنس والملائكة والجن والحيوانات، سن السنن ووضح المناهج، وأقام الحجة لله على العباد برحمة وحكمة ورأفة وحرص على الناس من الهلاك، ويجب علينا أن نقتدي بهديه ونتجمل بأخلاقه ونتشبه به ﷺ في معاملاته وأقواله حتى نفوز برضاء الله الأكبر الذي لا سخط بعده. ومن خالف سنته أو ابتدع بدعة في دين الله فقد أهلك نفسه وغيره أعوذ بالله وبوجهه الكريم من مخالفة سنة سيد المرسلين.

الإيمان بالقضاء والقدر:

و يجب أن نؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره من الله سابق إرادته وتدبير حكمته بلا شك ولا ريب ولا بحث عن ذلك، بل نعتقد حق الاعتقاد أن كل شيء حدث لا بد وأن يكون صدر عن علم الله تعالى به وتقديره له وإرادته، بحيث يستحيل أن يخلق الله شيئا لا يعلم به أو يكون بغير تدبيره ومشيئته وحكمته وقدرته تنزه الله سبحانه وتعالى

علوا كبيرا عما يصفه الواصفون. ونؤمن أن كل ما أحدثه الله تعالى هو عدل لحكمة تخفى على الجاهلين.

وعلينا أن نبغض المعصية ولو وقعت منا لأنها منهي عنها، ونعتقد أنها بقضاء الله وقدره سبحانه وأنه يؤاخذ عليها لأنها مخالفة لأمره ومعصية لسنن رسله. وليس لنا حجة عليه سبحانه لأنه أمرنا بترك المعاصي على لسان رسوله ﷺ في كتابه العزيز، وأخفى عنا ما قدره علينا، وعلينا أن نندم ونتوب إليه سبحانه ونسأله العفو والمغفرة لمخالفة الأمر، لا لأننا أوجدنا ما لا يقدره علينا، أو ما لا يعلمه سبحانه وتعالى أو ما أوجدنا بحولنا وقوتنا تنزه الله سبحانه أن يكون له شريك في إيجاد شيء ما أو معين في عمل ما، وأنت أيها المدعي ذلك بمن تعمل العمل إذا سلب الله القوة والحول الذي أمدك بما؟ انظر إلى الميت ترى جسمه كاملا أمامك ولكنه لا يمكنه العمل ولا القول ولم ينقص منه أمامك شيء، فتأمل واعتقد لتكون من أهل السعادة.

هذا هو الذي نعقد عليه القلب بتسليم وإذعان حتى يكشف الله سبحانه وتعالى لنا حقائق التوحيد، وتظهر لنا أسرار حكيم قادر وأنوار مرید فاعل مختار وآيات واحد أحد منزه عن الشبيه والمثيل، فيحصل اليقين الحق الذي هو كمال الإيمان وحقيقة الإيقان وعلينا أن ننظر إلى تصاريف القضاء ومجاري القدر بعيون القلوب، فنشكر الله ونخشاه عند إسباغ النعم الدينية والدينيوية . ونجاهد أنفسنا على أن نحافظ على حقوق الشكر وتأدية الأوامر الإلهية، حتى ننال المزيد من الله تعالى في الدنيا والسعادة في الآخرة: والله در القائل:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة علي له في مثلها يجب الشكر فكيف بلوغ الشكر إلا بفضلله و إن طالت الأيام واتصل العمر إذا عم بالسراء عم سرورها و إن خص بالضراء أعقبها الأجر

و نبتهل إلى الله سبحانه ونتضرع إليه سبحانه أن يمنع عنا ويحفظنا عن معصيته عند مقتضيات ذلك، وأن يتداركنا بخفي اللطف عند حصول ما لا قبل لنا به من الحوادث، مع الصبر وحسن الظن بإغاثة الله لنا، ونكره المعصية ولو وقعت منا، لا بغضا لقضاء الله بل بغضا لعمل يكرهه الله، نهي عنه وإن قدره، فقد يقدر ما لا يرضي من القول والعمل. وتوب إلى الله ونستغفره من الخطايا، ونسأله التوفيق لما يحبه من القول والحال والعمل، فيكون رضانا بما يرضاه الله لأنه سبحانه قضى وقدر علينا ما يحبه مما هو خير لنا وسعادة، ويكون بغضنا لما يبغضه الله سبحانه لأنه قضى وقدر علينا ما نمانا عنه وأخفى عنا قضاءه، فارتكبنا مخالفة أمره بشهواتنا وغفلتنا، ونكره كل ما خالف الشرع والسنة، ونجتهد في إرجاع الأمر إلى الشرع بقدر استطاعتنا باليد وباللسان أو نكر بقلوبنا، ونسأل الله محو الباطل مع شدة الكراهة له والبغض لفاعليه ومعاداتهم إن سرا وإن جهرا عند المكنة، ولا تتناظر في هذا الموضوع الذي لا يشك فيه أو يبحث فيه إلا مريض القلب بالنفاق بعيدا عن حقيقة التوحيد وعلينا أن نجد في طلب الخيرات والتسبب لكسب الحلال والغنى بالله عن سؤال الناس، مع اعتقاد أن الرزاق هو الله، وأن الأسباب وسائط جعلها الله بينه وبين خلقه وهو سبحانه مسبب الأسباب وميسر الأمور والمعين الوهاب، ونجد في القربات ببذل المال والجاء وعمل الصالحات، معتقدين أن الله سبحانه هو الموفق الهادي للصرار المستقيم. ويجب علينا أن نتوسط في جميع الأحوال فيكون الطمع والخوف والرغبة والرغبة متساوية في قلوبنا، حتى نكون بين خوف من الله تعالى يحفظنا الله تعالى به من مخالفة أمره ومن ارتكاب الخطايا والغرور بالدنيا والجهل بقدر أنفسنا، وبين طمع يعيننا الله تعالى به على محبته والإقبال على جنبه العلي والتقرب إلى مواطن رضوانه حتى تتوازن قوانا الحسية والروحانية، والله سبحانه هو الموفق المعين.

وجوب الإيمان باليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر هو الركن الحقيقي الدال على تصديق القلب ونوره وشروق شمس الحق عليه، حتى يتحقق حق اليقين بعد الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى - أن القادر الحكيم لم يخلق الخلق عبثاً، ولم يتركهم هملاً، ولم يصرفهم في ملكه ويسخر لهم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه جهلاً تنزه وتعالى، بل اقتضت حكمته أن يبتلي خلقه بالخير والشر فتنة، وكيف لا وقد أرسل لهم الرسل، وبين لهم الحجج، وضرب لهم الأمثال، وأقام الدلائل على ثبوت يوم الحساب، وحذرهم وأنذرهم ووعظهم وبشرهم، ومنحهم العقل الذي يعقل الأمثال والحجج ويقبل الدلائل، وأعد لهم يوماً يرجعون فيه إلى جنابه العلي ويحاسبون فيه على النقيير والقطمير ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ (1). ﴿أفحسبتم أننا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ (2) ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لأعيننا خلقناهما إلا بالحق﴾ (3) فتلك الدار الدنيا دار تكليف وتعريف وأحكام وتصريف، وخلافة عن الرب ومعاملة لجنابة العلي، وهي النشأة الأولى يعيش فيها الإنسان يكدح إلى ربه كدحاً في آلام تغيرات العناصر، وهموم سطوات تغيرات الفصول، وغموم الحوادث ومزاحمة البقاء ومنافسة النظراء ومدارة الكبراء، والحيل في نوال السلامة ممن لا غنى له عن معاشرته، وذل الافتقار إلى المساعد من بني جنسه وأنواع من الحيوانات، وتعب في طلب المسكن والملبس والقريفة، وعناء في تعليم وتربية الأبناء.

إذا صفا نفساً فإنما ذلك لغفلة قلبه عن الحقوق الواجبة عليه وإن فرح لحظة فذلك لجهله بما في الغيب، إن عوفي في بدنه أضرب به الرزق، وإن تيسر أفسد عليه صفاء التنافس، وإن بلغ المجد اعترته المخاوف من تسليط عدو أو فساد أهل أو مصاب في

(1) سورة الزلزلة - آية 7-8

(2) سورة المؤمنون - آية 115

(3) سورة الدخان - آية 38-39

حبيب، فالإنسان في تلك الدار محاط بسور من البلايا، ومطالب بالشكر على ما أحاط به من سوابغ النعم التي لا تحصى، فإنه منعم عليه بنعم من العرش إلى الفرش، فمن قدمه إلى العرش نعم خاصة بالإنسان وخيرات مسخرة له، وهو بين ذلك يشغله قليل لا يفيد له لو ناله عن عظيم النعم المتوالية عليه في كل نفس، فالمنعم عليه بالعافية غافل عنها مشغول بجمع المال، والمنعم عليه بالمال غافل عنه مشغول بشهواته، وهكذا، فلا تجد إنسانا يشعر بالنعمة التي أنعم الله بها عليه إلا من حفظهم الله واختارهم ﴿وقليل ما هم﴾⁽¹⁾ فالعاقل البصير يدرك أن تلك الدار الدنيا، دار سعي وكد واجتهاد وعمل وسفر للآخرة، فيتزود منها لما بعدها بكل همة ونشاط، ويأخذ منها ما يبلغه الدار الآخرة حتى يفوز بدار المقامة ومنزلة الكرامة. فإذا تحقق بذلك وجه قلبه ووجهه صوب ما يبلغه هذا الخير، لاهيا عما يشغله عن الخير مما فيه العناء والتعب في الدنيا والألم والعذاب في الآخرة، والله سبحانه وتعالى جعل الدار الآخرة دار كرامة من آمنوا بها وعذاب من كذبوا بها، والإيمان بيوم الحساب أكبر مهذب للنفوس ومطهر لها، ولو أن الناس صدقوا بيوم الحساب تصديقا حقيقيا لعاشوا في الدار الدنيا في سعادة حتى ينتقلوا إلى السعادة الأبدية في ملكوت الله ومنازل رضوانه الأكبر، ولا تجد قوما نسوا يوم الحساب إلا عبدوا حظوظهم وشهواتهم، وأزلتهم الأهواء وأوبقتهم الحظوظ، وأفسدوا في الأرض فأهلكوا أنفسهم وغيرهم بما نسوا يوم الحساب ﴿اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومآواكم النار وما لكم من ناصرين﴾⁽²⁾.

الدار الآخرة

الدار الآخرة هي النشأة الآخرة التي أعدها الله تعالى لإظهار الفضل الحقيقي والرحمة الحقيقية الخالصتين من شوائب القهر والانتقام والجبروت، فإن كل فضل في الدنيا

(1) سورة ص - آية 24

(2) سورة المجاثية - آية 34

ورحمة لا بد وأن يكونا مشوبين بعناء وبلاء وشدة ومجاهدة للنفس، أما النعيم والبهجة واللذة في الدار الآخرة بمعناها الحقيقي لا يمكن أن يتصورها العقل ولا أن يتخيله الخيال إلا بنسبة نعيم الدنيا ومهجتها العقلين ولدتها وسعادتها الحسينين، وبين تلك المعاني بون شاسع وبعد عظيم لا يمكن أن يدرك حقيقة إلا بالمشاهدة والحس. ومن أين للعقل أن يتعقل الغيب عنه إلا بنسبة ما، أو للحس أن يدرك حقيقة إلا بقدر ما ؟ فالدار الآخرة ملاذها العقلية فوق كل ما يدركه العقل من الملاذ في تلك الدار الدنيا، وملاذها الحسية فوق ما يدرك الحس من ملاذ الدنيا، وقد تنكشف الحقيقة بوجه ما لأهل الصدق فتلوح لهم ملاذ الدنيا بالنسبة لملاذ الآخرة كمثال رجل شرب الخمرة حتى فقد شعوره، ثم دعاه داعي الشهوة فخرج يطلب شهوة النكاح فوقع به السكر على مقبرة مشيدة بما قبر كالحجرة به نساء دفن من أيام عليهن الحلبي والزينة، وبجوارهن نور كعادة أهل زمنه، فتخيل له من السكر أنه أجمل نساء العالم، وأنهن من بنات الملوك خرجن لتغير الهواء في تلك الغيضة، فأتي أجملهن لباسا وكان في أكمل لذة وأعظم بهجة يشكر حظه ويثني على بخته، وتناول من خمر بجوار الموتى فزاد سكره حتى قهره النوم فالتقى بجوارهن حتى أصبح فوجد ثيابه ملطخة بالقيح والصدئ وتحقق من سوء عمله، فاستقذر العمل وكرهه كراهة شديدة لما يسمع عليه من بهجة النساء وزينتهن، فكذلك حال لذة الدنيا بالنسبة للآخرة لمن انكشفت له ولو بتصديق الخبر عنها تصديقا متناسبا بالنسبة للذة الدنيا، هي كجيفة تلذذ بها الإنسان مسرورا بلذته فرحا مجذوبة، فإن تنبه من غفلته نفر منها نفور الحليم من حماقة والشجاع من الجبن والتقي من الكبائر، وزهدا زهدا حقيقيا وجعل ميله إليها للضرورة التي لا بد منها، كما يستريح المسافر على قلل الجبال وفي غابات السباع لعلبة نومه وشدة تعب ليقوي على السفر، حتى إذا وصل موطن الإقامة ومنزلة الكرامة زال عناؤه وكأنه لم ينصب.

فالدار الآخرة هي الدار التي يتحقق العاقل البصير أنه لا بد أن يرجع إليها، ويفهم من الآيات الظاهرة في الكون والحكمة المشرقة في نفسه وفي الآفاق أنه لا بد من نشأة

أخرى تكون في الآيات، وتظهر فيها الحكمة الخفية من هذه النشأة الأولى. الدار الآخرة يظهر فيها عدل الحكم العدل بحقيقته ومعناه، وقهر الحكيم القاهر وعزة العزيز القوي، فيحاسب الناس على نعم لا تحصى ومنن لا تستقصى، فمن وفقه فوفى أكرمه بحقيقة الإكرام، ومن أضله سبحانه - ولا يسأل عما يفعل - فخالف ربه وعصى أمره وعمل عمل المكذبين أوردته موارد غضبه، وأبعده عن منازل رحمته، وأشهده قدر النعمة عليه والعقوبة على كفره وجحوده، نعوذ بالله من غضبه وسخطه، وأسأله سبحانه وتعالى التوفيق لما يجب من القول والعمل والعلم.

لذات الدار الآخرة

لما كانت اللذة هي نيل وإدراك ما هو ملائم وخير في الحقيقة ونفس الأمر، ولا يكون النيل إلا بالحس، والإدراك لا يكون إلا بانكشاف الحقيقة إنكشافا حقيقيا يفيد علم اليقين بمنافعها ومزاياها، فالإدراك بالنفس الناطقة، والنيل للنفس الشهوية والسبعية، وقد تتفاوت الملاذ بحسب صفاء النفس وتوازن القوى المكونة للإنسان، فقد يكون إدراك اللذة هو عين اللذة عند أهل النفوس الكاملة، وتنحط اللذة الأخرى التي هي نيل بالحس في جانب الملاذ النفسانية، ولكن لا تكون اللذة لذة حقيقية إلا إذا توفر فيها الإدراك والنيل، كما هو صريح القرآن الكريم من أن لذة الدار الآخرة، تشترك فيها النفس والأعضاء، فهي ملاذ معنوية وحسية، وإن كان بعض الكتب السماوية لم يبنه على الملاذ الحسية في الدار الآخرة الأمر الذي جعل بعض من لم تقع بهم عين البصيرة على حقيقة العلم، ولم يذوقوا حلاوة الحكمة في تكوين الإنسان وتركيبه من النفوس، ينكرون أن النشأة الأولى هي صورة النشأة الأخرى، وأن الملاذ في الدنيا هي أمثال لملاذ الدار الآخرة ليرتقى من المثل إلى الحقيقة ومن الوسيلة إلى المقصد، وقد توسع كثير ممن لم تنفذ أشعة أنوار قلوبهم من ستائر أوهامهم فتخيلوا صحة آراء القائلين بهذا المذهب جهلا منهم، ولو أنهم جاهدوا أنفسهم وطهرت لعلمهم الله علم ما لم يعلموا بالعمل بما علموا، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا {9}﴾ وقد خاب

من دساها»⁽¹⁾ وهل شرف الإنسان وبلغ من الكمال ما به أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم إلا بعد أن نفخ الله الروح في جسده فصار بالجسد مظهرا كاملا لآيات الحق سبحانه وعالما صغيرا انطوي فيه العالم الأكبر ؟ فالإنسان لا يطلق على النفس المجردة ولا على الجسم المجرد من النفس، فما بقي إلا أن نعتقد حق الاعتقاد أن الذي يعذب ويثاب هو الانسان بمعناه ومبناه، إذ لا يطلق إنسان إلا على تلك الحقيقة المركبة من الجسم والنفوس، والقائل بأن النعيم أو العقاب إنما يكون على النفس فذلك جهل بعجائب القدرة وغرائب الحكمة وحبس لنور الفكر الكامل أن ينفذ من أقطار الأوهام، أو يسبح في لطائف الحكمة، ودقائق الآيات، والله سبحانه وتعالى يشرح لتلقي الحكمة صدورنا ويشهدنا ما به تطمئن قلوبنا إنه مجيب الدعاء.

أنواع ملاذ الآخرة

قد بشرنا الله على لسان نبيه وفي تنزيله أنه سبحانه أعد لنا جنانا تجري من تحتها الأنهار، ومسكن طيبة، ومطاعم من أشهى وألذ ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين، وحوارا مقصورات في الخيام كأنهن اللؤلؤ والمرجان، وولدانا مخلدين يطوفون بأكواب وأباريق كأنهن اللؤلؤ المنتور، وأنهارا من ماء آسن، ومن لبن لم يتغير طعمه، ومن خمر لذة للشاربين ومن غسل مصفى، وبهجة وسرورا ونضرة وحبورا، وفوق ذلك من مقامات الكرامة ومنازل الحظوة مالا تفي العبارة بكشفه، وفوق ذلك رضوان الله الأكبر، والتنعم بمشاهدة وجهه الكريم، والفوز بمنزلاته في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

(1) سورة الشمس - آية 9-1

تلك الأنواع منها ما هو للجسم ومنها ما هو للنفس. وللنفس ملاذ أخرى كما قال ﴿فِيهَا مَا لَا عَيْن رَأَتْ وَلَا أذُن سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ﴾⁽¹⁾ كل ذلك فضل من الله وإحسان عظيم منه جلت قدرته. فالواجب علينا أن نعقد قلوبنا على التصديق بيوم الحساب، ونجمع بين الخوف من عدل الحكيم القادر والطمع في فضل المحسن الوهاب، ونعتقد أنه يكون للجسم والروح معا، وأن الذي أنشأ النشأة الأولى هو سبحانه وتعالى الذي ينشئ النشأة الآخرة، بل هي أهون عليه سبحانه.

و العقل إذا فهم الفرق بين مرتبة واجب الوجود وفعله سبحانه وأنه ليس كمثلته شيء ذاتا واسما وصفة وفعلا وبين ممكن الوجود، ولم يجعل ميزانا ينسب به عمل الواجب للممكن، أو يرى الواجب محكوما عليه كما يرى الممكن، لكان النظري بدهيا لديه والغيب مشهودا له والآيات واضحة جلية، ولكن جهل الإنسان بنفسه أذاه إلى جهله بربه ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ﴾⁽²⁾ ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾⁽³⁾ وقد شرح القرآن الكريم وبين الصادق الأمين ﴿صَلَّى﴾ أنواع السعادات في الدرا الآخرة وطرق نوالها، وأنواع العقوبات وحصون التوقي منها، وما على العاقل سليم القلب إلا أن يتلو القرآن تلاوة متدبر، ويقرأ كلام رسول الله ﴿صَلَّى﴾ قراءة متأمل، فتتكشف له الأسرار ويمحي عن قلبه الرين ويفك القفل عنه ويزول من الأذن الوقر، لتشرق أنوار البصيرة فتشاهد عوالم الملكوت الأعلى، لترى الجنة ونعيمها والنار وجحيمها علم يقين، فيفر إلى الله مسلما ويقبل عليه فيفوز بالمغفرة والعفو والسعادة والرضوان.

⁽¹⁾ أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، وبدء الخلق، والتفسير، ومسلم في الإيمان، والترمذي في الجنة وفي كتاب التفسير، وابن ماجه في الزهد، وأبو داود في الرق، وأحمد في المسند 313/2، 37،

⁽²⁾ سورة عبس - آية 17

⁽³⁾ سورة الحشر - آية 19

الفصل الثاني الواجب لرسول الله ﷺ

حكمة إرسال الرسل:

اللهم اعصمني بحفظك يا حفيظ، فإني أتوسل إلى جنابك العلي بحبيبك ومصطفاك سيدنا ومولانا مُحَمَّد ﷺ أن تمدني بروح منك ونور يستبين لي به الحق، وتنكشف تلك الأسرار، حتى أتمكن بحولك وقوتك سبحانه وتوفيقك ومعونتك أن أفهم الحكمة والفضل والرحمة والنعمة التي أكرمتنا بها ببعثة رسلك عليهم الصلاة والسلام، وأدرك عظيم منتك علينا بالرحمة العظمى والوسيلة العظمى سيدنا ومولانا مُحَمَّد ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم آمين.

قبل أن أبين الواجب علينا لرسول الله ﷺ أفتح الموضوع بحكمة إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام.

إن الله ذو الفضل العظيم تقდست ذاته وتنزهت أسماؤه وصفاته، جعل الإنسان عالماً وسطاً بين عوالم الملك والملكوت، ومنحه سبحانه من مواهب إحسانه ولطائف آياته وبديع أسراره ما جعله جامعاً لكل معاني الكائنات، فجمع فيه سبحانه معاني الجمادات والنباتات والحيوانات والملائكة المقربين، وأودع فيه سبحانه قوى نفوس كل رتبة من مراتب الوجود، فهو كما قررنا في تعريف الإنسان فيما سبق من الكتب (أساس الطريق) ملك وأكمل. وشيطان وأفجر. وحيوان وأجرأ. وقد جعله الله تعالى أكثر احتياجاً من كل الأنواع الأخرى، وأضعف جسماً منها، بحيث لا يمكن أن يقوم ببعض ضرورياته منفرداً إلا بمعاونة لمعاوضة تؤدي إلى معارضة، ولما كانت الحكمة الإلهية قضت أن يكون الإنسان بحيث يتصرف التصرف المطلق في جميع الأنواع الأخرى بما تفضل الله به عليه من العقل والإدراك والفكر والروية وكانت ضرورياته -

مع ما سلط عليه من دواعي الحظ والهوى - تدفعه إلى الاستئثار بالملائم له، تارة لما فيه من القوة الحيوانية، وآونة لما فيه من القوة الإبلسية، فإذا تمكنت تلك البواعث على أفراد الإنسان حرم سعادة الدنيا والآخرة، وكانت حياته في الدنيا حياة الوحوش المفترسة بالنسبة للأقوياء، والحيوانات الداجنة بالنسبة للضعفاء، ففضل الله - وهو ذو الفضل العظيم فضلا منه لاجوبا عليه - كما تفضل على الإنسان بمواهبه العلية، وكما سخر له ما في السموات وما في الأرض جميعا من فضله، فأرسل الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وأيدهم بالمعجزة الباهرة، وأنزل عليهم حقائق التوحيد، وحقيقة العدل في المعاملة، وأحكام العبادة، ونوع العبادات: منها ما يكرر يوميا كالصلوات لدوام استحضر المنعم المتفضل وشكره وتعظيمه وإشعار القلب بجلاله، ثم أنه سبحانه وتعالى بين أن المطيع - مع ما يناله من سعادة الدنيا لقيامه بأحكام الشريعة - يفوز بنعيم مقيم يوم القيامة فضلا منه وكرما، وأن المخالف للرسل عليهم الصلاة والسلام العاصي - مع ما يناله من الشقاء في الدنيا - يعذب في نار جهنم عقوبة له، وبين سبحانه حقيقة المعاملة والحقوق فشمّل العدل جميع الخلق من بني الإنسان وغيرهم بتنفيذ أحكام الله سبحانه وتعالى والعمل بوصايا رسله عليهم الصلاة والسلام.

فمن نظر إلى تلك الحكمة، وأقبل مسلما لله وجهه منيبا إليه سبحانه وتعالى ظهر له فضل الله العظيم ورحمته الحقيقية لسعادة بني الإنسان ونعمته العظمى سبحانه وتعالى على الإنسان بالبهجة الحقيقية، واللذة يوم الحساب فسبحان ذي الفضل العظيم الحكيم الرحيم المنعم.

نعمة الله علينا ورحمته بالمصطفى ﷺ :

فالله سبحانه وتعالى ظهر بحكمته وفضله ورحمته ونعمته ومنتته في ذات سيدنا ومولانا محمد ﷺ، فأنعم علينا برسوله ﷺ على فترة من الرسل.

أنقذنا الله تعالى به من الضلالة إلى الهدى ومن الكفر إلى الإيمان، قال سبحانه وتعالى: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) ⁽¹⁾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ ⁽²⁾.

و قال سبحانه: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ ⁽³⁾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾ ⁽⁴⁾ وقال سبحانه: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا {45} وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا {46} وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا {45} وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا {46} وبشر المؤمنين بأن لهم

⁽¹⁾ سورة الصف - آية 9

⁽²⁾ سورة آل عمران - آية 164

⁽³⁾ سورة التوبة - آية 128

⁽⁴⁾ سورة آل عمران - آية 13

⁽⁵⁾ سورة الأحزاب آية 45-47

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾⁽¹⁾ وقال الله تعالى: ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾⁽²⁾ وقال تعالى: ﴿ وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها ﴾⁽³⁾ أي نعمته علينا بسيدنا محمد ﷺ.

و بسند الإمام البخاري عن عطاء بن يسار قال: (لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ﴾ وحرزا للأمينين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الله الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا⁽⁴⁾ وذكر مثله عن عبد الله بن سلام وكعب الأحمار وفي بعض طرقه عن ابن اسحاق: ﴿ ولا صخب في الأسواق، ولا متزين بالفحش، ولا قوال للخنا، أسدده لكل جميل وأهب له كل خلق كريم وأجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة معقوله، والصدق والوفا طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، اهدي به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأسمي به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة، وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين قلوب مختلفة وأهواء متشتتة وأمم متفرقة، وأجعل أمة خير أمة أخرجت للناس ﴾. وفي حديث آخر أخبرنا رسول الله ﷺ عن صفته في التوراة: ﴿ عبدي أحمد المختار ن مولده بمكة ومهاجره بالمدينة - وفي رواية: طيبة - أمته الحمادون لله على كل حال ﴾⁽⁵⁾.

(1) سورة الأنبياء - آية 17

(2) سورة المائدة - آية 15

(3) سورة إبراهيم - آية 34

(4) أخرجه البخاري في كتاب البيوع وأحمد 174/2 و البخاري بشرح الكرماني 17/1

(5) رواه الدارمي في المقدمة

و قال تعالى: (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي) (1) الآية، وقد قال تعالى: (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب) (2).

هذا وقد نهىنا الله تعالى لمننه علينا بحبيبه وخاتم رسله سيدنا ومولانا مُحَمَّد، حيث جعله رحمة عامة للمؤمنين رءوفا بهم ﷺ، لين الجانب سمحا سهلا طلقا برا لطيفا، وجعلنا إكراما له ﷺ شهداء على الناس يوم القيامة، فكنا أمة وسطا وخير أمة أخرجت للناس إكراما لحضرته وتعظيمه لشأنه، جمعنا الله به ﷺ بعد التفرقة، وهدانا به بعد الضلالة وأنفدنا سبحانه وتعالى به ﷺ من شفا جرف هار في نار جهنم، فأصبحنا- بنعمة الله علينا بسيدنا و مولانا مُحَمَّد ﷺ - إخوانا متحابين، كأننا جسم واحد أو نفس واحدة في أعضاء متعددة كل فرد لكل فرد ككل عضو لكل عضو. فسبحان ذي الفضل العظيم.

ظهرت تلك الحقيقة بلا مرأى جلية لمن علموا وعملوا فكانوا خلفاء الله في أرضه، أخضع لهم من خالفهم وأذل لهم من عارضهم، مكنهم الله سبحانه وتعالى في الأرض بالحق، ومن عليهم رضوان الله عليهم بما من به على أنبيائه من الفرقان والعرفان والقرب والمشاهدة واليقين، عملوا لله فعمل الله لهم، تحققوا بمعية الله سبحانه، فكان الله سبحانه معهم، ومن كان الله معه لا تدري نفس مقدار ما يمن به عليه، وما انحرف قوم من المسلمين عن صراطه المستقيم وطريقه القويم إلا أذاقهم الله لباس الجوع والخوف ومكن منهم عدوهم وأذلهم. أعوذ بوجه الله الكريم من مخالفة سيدنا ومولانا مُحَمَّد ﷺ.

(2) سورة الأعراف - آية 157

(3) سورة آل عمران - آية 159

أنواع الواجب علينا لرسول الله ﷺ:

الحمد لله ثبتت دلائل النبوة، وقامت الحجة العقلية على حقيقة رسالته ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم وشهدت العيون والقلوب على ما تيقنته من صحة تصديقه، ولست في مقام إثبات دلائل الرسالة وسرد الأدلة وشرح المعجزة، لأن ذلك أمر اعترف به العدو والصديق والمسلم والكافر إذا ألقى السمع وهو شهيد، إلا من قطعهم العناد عن شهود تلك الشمس المشرقة في الأفق الصحو، فما علي الآن إلا أن أبين الواجب علي وعلى كل فرد مسلم، وتنحصر أنواع الواجب علينا في تصديقه واتباعه في سنته، وطاعته ومحبته ومناصحته وتوقيره وبره، وفي حكم الصلاة والتسليم عليه ﷺ، وزيارة قبره ﷺ، والمودة في قرابته ﷺ.

1- وجوب التصديق والطاعة والإتباع:

بدهي أن الخير مقصود لكل عاقل وأن الشر عدو كل عاقل، وتحقق أن الخير والسعادة والفلاح في الدنيا والآخرة لا تنال إلا بطلبها من وجوهها الحقيقية، وتقرر أن سيدنا ومولانا محمد هو رسول الله حقا، وشهدنا أنه الرحمة العظمى الرؤوف الرحيم بنا، واعترفت العقول السليمة بذلك، وشهدنا بالحس في هذه الدنيا أن مخالفته والعمل بغير وصاياه سبب في شقاء الدنيا وفساد المجتمع الفاضل وهلاك الفرد المخالف، فالواجب علينا - قياما بالواجب لأنفسنا، لأن الله سبحانه وتعالى غني عن العالمين ورسوله ﷺ - عدو للكافرين والفاسقين والجرمين - أن نصدق سيدنا ومولانا محمد ﷺ تصديقا يبلغ من اليقين أن نعتقد انه هو الرحمة الحقيقية لنا والسعادة الحقيقية لنا، وأن وصاياه لم تكن إلا لخيرنا الحقيقي الذي هو مقصود العقلاء، وبه لذة الحياة الدنيا والآخرة، بحيث نتحقق أن مخالفته ﷺ شقاء لأبداننا وذلل لنا، وعذاب لأرواحنا وهلاك لمجموعتنا وذهاب لريحنا وفشل لنا.

و يجب علينا أن نطيعه ﷺ إطاعة عن تبصرة، متحققين أن طاعته ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم نجاة الأبدان وسعادة الأرواح، وبها العز في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة، بحيث أن نجاهد أنفسنا الجهاد الأكبر في لزوم طاعته ﷺ والعمل بوصاياه حتى تلين، ولو أن ذلك أدى إلى مالا يلائم النفس، بل ولو أدى إلى ذهابها أو ذهاب المال والجاه، كل ذلك ييقين حق ولذة وسرور وفرح وأنس، حتى تلين النفس وتنقاد لسنته وتتلاذذ بعمل أوامره، وتستوحش من كل مخالفة في صغيرة أو كبيرة.

و يجب علينا أن نحبه ﷺ حبا أشد من حبنا لأنفسنا وأموالنا وأولادنا: حبا يجعلنا نحافظ على سنته ونحبي كلمته، ونتفانى في ذلك منافسة في نوال أعلي درجات المحبة فيه ﷺ لأننا بذلك نفوز بحقيقة الكمالات وننال أرفع منازل الوصال، لأننا نجبن له ﷺ أحببنا أنفسنا، لأننا بمحبته ﷺ المحبة التي تجعلنا نعتقد أنه أولى بنا من أنفسنا وأرحم بنا منها وأرأف وأشفق وأعلم بخيرنا منا، مع ما كان عليه ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم من الخلق العظيم والعاطفة الحقيقية والحكمة البالغة في إظهار الحق لنا، ودعوتنا للسعادة الحقيقية، وما تحمله ﷺ في سبيل نجاتنا وخلصنا حتى عاتبه الله سبحانه وتعالى عتابا شديدا بقوله سبحانه وتعالى: (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) ⁽¹⁾ وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضا﴾ ⁽²⁾ وقوله سبحانه وتعالى ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ ⁽³⁾ وقوله سبحانه وتعالى: (إن عليك إلا البلاغ) ⁽⁴⁾ وقد تحققنا يقينا سنة الله في الرسل قبله ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم بالتواتر، أن بعضهم دعا على قومه فأهلكهم الله بالطوفان، وآخرين

⁽¹⁾ سورة فاطر - آية 8

⁽²⁾ سورة النحل - آية 37

⁽³⁾ سورة آل عمران آية 159

⁽⁴⁾ سورة الشوري - آية 48

أغرقهم في اليم، ومن الأمم من خسفت بهم الأرض، ومنهم من مسحوا قردة وخنازير، ومنهم من أهلكتهم بالسنين، ولم يتحمل نبي من قومه ما تحمله ﷺ من قومه، فكان ﷺ إذا اشتد به الأمر قال: (رب اهد قومي فإنهم لا يعلمون) فأى عقل سليم ونفس زكية تتمثل ما أنعم الله به علينا بهذا الحبيب الأكبر ﷺ ولا تتأله حبا في ذاته ﷺ، وعشقا في أخلاقه ﷺ، ومحافظة على سنته ﷺ؟ فالسعيد حقا من منحه الله جزيل مننه وعظيم نعمته حتى تمثل هذا السيد ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم وعلم بعض ما من الله به علينا، فأنزله ﷺ في أعلى المراتب من الحب والتعظيم، وقام مجاهدا نفسه في العمل بسنته ﷺ هذا من حيث كمالته ﷺ فكيف إذا تمثلنا ما ننال به من السعادة ﷺ وما يبلغ به من درجة الكمال في النعيم الجسماني والسعادة الروحانية؟ ذلك يجعلنا نجعل محبته ﷺ فوق محبتنا لأنفسنا، ونجعل اتباع سنته ﷺ أولى من لذتنا وحظنا، نعم قد انكشفت تلك الحقيقية وتجلت لمن من الله عليه بنوره من العقل الذي يعقل عن الحق سبحانه أحكامه وحكمه، وعن رسوله ﷺ وصاياه وإرشاداته، وقدر رأفته بنا وحنانته ورحمته بنا

ﷺ وإن حجب الحقيقة حجاب الحظ والهوى عن أناسي طالت نومة غفلتهم وركدة جهالتهم ممن رضوا بالحياة الدنيا وأطمأنوا بها، فإن هؤلاء ليسوا من بني الإنسان وإن كانوا على صورة الإنسان، قال تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (1) وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمَهَادِيَ الْعَمِيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ (2) وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَذَرِهِمْ يَخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾ (3).

(1) سورة الفرقان - آية 44

(2) سورة الروم - آية 53

(3) سورة المعارج آية 42

هذا وإن من بعض بني الإنسان من هم على صورة الإنسان وهم شياطين على صورة الإنسان، وهم أهل النفوس الخبيثة المطبوعة على الجحود والإنكار والتشكك والريب والحسد، وهم أهل الجدل المارقين عن الحق، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة لا يبصرون إلا في ظلمة الضلالة ولا يفقهون إلا في ليل الغواية، ولا يسمعون إلا من قرين السوء وداعي الفساد، كالحفاش لا يبصر الشمس ضحوة في السماء الصافية، ولا يصدق بوجودها ولو أقاموا له ألف حجة ودليل، لم يكن ذلك لأن الشمس محجوبة عن الأبصار بل لأنه لا يبصر إلا في الظلام وليس الحفاش حجة لبقية الطيور على أن الشمس ليست موجودة فكيف يكون موتى القلوب حجة لأهل العقول السليمة على ما حرموه من النور؟ فلم يبق لعاقل إلا أن يشكر الله على ما أكرمه به من النور، ووقفه له من العلم والعمل، ومن به عليه من الإيمان والإسلام.

إذا تقرر ذلك فالواجب على كل من من الله عليه بالإسلام أن يتديء بتلقي ما أوجبه الله عليه من العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق، ويتعلم سنن رسول الله ﷺ في كل قول وعمل وحال، وأخلاقه ﷺ من الصبر والرضا والصدق والأمانة والرحمة والرأفة والحرص على سعادة الخلق أجمعين، والتواضع والتوكل والشجاعة والنجدة والإقدام والبر والصلة والفضيلة والمروءة والعفة والحكمة والمدارة والعتو والبشاشة والغضب والانتقام والإكرام بحسب مناسبات كل وقت ومقتضياته، فيغضب حيث يغضب رسول الله ﷺ ويرضى حيث يرضى، وينتقم حيث ينتقم، ويعفو حيث يعفو حتى يكون عاملا في سنة رسول الله ﷺ متخلقا بأخلاقه مشابها له ﷺ، فإذا كملت تلك المعاني علما بمعونة الله، وقام بها عملا بتوفيق الله سبحانه وتعالى، تحقق العبد بكمال الطاعة لرسول الله ﷺ، والمحبة له ﷺ والبر والمودة لأقاربه ﷺ وبالصلاة عليه ﷺ، حتى يكون كاملا في كل تلك المعاني ويكون من أهل معيته ﷺ الذين وصفهم الله تعالى في آخر الفتح ولو كان في القرن الرابع عشر من الهجرة أو أكثر منه.

2- وجوب تعلم آدابه ﷺ:

وجوب تعليم آدابه:.

و من الواجب علينا لجنابه ﷺ أن نتعلم آدابه ﷺ التي أدبه الله تعالى بها في نفسه ﷺ ومع أهله وجيرانه وأهل المدينة والوفود. وآدابه ﷺ في التعليم والصلح والإصلاح والأكل والشرب والنوم والمجالسة والمعاشرة والنصيحة والموعظة. وآدابه مع أهل الفضل والنسب والحسب. وآدابه ﷺ مع الفقراء والمرضى. وآدابه في غزواته ولباسه ومشيه وخصوصا في صلاته وصيامه وحجه ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم ﷺ وفي حال معيشته، بل وفي كل ما يحب ويكره نتعلم ذلك كله من طريقه الصحيحة وأسانيده الحسنة، ونجاهد أنفسنا الجهاد الأكبر أن نتشبه به ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم ﷺ. ونسارع إلى التوبة إن قهرتنا على عمل في غير سنة واضحة ومحجة بيّنة، وليس على السنة من علم بعض الدين وعمل به وترك العلم بما لا بد له منه، فبعض الناس ممن يجتهدون في تعلم أركان الإسلام ويجهلون بقية شعبه ويظنون أنهم يحسنون صنعا، فيجهلون علوم الأخلاق والمعاملة التي هي الدين ويحسبون أنهم تكملوا في الإسلام، وبينه وبينهم مراحل.

و لا أخالك أيها القاريء تظن أي أحتم عليك أن تتعلم أصول الدين وفروعه مما لا بد لك منه وما لا حاجة لك إليه، فأقول لك إني لا أعني أن تتعلم طرق الاختلاف وأصول الاستنباط وعلم الفصل في القضايا والإفتاء والمواريث وتدبير الجيوش والولايات، فإن ذلك خاص بمن تعين عليه، ولكنك أيها القاريء على يقين أنك لا بد لك من معاملة تجب عليك لوالديك وإخوانك وأهلك وأولادك وجيرانك والصناع والتجار والزراع والعمال، فيجب عليك أن تتعلم الأحكام الشرعية التي يمكنك بها أن تبر والديك وتصل رحمك وتحسن معاشرة أهلك وأولادك ومعاملة

جيرانك وخدمك، بحيث لو جهلت ذلك لعملت في غير سنة وكنت على غير هدى،
ودخل عليك الحرام من حيث لا تشعر، ووقعت فيما يغضب من حيث لا تعلم.

طاعة رسول الله عين طاعة الحق سبحانه:

فالواجب علينا جميعا لرسول الله ﷺ أن نجعل كل أعمالنا مؤسسة على السنة
قياما بالحقوق الواجبة علينا لجنابه ﷺ وبالحقوق الواجبة علينا لأنفسنا حتى نبلغ
غاية الكمال الذى أهلنا له، وإلا فنكون أهلكتنا أنفسنا بجهلنا، قال الله تعالى في
وجوب الإيمان به وفرض طاعته واتباع سنته: ﴿فَأْمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورَ الَّذِي أَنْزَلْنَا
﴿ (1) وقال سبحانه: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (2)
وقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَأْمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ﴾ (3) وقال سبحانه وتعالى:
﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴾ (4) وقال سبحانه وتعالى: (وإن تطيعوه
تتدوا) ﴿ (5) وقال سبحانه وتعالى: ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ (6) وقال
تعالى: ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ (7) وقال سبحانه
وتعالى: ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك.. الآية ﴾ (8) وقال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من
رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾ (9).

(1) سورة التغابن - آية 8

(2) سورة الفتح - آية 8-9

(3) سورة الأعراف - آية 158

(4) سورة آل عمران - آية 132

(5) سورة النور - آية 54

(6) سورة - النساء - آية 8

(7) سورة الحشر - آية 7

(8) سورة النساء - آية 69

(9) سورة النساء - آية 64

يظهر من صريح تلك الآيات أن الله تقدست ذاته جعل طاعة رسوله ﷺ عين طاعته، وقرن طاعته سبحانه بطاعته، ووعد جل ذكره على ذلك بجزيل الثواب، وأنذر من خالف سوء العقاب، وأوجب امتثال أمره واجتناب نهيهِ ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم. وأجمع المفسرون والأئمة على أن طاعة الرسول ﷺ تتحقق في التزام السنة والتسليم لما جاء به. سئل سهل بن عبد الله عن شرائع الإسلام فقال بسند البخاري عن أبي هريرة رضي الله تبارك عنه يقول: إن رسول الله ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم قال: ﴿ من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعني، ومن عصى أميرى فقد عصاني ﴾ (1) هذا وقد ورد في القرآن الكريم أن الكفار وهم في الحطمة: ﴿ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولاً ﴾ (2) فتمنوا طاعته ﷺ وقال ﷺ: ﴿ إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ﴾.

و في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: ﴿ كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا ومن أبى؟ قال من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى ﴾ (3) وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ: ﴿ مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوما فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه فـأـدـلـجـوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فدهمهم الجيش فأهلكم واجتاحهم، فذلك مثل

(1) أخرجه البخاري في باب الاعتصام. والجهاد، والأحكام، ومسلم في باب الإمارة، والنسائي في باب البيعة، وابن ماجه في المقدمة والجهاد، وأحمد في المسند.

(2) سورة الأحزاب - آية 66

(3) أخرجه البخاري في باب الاعتصام، وأحمد في المسند 2 / 361

(4) أخرجه البخاري في كتاب الرق، والاعتصام، ومسلم في الفضائل

من أطاعني واتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق ﴿١﴾ وفي الحديث الآخر: ﴿٢﴾ مثله كمثل من بني دارا وجعل فيها مأدبة وبعث داعبا، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة، فالمدار الجنة والداعي مُجَد ﴿٣﴾ فمن أطاع مُجدا فقد أطاع الله، ومن عصى مُجدا فقد عصى الله، ومُجَد فرق بين الناس ﴿٤﴾.

3- وجوب إتباعه والإقتداء بهديه والعمل بسنته ﴿٥﴾:

قال الله تعالى: ﴿٦﴾ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴿٧﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿٨﴾ فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴿٩﴾. وقال الله تعالى: ﴿١٠﴾ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴿١١﴾ أي ينقادوا لحكمك. قال تعالى: ﴿١٢﴾ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴿١٣﴾ عن الترمذي: الأسوة في الرسول الاقتداء به والاتباع لسنته وترك مخالفته في قول أو فعل، وقال غير واحد من المفسرين بمعناه، وقيل هو عتاب للمتخلفين عنه تلك الآيات القرآنية الشريفة حليلة الوضوح بينة المعنى، دالة على أنه ﴿١٤﴾ النور الحقيقي المضيء لسبل الله، والصرط المستقيم إلى حضرة

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام والترمذي في الاداب والدارمي في المقدمة

(٢) سورة آل عمران - آية 31

(٣) سورة الأعراف - آية 158

(٤) سورة النساء آية 65

(٥) سورة الحزاب - آية 21

القدس، وأن أعماله ﴿ﷺ﴾، وأحواله وأقواله ووصاياه هي المعارج التي تعرج عليها الأشباح والأرواح إلى حظائر الملكوت الأعلى ولو أن العقل ترك وشأنه متجردا من كل حظ يكسف نوره، وهوى يطمث بصيرته لانكشفت له حقيقة السعادة في تلك الدار الدنيا، وأكمل الخير الحقيقي في الحياة الباقية الأبدية ممثلة فيما جاء به هذا السيد، لأن وصاياه ﴿ﷺ﴾ وهدية القويم وأخلاقه الكريمة كوقاية للعالم الحي من الشرور، ومراق للنوع الإنساني إلى أكمل منازل السعادة وأجمل معاني الفضائل، كيف لا وقد قوم الأخلاق المعوجة وكشف سحب الظلمات عن شمس التوحيد، ومحا غياهب الضلال بنور الدلائل، حتى سجد العقل معترفاً، وصفى الخيال مغترفاً، ملاً القلوب السليمة حبا لذاته لأن الله صاغها من رحمة ورأفة وحنان، وليس على ذي اللب إلا المسارعة في التشبه بجنابه حتى يفوز بقسط وافر من تلك الفضائل الكاملة والمزايا الفاضلة والجزاء العظيم والنعيم المقيم، وليست النفوس اللاهية عن العمل بهدية وإن غرقت في يم الغفلة والنسيان بمنكرة هذا الفضل العظيم ولا بجاحدة هذا المقام الجليل، وربما تمثلته بصيرته فجذبتة نسمات هذا الروض الزاهر إلى الإنابة إلى الحق والنزوع عن الباطل والتجاني عن دار الغرور، وأقبلت بقلب سليم عشقا في تلك الشمائل وإعجابا بأخلاق تتعشقها الأرواح. ولسنا في صدد ذكر نبد من تلك المعاني فقد صارت كالشمس ضحوة في نهار الصيف.

4- وجوب محبته ﴿ﷺ﴾، والآيات والأحاديث الواردة في ذلك:

قال الله تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾ ⁽¹⁾ هذه الآية الشريفة نور للقلوب المستضيئة بنور اليقين، لأن الله تعالى جعل كل مؤمن يكون حبه لوالديه وأولاده

(1) سورة التوبة - آية 24

وإخوته وزوجاته وعشيرته وأمواله أكثر من حبه لرسول الله ﷺ فاسقا ضالاً، وأوعده بأن يتربص حتى يأتي أمر الله نعوذ بالله أن يكون شيء أحب إلينا من الله ورسوله.

الأحاديث الواردة في وجوب محبته ﷺ:

بسند الإمام أبي الفضل عياض عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين ﴾⁽¹⁾ وعن سيدنا أنس رضي الله عنه ﴿ ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار ﴾⁽²⁾ وعن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: ﴿ لأنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي التي بين جنبي، فقال له ﷺ: ﴿ لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ﴾ فقال عمر: والذي أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إلي من نفسي التي بين جنبي، فقال له النبي ﷺ: ﴿

الآن يا عمر ﴾.

الحب في مقام الواصلين

هذا المقام هو المقام الذي تتفاوت فيه المهمم، ويتنافس فيه المتنافسون، وما بلغ عبد مقام قرب إلا يحب لجنابه ﷺ، ويقدر ما ينكشف للعقل من معاني كمالاته عليه الصلاة والسلام، وما يشرق على القلب من أنوار أسراره تكون المحبة، فقد تبلغ

⁽¹⁾ أخرجه البخاري ومسلم في كتاب الإيمان.

⁽²⁾ أخرجه البخاري في كتب الإيمان والإكراه والأدب، ومسلم في الإيمان والنسائي في الإيمان، وابن ماجه في كتاب الفقه، وأحمد في المسند وفي رواية أخرى عند أبي داود والترمذي وابن ماجه وأحمد ((ثلاث من كن فيه وجد طعم الإيمان... الحديث))

بالعالم بكمالاته ﴿ﷺ﴾ مبلغا تتخلل المحبة جميع أعضائه حتى ينصبغ بالحق صبغة تجعله مثلا يمثل تلك المعاني، وصورة كاملة للحقيقة المحمدية، حتى يكون منطباعا على الكمال مجملا بالفضائل قولاً وخلقاً وعملاً سرا وعلانية، ولا يزال - في كل نفس - في مزيد من التجمل بتلك الأسرار، والتحلي بجلل المعاني بانكشاف حكيم الوصايا وأسرار الأحكام وحقيقة الرحمة والرأفة والحرص، وظهور خير المآل وسعادة الأبد، فيكون المحب في هذا المقام كمن انبلجت له شمس تلك الحقيقة مشرقة في أفقه فوضحت له المناهج، ورفعت عنه الستائر.

وتيقن بقدر ما فاز به من المواهب وما ظفر به من الخيرات، وتحقق جمال معاني من أمدده الله على يديه بتلك المنن، فكانت ذاته محبوبه لكمالاتها الذاتية، ووصاياه وتعاليمه، محبوبه يسارع في التجمل بما لما يناله من الفضل والرضوان وهو مقام الواصلين.

الحب في مقام السالكين:

السالك هو من علم زوال الدنيا وبقاء تبعاتها وتيقن بيوم الحساب، وتحقق أن طريق النجاة من أهوال القيامة هو المحافظة على سنة سيدنا ومولانا محمد ﴿ﷺ﴾، وتبين بنور العلم أنه ﴿ﷺ﴾ الواسطة العظمى للوصول إلى النعيم المقيم، فعشقه ﴿ﷺ﴾ صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ﷺ﴾ لما ظهر له أنه سر النجاة وباب الفلاح والسعادة عشقا جعله عاملا بالسنة محافظا عليها، متحققا أن محافظته هي عين سعاداته وفلاحه، مقبلا بقلبه وظاهره على العمل بالسنة والكتاب، محبا للعلم والعلماء ملازما مجالسهم، لأنه لا يتوصل إلى سعاداته إلا بالعمل بالسنة، والسنة لا تنكشف له إلا بصحبة العلماء، فمحبته هؤلاء محبة لنوال السعادة لأنهم يحبون سيدنا ومولانا رسول الله، لا لانكشاف كمالاته وعلم مقاماته ﴿ﷺ﴾ بل لأنه علم أن السعادة في اتباعه ﴿ﷺ﴾ فأحبه

كحب الطفل لوالديه لرؤيته الخير واصلا إليه منهما. وهذا هو الحب الذي به يبلغ المرید درجة الوصول.

الحب الذي يدعيه الأدياء:

أما الحب الذي يدعيه الأدياء ولم يتمسكوا بسنته فليس بحب. إذ المحب لمن يحب مطيع. ومن الجهلاء من يكون في قلبه حب لرسول الله ﷺ ولآل بيته الكرام، فيشغله ذكر ما من الله به على نبيه ﷺ وما أكرم به آل بيته الكرام ويترك التعلم والعلماء، ويترك العمل بالسنة تركا عن قصد، ويظن الجاهل أنه على شيء وأنه محب لرسول الله وهو في الحقيقة مدع مغرور، لأن حب رسول الله ﷺ هو التحقق بما كان عليه ﷺ والتجمل بالعلم والعمل الموافق للسنة، لأن مخالفة السنة أو جهل مالا بد منه انحراف عن الطريقة المستقيمة لأنه ليس بعد الحق إلا الضلال وليس بعد السنة إلا البدعة المضلة، فمن يدعي محبة رسول الله ﷺ أو محبة آل بيته الكرام ويترك تعلم السنة والعمل بها ويغتر بحالته يخشي عليه سوء الخاتمة والعياذ بالله تعالى. وإن بعض الجهلاء يمدعون العامة فيشغلونهم عن تعلم السنة الواجب عليهم في دين الله تعالى، ويوهمونهم أن هذا هو الطريق الموصل إلى الله تعالى وهم دعاة للشر وأبواب لجهنم، وربما جعلوا الطريق سببا في اكتساب الأموال فطلبوا الدنيا بعمل الآخرة وهم الذين لعنهم رسول الله ﷺ بقوله صلوات الله عليه: (ملعون ملعون قالوا: من يا رسول الله ؟ قال: من طلب الدنيا بعمل الآخرة).

و إنما محبة رسول الله ﷺ لا تتحقق إلا لمن عمل بسنته بعد علمه بها وأحب العلماء العاملين بها حبا لرسول الله ﷺ ولو كانوا من الأعاجم، كما أحب سيدنا الحسن بن علي سيدنا سلمان الفارسي وتلقى عنه العلم، وأحب أشرف بني هاشم بلالا وصهيبا حبا لرسول الله ﷺ، وهم آل ﷺ وآله ﷺ بنص قوله

﴿عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾: (آل مُجَدَّ كَلَّ تَقْوَى) (1) وَقَوْلُهُ
 ﴿عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾: (سَلْمَانٌ مِّنَ أَهْلِ الْبَيْتِ) وَقَوْلُهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ: (أَدْخَلَ الْإِسْلَامَ بِلَالًا
 فِي نَسَبِي وَأَخْرَجَ الْكُفْرَ أَبَا لَهَبٍ مِّنْ نَّسَبِي) فَنَسَبُهُ الْمَتَّصِلُ
 ﴿عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ هُوَ الْعِلْمُ بِسُنَّتِهِ وَالْعَمَلُ بِهَا مَعَ حَقِيقَةِ التَّقْوَى، وَبِذَلِكَ يَتَحَقَّقُ حُبُّهُ ﴿صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ﴾ بِالْمُتَّجَمِلِينَ بِتِلْكَ الْمَعَانِي.

السنة مقبولة للعقول الكاملة:

ليس على طالب الحق والفوز بالسعادة الأبدية عسر في تحصيل أحكام السنة والعمل
 بها لتيسير ذلك وسهولته على النفوس الزكية، وقبوله لدى العقول الكاملة، فإن
 أخلاقه ﴿عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ التي كان عليها وأمر بها تتهيم فيها العقول وتتعشقه الأنفس،
 والعقيدة التي أمر بها ﴿عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ يطمئن بها القلب وينشرح لها الصدر ويقبلها بالسرور كل
 عقل، والمعاملات التي رغب فيها ﴿عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ هي الأساس الذي عليه سعادة المجتمع
 الإنساني، وصفاء حياته، ورغد عيشته ودوام أنسه، لأنها تجعل المجتمع كجسم واحد
 يسعى كل عضو منه لصالح الجميع.

و لولا أني لم أكن في مقام بيان السنن - إذ ذلك قد وضحته في كتاب: (أصول
 الوصول) وغيره من الكتب لذكرت نموذجاً من ذلك. والحمد لله، فإن وصايا
 ﴿عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ سوت بين بني الإنسان في المعاملة حتى صار العدل شاملاً كل فرد من
 الأفراد، والفضل عاماً للجميع، مع ما بينه ﴿عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ من حكم المعاملات وأسرارها
 لسعادة الدنيا والآخرة، وما أوجبه ﴿عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ على كل مسلم من الأعمال التي بها
 حفظ صحته وماله وأهله حتى كان المخالف للسنة ينحط عن رتبة الإنسانية، وينزل
 إلى مرتبة الوحوش الضارية، لأنه بمخالفته للسنة برهن على فساد فكره وفقد عقله،

(1) عند أبي داود في كتاب الفتن بلفظ: ((وإنما أوليائي المتقون)) وعند أحمد بلفظ: ((إن أولى
 الناس بي المتقون)). المسند 5/235.

وكيف لا وقد ترك الخير المحسوس إلى الشر المحسوس ولا يفعل ذلك البهيم الأعجم. كل ذلك واضح جلي حتى للصبيان، فترى الصبي إذا فعل ما يخالف السنة اجتهد أن يخفيه وأنكره ونفاه عن نفسه لعلمه أن ذلك قبيح لا يليق بالإنسان، فكيف برجل بالغ كامل عقله وتوفرت صحته يخالف السنة ويكون إنسانا حقيقة ؟

و ربما يعترض علي معترض قائلا: إنا نرى كثيرا من أهل العقل والفكر يخالفون السنة أو يكفرون بالله تعالى وبرسوله ﷺ، فأجيبه أن دعوى (أن عاقلا يخالف السنة أو يجحد الحكيم الخالق الصانع أو الداعي إلى الخير) لا حجة لك عليها، فإن العقل إذا قامت له الأدلة ووضحت له الحجة وتبين له المقصود سجد متقبلا واعتقد جازما . وأما من ادعت أنهم عقلاء فإن كان مجرد علمهم بجلب الدنيا وتفننهم في استخدام الآثار الكونية وقيامهم بعظائم الأمور وتأثيرهم بالقوة القاهرة دليل على عقولهم، فذلك ما لا يقول به من جملة الله بالعقل وكمله بالنهاي وأيده بنور الحجا، لأنا نرى كثيرا من أنواع الحيوانات تعمل أعمالا تعجز بني الإنسان بصناعات يجهد الإنسان نفسه في تلقيها منها. وأمامك العنكبوت وحيلها في صيد غذائها بما تصنعه من النسيج كالشبكة، والنحل في هندسة الأشكال وتنظيم مدينته وإدارة شئون مملكته ودقة صنعه وما يقدمه للإنسان، والنمل في حرصه وتنظيم مساكنه يجعل مواطن لخزن الغذاء لا يضرها السيول الجارفة ولا تغيرها رطوبة الأرض ولا يجبس عنها الهواء، والكلب في وفائه وإخلاصه وقيامه بالواجب عليه، والطيور في نظام سيرها واتحادها. ولو نظر العاقل إلى ما يقوم به بعض أنواع الحيوانات من الحكمة العملية والحرص والتدبير والتعاون لفضلناه على من تدعي أنهم عقلاء، وكيف لا وكثير من الحيوانات يفكر في مستقبله فيحرص على قوته ويعمل له مساكن للصيف والشتاء، أهذا عن عقل ؟ إنما تلك فطرة فطر الله عليها كل حي ليحفظ به حياته في المدة التي قدرها الله له.

حقيقة العقل الإنساني:

و إنما العقل الذي يعتبر أنه عقل إنساني هو العقل الذي يعقل الكمالات والفضائل، ويشهد الغائب بالمشهود، ويدرك الحكم والأحكام، ويعقل عن الله أحكامه سبحانه وتعالى وحكمه، ويدرك حقيقة نفسه وحقيقة الدنيا وأنها دار زائلة ومزرعة للآخرة، فيعمل فيها ليخلص نفسه منها، ويجد لينتقل إلى دار البقاء وقرار السعداء ونزل الأبرار، هذا وإذا كان العقل الإنساني نهاية قواه استخدام ما حوله من الكائنات، كما تستخدم الحيوانات والنباتات جميع ما أحاط بها مما يلائمها بدون أن تدرك الكمالات النفسية، أو تعلم بقبح القبيح وحسن الحسن، أو تعتقد بيوم الجزاء والسؤال، أو تستدل بالنظام المشهود وغريب الحكمة المحسوس وعجيب الصنع الملموس بوجود قادر حكيم مدير صانع، لأن ما فيها من القوى التي تدرك بها الضار والنافع ليس عقلا إنسانيا بمعناه الحقيقي، وإنما هي غريزة فطرية وإلهام من الله تعالى، لذلك فالله سبحانه وتعالى خلق لكل نوع منها صورة خاصة مؤهلة لمعاونته، وأعضاء خاصة للغذاء وللمدافعة وللحركة وللتنفس، فترى الحيوانات المائية والحيوانات الجوية والحيوانات التي تعيش تحت طبقات الأرض وهب الله لها ما به تطيب حياتها ويحفظ نوعها، وقد نرى كثيرا من الحيوانات ما يتهذب في إجادة ما أهل له مبلغا يكاد يكون عند الإنسان أحب إليه من ماله وأهله كالفرس والكلب والفيل والسناسل والقرود، فمن يقول إن تلك القوى عقل فهو غير عاقل.

فكذلك الإنسان الذي استخدم ما حوله من الكائنات بالقوة الغريزية التي أودعها الله فيه بقدر ضرورياته وكمالاته الحيوية، ونافس في نبيل الحياة الطيبة في تلك الدار الدنيا حتى استخدم ما حوله من العناصر المجردة كالنار والهواء والماء والتراب وغيرها كالجمادات والمعادن والنباتات والحيوانات بالتركيب والتحليل والتربية، واختراع غرائب المخترعات بغير نظر بعيون الفكر إلى الآيات المنبجعة في تلك الكائنات، ولا جهاد للنفس في سبيل المعرفة بالله تعالى ونيل كمالاته النفسانية، فإنه حيوان كثير الحاجة

أدنى من الحيوان الأعجم، ولو تصرف في الماء والهواء والنار والتراب بقوة الإلهام الذي جعله الله له آلة يحفظ بها حياته المدة التي قدرها الله له في الدنيا، فإن أضع عمره في شهواته الحيوانية وضرورياته الجسمانية تمني يوم القيامة أن يكون تراباً، لأنه عاش في الدنيا عيشة الحيوان، ويحاسب في الآخرة حساب الإنسان.

ومن هذا استنتجوا أن الإنسان الذي لم يستعمل عقله حتى يقوى ويسترشد به لتنبلج له أنوار العقيدة الحقّة - حتى يقول لا إله إلا الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، ويصدق بمولانا رسول الله سيدنا محمد وبجميع رسل الله عليهم الصلاة والسلام - فليس بعاقل، بل وليس حيواناً لأنه صار أدنى من الحيوان رتبة، لأن الحيوان الأعجم يستعمل كل غريزته فيما خلقت له بوجه أكمل. والإنسان الموهوب له العقل الكامل الذي باستعماله يبلغ درجة إلى أن يكون خليفة عن ربه سبحانه وتعالى، ويبلغ درجة من السعادة القصوى يكون فيها في روضات الفردوس الأعلى تتولى خدمته الملائكة الروحانيون، وإن أهمل تلك القوة انحط إلى أسفل سافلين حتى يهوى في نار جهنم نعوذ بالله من إهمال استعمال العقل، أما المصدق بالله ورسله المؤمن بيوم الحساب الذي يخالف السنة فهو عندي كالحَيوان، لأنه انقاد لحظه وشهوته كما ينقاد الحيوان للإنسان فيحمل عليه ويركبه أو يذبجه ليأكل لحمه، فكذلك الإنسان المخالف للسنة ولو بلغ من العلم بظاهر الحياة الدنيا مبلغاً يستخدم فيه حرارة الشمس وزوابع الرياح وتيارات الماء ويخترع فيه ما يعجز الصنّاع.

و ليس قصارى كمال الإنسان بمعناه الحقيقي أن تتوفر لديه أشهى المطاعم وأجمل الملابس والخيل المسومة والمسكن المشيدة وألذ المناكح، فإن الطاووس أجمل ثياباً، والنحل أنظم المساكن، والسبع أنفذ كلمة وأجرأ قلباً وأشد جأشاً، والخنزير أشد شبقاً وأكثر سفاداً، والحمام أطرب وأرخم صوتاً.

و إنما هذه كمالات من لا علم لهم بفضائل النفس ودرجات رقيها ولدتها الروحانية وكفى الحيوان الذي هو على صورة الإنسان تعسة أن يحرم في الدنيا ملاذ صورته، ويعذب في الآخرة فيكون الجماد خيرا منه والحيوان أفضل منه، قال الله تعالى مشنعا عليهم: ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾⁽¹⁾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهَمُهم الأمل فسوف يعلمون﴾⁽²⁾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾⁽³⁾ فهم مسئولون سؤال العاقل الكامل، ومؤخذون مؤاخذة المفكر البصير، لأن الله جلت قدرته جعل لهم عقلا يعقل وأرسل لهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، فأقاموا الحجة القاطعة على صدقهم أنهم رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، وبينوا مناهج الحق وسبل الهدى بيانا تلمسه العقول إذا خلصت من سجن الحظ والهوى وتجردت من درن الأمل، وعمرهم الله عمرا يتذكر فيه من تذكر، كل ذلك أمدهم الله تعالى به حبا في إقبالهم، فأبّت تلك النفوس اللقسة أن تلقي السمع أو يكون لها قلب يتقلب في جلال وجمال مبدع الكون، أو بصيرة تحرق سياج الكون حتى تشرق عليها أنوار وميض حظيرة القدس الأعلى، لتسكن تلك النفوس إلى منفسها، والقلوب إلى مقلبها والأرواح إلى مروحها بطهور راحه وريحان مشاهدته، كل ذلك تفضل به المتفضل.

و أفضل نعمة أمد بها عباده، وأكمل منه تقرب بها إلى أحبابه هي نعمته علينا بحبيبه ﴿ﷺ﴾، الذي جعله رحمة من رحمته، وأقامه مقامه ﴿ﷺ﴾ ولم يقم أحدا هذا المقام من عالين وكروبيين وحملة العرش والسفرة الكرام والرسل المقربين عليهم الصلاة والسلام، وكيف لا وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿من

(1) سورة محمد - آية 12

(2) سورة الحجر - آية 3

(3) سورة الفرقان - آية 44

يطع الرسول فقد أطاع الله ﴿١﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ ﴿٢﴾ - وليس بعد التصريح بـ (أيديهم) - بعد أن وضح في افتتاح الكلام المقدس أنه يخاطب حبيبه خفاء على ذي عقل أنه أقامه مقامه حقاً، وأتابه عنه صدقاً، وما ذلك إلا لأنه ﴿ﷺ﴾ حقيقة ما يحب الله، وجلي ما يريد الله عقيدة وقولا وعملا وحالا، فمخالفه ﴿ﷺ﴾ لم يكن مخالفا له صلوات الله وسلامه عليه وإنما هو مخالف لربه، ظالم لنفسه، وهو ﴿ﷺ﴾ فرق بين الحق والباطل فلا يتوهم متوهم أن مخالفا لسنته ﴿ﷺ﴾ - ولو بلغ من العلم مبلغ إبليس، ومن السلطة مبلغ فرعون - عاقل، ولكنها غريزة كغرائز الحيوانات يستعملها كما يستعمل الحيوان الأعجم غريزته وفطرته وليس بعاقل عند العلماء. وقد يغتر بعض من لا علم له بمن علموا بظاهر من الحياة الدنيا، ويعتقدون أنهم عقلاء وهم كفار أو عصاة، ويرى بعض المتمسك بدينه فارا من زهرة الدنيا مستوحشا من ملاذها التي يألفها المغرورون متلذذا بما يتألم منه غيره، فيظن المغرور لجهله أن التقى غير عاقل. وما ذاك إلا لجهله بملاذ النفس وكمالاتها ووقوفه عند ملاذ الجسم. فإن الإنسان إذا وقف به الهم على مآكل شهوي وفراش وطويء ومنكح لذيد فقد أشبه الخنزير في سفاده. والطاووس في جماله والنحل في هندسة عشه، وكفي به تعسة أن تكون ملاذ لا تتعدى ملاذ الحيوانات العجم، إنما ملاذ الإنسان روحانية، وكمالاته ملكوتية، ونعيمه بمشاهدة آيات ربه وحضوره بمعبته سبحانه وتعالى.

علامات المحبة الصادقة:

قلت: المحبة الصادقة، لأن الفضائل والكمالات محبوبة للنفس، حتى أن مرتكب الرذائل يكره أن تنسب له ويتظاهر بالفضائل ويخاصم من يذكره بقبيح أعماله أمامه

(١) سورة النساء - آية 8

(٢) سورة الفتح - آية 1

أو في غيبته، وينكر على من يعمل الرذائل إنكاراً حقيقياً حتى يبلغ به استقباح الرذيلة في غيره إلى درجة يعاديه فيها، ويقطع ما بينه وبينه من المواصلات مع أنه واقع فيما يعادي عليه غيره وأكثر، لأن الإنسان لا يقدم على عمل من أعمال الرذائل إلا بدافع يعمي عيون عقله عن شهوده قبح الرذيلة، حتى إذا نفذ القضاء تناسى وقوع تلك الرذيلة من نفسه وأنكر على غيره إذا رآه واقعا فيها ولو عقب وقوعه مباشرة. ولما كان الاقتداء برسول الله ﷺ والتشبه به صلوات الله وسلامه عليه والعمل بسنته ﷺ هو الفضيلة الكاملة والسعادة الحقيقية والفوز العظيم، وكان أكثر أهل الرذائل الذين يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم يدعون أنهم يجوبون السنة والعمل بها، وأنهم يجوبون رسول الله ﷺ ملء قلوبهم والحقيقة غير ذلك، ولذلك أحببت أن أبين علامات المحبة الصادقة لتمييز الصادقون في المحبة من الأعداء.

العلامة الأولى :

فأول علامة من علامات محبة رسول الله ﷺ أن يكون المحب عالماً بمقاماته ﷺ وكمالاته عليه الصلاة والسلام، مدركاً قدر النعمة التي أنعم الله بها علينا ببعثته ﷺ لنا فاهماً أسرار حكمه ووصاياه صلوات الله وسلامه عليه، والمعاني التي تتحقق بها المحبة لجنابه ﷺ، ومشاهداً مكانته من الله سبحانه وتعالى وما اختص الله به ذاته ﷺ من الكمالات والجماليات وجلالة القدر والخصوصيات، حتى صار أفضل الرسل والملائكة المقربين وفرد ذات الله المخصوص بخالص محبته سبحانه وتعالى. ويتحقق بالفوز العظيم والخير الحقيقي والسعادة الأبدية بالمحافظة على سنته وهذه أكمل علامة يزن المؤمن بها نفسه، فمن أنس من نفسه بتلك المعاني فقد أهل لمقام الحب، واجتبه الله لمراتب الولاية واصطفاه للفوز بالقرب.

العلامة الثانية:

علامة المحبة للخير الواصل للمؤمن من حسن اقتدائه برسول الله ﷺ. المؤمن حقيقة هو من صدق بالغيب وأسلم لله رب العالمين، وسلم أمره لرسول الله ﷺ - الذي هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم - تسليما عن تبصرة بالإيمان بيوم الحساب، وتخيل عذاب ذلك اليوم ونعيمه، وتحقق علم يقين أن النجاة لا تكون إلا بالاعتداء بسيدنا ومولانا رسول الله ﷺ، فأحبه حبا بقدر فوزه ونجاته من أليم العذاب الذي يحصل لمن خالفه ﷺ، وحبا بقدر فوزه بالسعادة الأبدية والنعيم الحقيقي. فكان حبه للرسول الله ﷺ أعظم من حبه لنفسه إذ نفسه بدون اتباعه له ﷺ تجعله مخلدا في أليم العذاب أعوذ بالله من مخالفة رسول الله ﷺ.

وقد يقوى هذا الحب حتى يبلغ بالمحب درجة يتلذذ فيها بأحكام السنة ولو كان حكم السنة لا يلائمه أو أدى إلى فقد مال أو نفس، لأنه لكمال تصديقه بالغيب يري أن اتباع السنة هو عين السعادة وحقيقة اللذة، ويشتد التصديق حتى يكون الألم العاجل المؤدي إلى الخير الأجل لذة، كما شهود في كثير من الصحابة والتابعين والأئمة والعلماء بالله تعالى من تحمل الآلام والشدائد والتلذذ بها، خصوصا عند الجهاد أو عند إحياء السنة والأمتلة لا تحصى في كتب السير، وبمشيئته تعالى سأخصص رسالة خاصة أشرح فيها أحوال أهل المحبة وسيرهم، وأكشف القناع عن مكنون مواجدهم ذاكرا تلك الأحوال والمواجيد منسوبة إلى الأفراد الذين اجتباهم الله، مبينا مآخذ تلك الأحوال من السنة والكتاب تكون طهورا للنفوس وريحانا للقلوب.

العلامة الثالثة:

و هي علامة المرید السالك المؤهل لمشاهد الأبرار وهي من دلائل الخير، أن يكون المسلم مجذوبا بعامل قوي إلى معرفة شمائل رسول الله ﷺ الظاهرة والباطنة، شغفا بعلم معجزاته ﷺ وتعليم سننه صلوات الله وسلامه عليه، مع الغيرة على السنة والحب في إحيائها وبغض البدعة والمسارة إلى سماع مذاكرة العلماء والتودد إلى بقية الأتقياء والأنس بالفقراء والتسليم لأهل الأحوال، مع العمل بالسنة والكتاب في نفسه بدون أن يكون في قلبه غل المؤمن ولا حقد عليه. حتى تكون همته في تركية نفسه ومحو لقسمها، فيكون إذا رأى الجاهل المسييء تباعد عن عمله وحاله، وهذه العلامة إذا ظهرت في المبتديء دلت على عناية الله به.

و بقي علامات المحبوب لرسول الله ﷺ، ولسنا في مقام بيانها لأنها من علوم المقربين وأسرار اليقين، وإنما أتكلم في هذه الرسالة بالعلوم التي تكون بها يقظة المسلم من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، حتى يكون بها مسلما كاملا مريدا صادقا. وبالإجمال فالمحب لرسول الله ﷺ عامل بسنته متجمل بهديه ﷺ، ولا يتصف بالمحبة الحقيقية إلا من علم ما لا بد منه من السنة والكتاب وعمل بعلمه مخلصا، وإلا فهو دعوى غره الغرور وخدعته نفسه. أسأل الله أن يمنحنا جميعا الحب الخالص لذاته العلية ولذات رسوله ﷺ، ويعيننا على ما به نكون محبوبين لجنابه العلي ولرسوله ﷺ.

الصلاة والسلام على سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ

رسول الله ﷺ هو النعمة العامة:

بدهي أن شكر المنعم أوجب الشرع والعقل، ويتفاوت هذا الواجب بالنسبة لتفاوت النعم، فشكر من أنعم عليك بطعام يوم أو بثوب ليس كشكر من أنعم عليك بقوت سنة.

ولما كانت النعمة علينا برسول الله ﷺ لا يمكن أن يحصيها الحاسبون، وكيف لا وقد قال الله تعالى: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين﴾. ⁽¹⁾ وقال الله تعالى: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ⁽²⁾ فنعمة الله تعالى علينا لا يمكن حصرها، لأنها نعمة علينا في الدنيا بئاتلاف قلوبنا الأمر الذي به صرنا إخوانا متحابين، بل أعضاء لجسد واحد يعمل كل عضو لمنفعة المجموع، حتى بذلك دان لنا الخلق وحصلت لنا لذة الحياة وطيب المعيشة، وتلك النعمة كلية لا تحصي مقدماتها وأسبابها ولا تحصر فوائدها وخيراتها، وليست تلك النعمة خاصة بمن صدقه من المسلمين ولكنها عامة لكل الخلق من الإنس والجن والملائكة والحيوانات والنباتات.

نعمة الله على الملائكة:

أما الملائكة فإن الله سبحانه وتعالى أنعم عليهم برسول الله ﷺ بما أثنى عليهم في كتابه العزيز كل بحسب مقامه الذي أقامه فيه، فقال سبحانه في أمناء الوحي: (إنه لقول رسول كريم {19} ذي قوة عند ذي العرش مكين {20} مطاع ثم أمين) ⁽³⁾ وقوله تعالى: (كلا إنها تذكرة {11} فمن شاء ذكره {12} في صحف

⁽¹⁾ سورة آل عمران - آية 13

⁽²⁾ سورة الأنبياء - آية 17

⁽³⁾ سورة التكوير - آية 19 - 21

مكرمة {13} مرفوعة مطهرة {14} بأيدي سفرة {15} كرام بررة⁽¹⁾ وقال الله تعالى في الثناء على حملة العرش ومن حوله من الملائكة: (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم)⁽²⁾.

وقال سبحانه وتعالى في الثناء على جميع الملائكة: ﴿قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين من كان عدوا لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين﴾⁽³⁾ وآيات أخرى لا تحصى في الثناء على الملائكة عليهم السلام لم تكن إلا في القرآن، الذي أنزله الله تعالى على سيدنا رسول الله ﷺ، مما به تروحت تلك الأرواح الطاهرة وحصل لها الأُنس والبهجة والسكون إلى جناب القدس الأعلى بعد أن كانت الرهبة غالبية على الرغبة، فحصل التوسط الذي به تدوم لذة الأرواح المجردة. هذه أجل نعمة أنعم الله بها بسيدنا ومولانا رسول الله ﷺ على الملائكة مما يمكن أن يبين في مثل هذا المختصر الذي وضع ليقظة المؤمن من نوم الغفلة ورقدة الجهالة.

فأما النعم الخاصة بالمواجهة والمؤانسة بالقدس الأعلى والنيابة عن الحق سبحانه وتعالى في التبليغ والإرشاد فهذا علم لا ينبغي كشفه بالعبارة للعامة، ولا تحبيره على صفحات الأوراق.

النعمة على المجتمع الإنساني:

أما النعمة التي أنعم الله بها على الإنسان برسوله وحيبيه ﷺ لا فرق بين مسلمهم وكافرهم، فما فطره الله عليه ﷺ من الرحمة والشفقة وحب العدل والمساواة، وما

(1) سورة عبس - آية 11-16

(2) سورة غافر - آية 7

(3) سورة البقرة آية 97 - 98

بينه ﷺ ﴿﴾ لنا من حسن المعاملة وبذل السلام والإحسان، حتى جعل لأهل الذمة ما للمسلمين من الحقوق، وحظر على كل مسلم أن يظلم أو يجهل، وأوجب على كل مسلم الرحمة على جميع الخلق، فأصبح المجتمع الإنساني في تقدم ورفي ومزيد من الحضارة والعمران وتبادل التجارة والعلوم، وعم الأمن جميع الناس.

و لم يجعل ميزة بين أنواع الإنسان، بل لا فرق بين عربي وعجمي إلا بالفضائل ومكارم الأخلاق والخوف من الله تعالى. ومن تتبع سير الخلفاء الراشدين العاملين بوصاياه ﷺ ﴿﴾ بعد أن أخضعوا كسرى وقيصر وفتحوا أكثر الممالك كيف انتشرت الحضارة وظهر العدل بأجلى مظاهره وساد الأمن والأمان، واستوى النصراني المصري الفقير الصعلوك بأمر مصر العربي الشريف القرشي يوم لطم القبطي أمير مصر بمشهد الحج الأكبر انتصارا للعدل، وإظهارا للمساواة بأمر أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب.

علم أن النعمة برسول الله ﷺ ﴿﴾ نال منها كل فرد من بني الإنسان قسطا وافرا لا فرق بين مؤمن وكافر، وإنما خص المؤمن بالسعادة الأبدية يوم الجزاء الأكبر، فكانت النعمة به على المسلم في الدنيا والآخرة أشمل ولغيره خاصة بالدنيا.

النعمة على الحيوانات:

أما نعمته على الحيوانات فما بينه في وصاياه ﷺ ﴿﴾ من الحث على الرحمة بالحيوانات كقوله ﷺ ﴿﴾: (من لا يرحم لا يرحم) ⁽¹⁾ وقوله ﷺ ﴿﴾: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا ذبحتم فاشحذوا المدينة وأحسنوا

⁽¹⁾ أخرجه البخاري في الأدب، ومسلم في الفضائل، وأبو داود في الأدب، والترمذي في البر وأحمد في المسند.

الذبيحة (1) وأحاديث كثيرة في الحث على حسن العناية بدواب الحمل وغيرها. وقد ورد أنه ﷺ كان قافلا من غزوة فخرجت حية فبادرها بعض الصحابة لقتلها فلم يتمكنوا من قتلها، فلما رجعوا سأهم ﷺ فأخبروه فقال: (وقيت شركم كما وقيت شرها) (2) فجعل قتلها شرا. فترى المسلم حقيقة يرحم الحيوانات بأجمعها حتى إذا هم بقتل المؤذي منها اجتهد أن يكون قتله له برحمة حتى لا يعذبه وهذه الوصايا نعم عامة على جميع الحيوانات.

نعمة الله على النباتات:

أما نعمة الله به ﷺ على النباتات، فإنه ﷺ غرس النخل بيده، وحث على غرس الأشجار وعلي العناية بسقيها، وأخبر ﷺ أن أجرها لا يحصى فظلها أجر وثمرها أجر وورقها للحيوانات أجر، وجذعها للاستعمال أجر، كل ذلك يجعل الإنسان يعتني بسقيا النباتات حتى صار المسلمون يتنافسون في الزراعة، ومعلوم أن النبات حي حياة تناسبه يحس بالمرض إذا لم يباشر بالماء ويبست المادة التي يتغذى منها.

فعمة الله عليه برسول الله ﷺ ظاهرة جلية هذا سر قوله تعالى: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) (3) والعالم كل ما سوى الله.

5- وجوب الصلاة على المصطفى ﷺ

(1) أخرجه مسلم في كتاب الصيد، وابو داود في الأضاحي، والترمذي في الدية، والنسائي في الأضاحي، وابن ماجه في الذبائح والدارمي في الأضاحي
(2) أخرجه النسائي في المناسك، وأحمد في المسند 1/ 385 - 456-458 وفي رواية أخرى عندهما: (وقاها الله شركم ووقاكم شرها)
(3) سورة الأنبياء - آية 17

والنعمة به ﷺ على المسلم لا تحصي ولا تعد وشكر النعمة واجب شرعا وعقلا فيجب على كل مسلم شرعا أن يصلي ويسلم عليه ﷺ وجوبا عينيا. وإن رأي ذلك بعض العلماء مندوبا فإنه ليس على إطلاقه عندهم، ولكن ذلك كالنطق بالشهادتين، فإنه يتعين مرة واحدة، ولكني أرجح قول القائلين بالوجوب تكرارا وخصوصا في التشهد الأخير من الصلاة كما رأي ذلك سيدنا الإمام الشافعي رحمه الله. وأن الأمر في قوله لا إله إلا الله إنما يراد به الدخول في الإسلام، والواجب علم لا إله إلا الله علما ينتقش في النفس وينعقد عليه القلب حتى تحصل المراقبة في كل لحظة ونفس، قال تعالى: ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون﴾ (1) فأوجب علم لا إله إلا الله.

و إجماع الأمة على فرضية الصلاة عليه ﷺ في العمر مرة لاخلاف فيه، وإنما الخلاف في تكرارها هل هو واجب أو مندوب. فأوجه الشافعي في التشهد الأخير. وقال القاضي أبو بكر بن بكير: افترض الله على خلقه أن يصلوا عليه ويسلموا تسليما ولم يجعل ذلك بوقت معلوم، فالواجب أن يكثر المرء منها ولا يغفل عنها وقال مالك بن أنس: تاركها في التشهد الأخير مسيء. وأوجب الشافعي على تاركها في التشهد الأخير إعادتها. وأوجب إسحاق الإعادة مع تعمد تركها دون النسيان، وكان محمد بن المواز يراها فريضة في الصلاة. وفي الحديث الشريف: (لا صلاة لمن لم يصل على) وإن ضعف الرواة هذا الحديث. وقال الإمام أبو جعفر بن محمد على زين العابدين بن الحسين رضي الله عنهما: لو صليت صلاة لم أصل فيها على النبي ﷺ وعلي أهل بيته لرأيت أنها لا تتم.

و قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الدعاء والصلاة معلق بين السماء والأرض فلا يصعد إلى السماء منه شيء حتى يصلي الداعي على النبي ﷺ.

(1) سورة هود - آية 14

المواطن التي تتأكد فيها الصلاة على النبي ﷺ:

و من المواطن التي تتأكد فيها الصلاة على النبي ﷺ الدعاء، روي أن الدعاء محبوب حتى يصلي الداعي على النبي ﷺ. وقال ﷺ: (لا تجعلوني كقدح الراكب، فإن الراكب يملأ قدحه ثم يضعه ويرفع متاعه، فإن احتاج إلى شراب أو لوضوء توضأ وإلا هراقه (أو أهرقه) ولكن اجعلوني في أول الدعاء ووسطه وآخره) (1)

و تتأكد عند ذكره ﷺ وسماع اسمه أو الكتابة أو عند الأذان، قال ﷺ: ﴿رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي﴾ (2) وتتأكد كثرة الصلاة يوم الجمعة. وتتأكد الصلاة عليه والسلام عند دخول المسجد، واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿إذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم﴾ (3) فإن لم يكن في البيت أحد فقل: السلام على النبي ورحمة الله وبركاته.

قال ابن عباس: المراد بالبيوت هنا المساجد. ويظهر من تأويله إطلاق الآية هنا وتقييد الأخرى وهى قوله تعالى: ﴿لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها﴾ (4) الآية فقوله هنا: (تستأنسوا) وقوله في الآية الأولى: (فسلموا) دليل على أن الآية الأولى للمساجد. وتتأكد حال الصلاة على الجنائز، وفي افتتاح الرسائل وإن لم يكن عليه الصدر الأول، ولكن أجمعت الأمة عليه في أوائل القرن الثاني عملاً بقوله

(1) وعند الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ﷺ الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد حتى يصلي علي فلا تجعلوني كغمر الراكب، صلوا علي أول الدعاء وأوسطه وآخره (تيسير الوصول إلى جامع الأصول حديث الرسول للزيدي 2 / 59)

(2) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات وأحمد بن حنبل في المسند 2/254

(3) سورة النور - آية 61

(4) سورة النور - آية 27

﴿عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾: ﴿من صلى على في كتاب لم تنزل الملائكة تصلي عليه ما دام اسمي في ذلك الكتاب﴾⁽¹⁾.

كيفية الصلاة عليه ﴿عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ :

من المعلوم أن أوامره ﴿عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ العامة تقتضي أن تكون بقدر المبتدئين الذين ينبغي أن يكون الأدب حصنا لهم من الغلو أو التفريط، ولما كانت السنن العامة ينبغي أن تكون مفاتيح للقلوب وحصونا للعقول، حتى إذا عمل العامل بما علمه منحه الله علم ما لم يعلم ليكون ذلك بابا من أبواب الفضل، ومعراجا من معارج القرب، وسرا من أسرار المزيد. كانت الصلاة التي أمرنا بها رسول الله ﴿عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ التي أمرنا أن نصلي عليه بها ﴿عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ دالة على كمال التواضع، حافظة للقلوب عن التفاضل والاشتغال بذكر خصوصية الأنبياء، والالتفات بذكر التفاضل بينهم، حتى يعكف الهم على ذكر الواحد الأحد، ويتوجه القلب إلى جناب القدس الأعلى، ويتوجه الخيال إلى معاني القدس الأعلى، خياله مما تنزعج من القلوب حتى إذا توجه القلب بكمال الإخلاص كوشف بحقائق المقامات المحمدية، وواجهه الله بأسرار المنازل وصوفي بما يشرح صدره ويطلق لسانه بصلوات على رسول الله ﴿عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ تناسب قدر قربه به، وتوافق مقام حبه، ولذلك فبالسند عن سلامة الكندي: كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يعلمنا الصلاة على النبي ﴿عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ يقول: اللهم داحي المدحوات، وباريء المسموكات، وجبار القلوب على فطرتها شقيها وسعيدها، اجعل شرائف صلواتك ونوامي بركاتك ورأفة تحنك على محمد عبدك ورسولك الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق. والمعلن الحق بالحق، والدماغ لجيشات الأباطيل، كما حمل فاضطلع بأمرك لطاعتك، مستوفزا في مرضاتك واعيا لوحيك حافظا لعهدك ماضيا على نفاذ أمرك، حتى أوري قبسا لقباس آلاء الله تصل بأهله أسبابه، به هديت القلوب بعد خوضات الفتن

⁽¹⁾ ومن رواية أحمد: ((من صل على صلاة لم تنزل الملائكة تصلي عليه ما صلى علي))

والإثم، وأبهج موضحات الأعلام ونائرات الأحكام ومنيرات الإسلام، فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدين، وبعيثك نعمة، ورسولك بالحق رحمة اللهم أفسح له في عدتك، واجزه مضاعفات الخير من فضلك مهنئات له غير مكدرات من فوز ثوابك المحلول، وجزيل عطائك المعلول، اللهم أعل على بناء الناس بناه، وأكرم مثواه لديك ونزله، وأتم له نوره وأجره من ابتعائك له مقبول الشهادة ومرضي المقالة، ذا منطق عدل وخطة فصل وبرهان عظيم.

و عنه أيضا في الصلاة على النبي ﷺ: إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما، لبيك اللهم ربي وسعديك، صلوات الله البر الرحيم والملائكة المقربين والنبیین والصدیقین والشهداء والصالحین، وما سبح لك من شيء يارب العالمين، على محمد بن عبد الله خاتم النبیین وسيد المرسلین، وإمام المتقين ورسول رب العالمين، الشاهد البشير الداعي إليك بإذنك السراج المنير وعليه السلام.

و عن سيدنا عبد الله بن مسعود: اللهم اجعل صلواتك وبركاتك ورحمتك على سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبیین محمد عبدك ورسولك إمام الخير ورسول الرحمة، اللهم ابعته مقاما محمودا يغبطه فيه الأولون والآخرون، اللهم صل على محمد وعلي آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلي آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلي آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

فضل الصلاة على النبي ﷺ:

لما كان الترغيب في الصلاة على النبي ﷺ لا يكون إلا للمريد الذي لا يقع به العلم على عين اليقين، ولم تنكشف له حجب الوهم والخيال عن المكانة المحمدية، ولم يذق من صافي راح المعرفة ذوقا يتحقق به بقدره وقدر النعمة التي أنعم الله بها عليه على يده صلوات الله وسلامه عليه، كان ولا بد للمريد من ذكر ما يقوي رغبته في

الصلاة على النبي ولا يكون ذلك إلا من الحديث الشريف، والأحاديث في ذلك لا تخصى عدا. منها عن: أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: ﴿ من صلى علي صلاة صلى الله عليه عشر صلوات وحط عشر خطيئات، ورفع له عشر درجات ﴾ وفي رواية: ﴿ وكتب له عشر حسنات ﴾ (1).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿ أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة ﴾ (2). وعن أبي طلحة: دخلت على النبي ﷺ فرأيت من بشره وطلاقته ما لم أراه فسألته فقال: (وما يمنعني وقد خرج جبريل أنفا فأتاني ببشارة من ربي عز وجل ان الله تعالى بعثني إليك أبشرك أنه ليس أحد من أمتك يصلي عليك إلا صلى الله وملائكته عليه بها عشرا) والأحاديث الواردة في فضل الصلاة على النبي ﷺ كثيرة، والمريد الصادق إذا أشرفت عليه أنوار القرب انجذب بعامل الحب فتلذذ بالصلاة على النبي ﷺ، لذة تجعل نفسه تبتهج بالصلاة عليه ﷺ بحجة تنسيه ما عداها من العطايا، لأنه يكون آنسا بمشاهدة جماله ﷺ فرحا بما كوشف به من مقاماته العلية. وكيف لا وشكر النعمة واجب شرعا وعقلا.

و أجل نعمة الله علينا نعمته سبحانه علينا بسيدنا ومولانا محمد ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم ونعمته علينا باتباعه ﷺ والعمل بسنته صلوات الله وسلامه عليه، ولذلك فإن أكثر العارفين بمنحهم الله من سوابغ إحسانه حقيقة حب في قلوبهم لما كوشفوا به من مقامات رسول الله ﷺ فتنتلق ألسنتهم بجمل من الصلاة عليه ﷺ تكشف الستار عن مقام كل عارف ومقدار عوارفه، وتلك الجمل تكون كراح للأرواح، وطهرة لنفوس من تلاها بعده.

(1) وعند أحمد بن حنبل ((من صل علي صلاة صلى الله وملائكته عليه سبعين صلاة)) المسند 2

(2) أخرجه الترمذي في باب الوتر

و فضل الصلاة عليه ﷺ ظاهر في الدنيا قبل الآخرة . فإن تكرار الصلاة على النبي ﷺ يزيك النفس ويجمل لطائف القلب، ويسر خيري الدنيا والآخرة، وقد شهدت ذلك بنفسي في نفسي وفي غيري، ولا برهان أقوى من التجربة، وفقني الله وإخواني جميعا للمحافظة على السنة ومنحنا حب رسول الله ﷺ .

فضل زيارة النبي ﷺ

ما يستحسن عند الزيارة:

هذا الموضوع أكتب فيه لأهل التسليم ممن وفقهم الله تعالى للعمل بوصاياهم ﷺ ومعرفة قدر النعمة به ﷺ المؤمنين حقا، لأنه عمل ينتجه الإيمان الكامل. وإني والحمد لله على يقين أن كل مسلم يحسن لزيارة قبر النبي ﷺ ينمو في كل نفس، ولكني أبين الآداب التي تأدب بها الصحابة رضوان الله عنهم والتابعون وأئمة الخير ممن يقتدي بهمدينهم مبينا ذلك بأسانيدهم، وأستحسن كما استحسن أهل العلم كالإمام مالك وغيره أن يقول المتوجه إلى المدينة: توجهت لزيارة النبي ﷺ أو للسلام على النبي ﷺ ويقول عند رجوعه: زرت النبي ﷺ أو سلمت على النبي ﷺ ولا يقول زرت قبر النبي ﷺ والذي أراه في استحسان هذا المذهب لأن الناس لم يتوجهوا لزيارة القبر كما يتوجه الناس لزيارة القبور، لأن زيارة القبور للعتبة والاعتبار وللدعاء لأهلها والاستغفار لهم، ولكن المزور هنا هو النبي ﷺ فيجب أن يميز الناس بين الزيارتين. وهذا أدب أدب الله به أهل العلم وكيف لا والمتوجه إلى المدينة يشهد مواطن تنزل الوحي، وأماكن جلوسه ﷺ ومواقع وضع قدمه الشريف، وأقفا بورك برفع صوته ﷺ فيه بالقرآن والعلم والأمر والنهي، وروضة ثبت أنها روضة من رياض الجنة، وحظيرة بورك بمس جسده الشريف، ولذلك فقد ثبت أنه يجب ضرب أكباد الإبل إلى تلك الأماكن.

آداب الصحابة والسلف في الزيارة:

أما آداب الصحابة والسلف في الزيارة فأبين كما ورد رضوان الله عنهم: عن نافع ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: (من زار قبري وحببت له شفاعتي) (1)

و عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (من زارني في المدينة محتسبا كان في جواربي وكننت له شفيعا يوم القيامة) (2). وفي حديث آخر: (من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي). وكره مالك أن يقال زرنا قبر النبي ﷺ. وقال ابن أبي فديك: سمعت بعض من أدركت يقول: بلغنا أنه من وقف عند قبر النبي ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم فتلا هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (3) ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم يا مُجَدُّ، من يقولها سبعين مرة ناداه ملك: صلي الله عليك يا فلان ولم تسقط لك حاجة.

و قال بعضهم: رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي ﷺ فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة، فسلم على النبي ﷺ ثم انصرف. وقال نافع: كان ابن عمر يسلم على القبر رأيته مائة مرة وأكثر يجيء إلى القبر فيقول: السلام على النبي ﷺ، السلام على أبي بكر، السلام على أبي ثم ينصرف. ورؤي ابن عمر واضعا يده على مقعد النبي ﷺ من المنبر ثم وضعها على وجهه. وعن ابن قسيط والعتبي: كان أصحاح النبي

(1) أخرجه أحمد في المسند 4 / 18

(2) وعند الترمذي في المناقب ومالك في الموطأ وأحمد: ((إلا كنت له شفيعا يوم القيامة)) المسند 1/6 - 29/3 - 113/2 - /181/1

(3) سورة الأحزاب - آية 56

﴿ﷺ﴾ إذا خلا المسجد جبووا رمانة المنبر التي تلي القبر بيمينهم ثم استقبلوا القبلة يدعون.

و قال القاضي أبو الوليد الباجي: وعندني أنه يدعو للنبي ﴿ﷺ﴾ بلفظ الصلاة ولأبي بكر وعمر. وقال ابن حبيب: ويقول إذا دخل مسجد الرسول: باسم الله وسلام على رسول الله، السلام علينا من ربنا وصلى الله وملائكته على محمد، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك وجنتك واحفظني من الشيطان الرجيم. ثم اقصد إلى الروضة وهي ما بين القبر والمنبر فاركع فيها ركعتين قبل وقوفك بالقبر تحمد الله فيها وتسأله تمام ما خرجت إليه والعون عليه، وإن كانت ركعتان في غير الروضة أجزأتك وفي الروضة أفضل. وقال ﴿ﷺ﴾: (ما بين منبري وبيتي روضة من رياض الجنة ومنبري على ترعة من ترع الجنة). ثم تقف بالقبر متواضعا متوقفا فتصلي عليه وتثني بما يحضرك، وتسلم على أبي بكر وعمر وتدعو لهما وأكثر من الصلاة في مسجد النبي ﴿ﷺ﴾ بالليل والنهار ولا تدع أن تأتي مسجد قباء وقبور الشهداء. وقال مالك في كتاب محمد: ويسلم على النبي ﴿ﷺ﴾ إذا دخل وخرج يعني بالمدينة وفيما بين ذلك. قال محمد: وإذا خرج جعل آخر عهده الوقوف بالقبر وكذلك من خرج مسافرا.

و روى ابن وهب عن فاطمة بنت النبي ﴿ﷺ﴾ أن النبي ﴿ﷺ﴾ قال: (إذا دخلت المسجد فصلي على النبي ﴿ﷺ﴾ وقولي: اللهم اغفر لي ذنبي وافتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرجت فصلي على النبي ﴿ﷺ﴾ وقولي: اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك).

هذا ما كان عليه أئمة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وما ورد في ذلك عن رسول الله ﴿ﷺ﴾ وعمل الصحابة هو النور الذي يجب على كل مسلم أن يقتدي به في زيارة النبي ﴿ﷺ﴾ وفي السلام عليه.

شهود أهل الحب الواهين:

على أي لا أنكر على أهل الحب الواهين الذين انجذبت قلوبهم إلى حضرة المعية المحمدية إذا سطعت أنوار بصائرهم فأخفت مشهد الأبصار، فشهدوا بالروح عند دخول المسجد النبوي ما مثله الخيال الصافي من كدرات الأهواء، واستحضره القلب المطمئن من معاني المكانة المحمدية، فحصل الخشوع الممزق لأغشية القلب حتى يصرخ الصارخ، ويصعق الصاعق، ويعني المعني، ويهتز الواجد، ويكي العاشق، ويتمثل الواصل فمنهم من يمد يده مسلماً، ومنهم من ينحني مقبلاً، ومنهم من يلتمس مخاطباً، ومنهم من يشكو مشاهداً، ومنهم من يقبل البشري، ومنهم من يسمع.

كل ذلك مسلم لأهله مقبول منهم، لأن مقامات المحبة تتفاوت حتى تنزل السكينة وتحصل الطمأنينة ولديها يكون المؤمن وسطاً. وقد سبق لك تفاوت أعمال أصحاب رسول الله ﷺ في زيارته صلوات الله وسلامه عليه مما سبق لك من أعمالهم ﷺ، ومن تدبر قول الإمام مالك رحمه الله أنه يكره أن يقول: زرت قبر رسول الله ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم ويحب أن يقال: زرت رسول الله ﷺ يظهر له جليلة هذا الأمر، وإنما ينكر على أهل المحبة من لم يقرأ علومهم ومن لم يتعلم أسرارهم، ومن جهل شيئاً عاداه.

6- تعظيم عترته الشريفة ﷺ

مودة آل بيته الشريف:

قال الله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾⁽¹⁾ هذه الآية الشريفة وإن أولها بعض العلماء بأن رسول الله له قرابة في كل قبيلة من قبائل العرب، وإن الله سبحانه وتعالى أمر بصلة الرحم وود ذوي القربى، ورسول الله ﷺ أوصل الناس

(1) سورة الشورى - آية 23

لرحمه فيذكر العرب بأن لا يقطعوا قرابته ﷺ، ولكن بعض المحققين أولها إلى مودة آل بيته الشريف. ومن المعلوم أن آل بيته ﷺ وآله هم السيدة الزهراء عليها السلام، وسيدنا الحسن وسيدنا الحسين وسيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وسيدنا جعفر الطيار وسيدنا العباس بن عبد المطلب وسيدنا الحمزة وسيدنا عقيل بن أبي طالب.

حق أهل البيت في عنق كل مسلم:

ففي عنق كل مسلم حق لأهل البيت، وهذا الحق هو احترامهم وتعظيمهم ومساعدتهم ما داموا متصفين بصفات أهل البيت، لأنهم يمثلون حقيقة هذا النسب المقدس. فهم الأئمة والهداة وهم السادة المقتدي بعملهم، وليسوا معصومين فعلياً أن نستز زلاتهم ونخفي عوراتهم ونعينهم ما داموا على الحق، ونخلص لهم في النصيحة ونجتهد في تعليمهم وإرشادهم وردهم عن كل ما يخالف جدهم ﷺ، فإن قبلوا فهم أهل البيت، وإن أبوا إلا مخالفة السنة والكتاب وجب علينا أن لا نعينهم على ذلك وان نفر منهم تأديباً لهم لا عقوبة، وعلينا أن نبين لهم سنن رسول الله ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم ونذكرهم بأنهم أولى الناس بالتمسك بها، وأحق الناس بإحيائها، ولا نعتقد أن ذلك يغضب رسول الله ﷺ ولا أن ذلك يضرنا بشيء، بل نتيقن أن ذلك يرضي رسول الله ﷺ خصوصاً إذا أنتجت أعمالنا الثمرة المطلوبة، فإن ذلك شيء يسر رسول الله ﷺ، ويكون عملنا هذا تقرباً إلى رسول الله ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم من بذل أموالنا وأولادنا لهم.

المخالف ليس منهم إنما ذلك دعي ينتسب إلى غير أبيه:

يقول ﷺ: ((أبقيت فيكم ثقلين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وأهل بيتي))

فأهل بيت رسول الله ﷺ هم أنجم الهدى الذين أبقاهم رسول الله ﷺ لبيّنوا لنا كتاب الله، وليجددوا لنا سنن رسول الله ﷺ، ومن خالف ذلك فليس منهم وإنما ذلك دعى ينتسب إلى غير أبيه، وإنا أصبحنا في زمان يمكن كل إنسان أن يدعي تلك الدعوة ويأخذ بها حجة مسجلة يبرزها إن عورض في قوله وعمله المخالف للسنة، فيخشاه الجهلاء الذين يجهلون السنة.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا ممن يعظمون السنة وأهلها ويعظمون أهل بيت رسول الله ﷺ القائمين لإحياء سنته ﷺ، وأن يمن علينا بالعفو والعافية والخير الحقيقي في الدنيا والآخرة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

دعائم الإيمان ودعائم الكفر

لما بينت جملا من الواجب لله سبحانه وتعالى ولرسوله ﷺ من شعب الإيمان، أحببت أن أورد إجمالا دعائم الإيمان ودعائم الكفر، نعوذ بالله منه، ليكون المؤمن على بصيرة في أمره متوقيا شر ما يضعف الإيمان أو يزيله، متحريرا كل ما من شأنه يكون مزيدا في الإيمان.

دعائم الإيمان:

سئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عن دعائم الإيمان فقال: الإيمان على أربع دعائم: على الصبر واليقين والعدل والجهاد.

و الصبر منها على أربع شعب: على الشوق. والشفق. والزهد. والترقب. فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات. ومن أشفق من النار اجتنب المحرمات. ومن زهد في الدنيا استهان بالمصيبات. ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات.

و اليقين منها على أربع شعب: على تبصرة الفطنة. وتأول الحكمة. وموعظة العبرة وسنة الأولين. فمن تبصر في الفطنة تبينت له الحكمة. ومن تبينت له الحكمة عرف العبرة. ومن عرف العبرة فكأنما كان في الأولين.

و العدل منها على أربع شعب: على غائص الفهم. وغور العلم. وزهرة الحكم. ورساخة الحلم. فمن فهم علم غور العلم. ومن علم غور العلم صدر عن شرائع الحكم. ومن حلم لم يفرط في أمره وعاش في الدنيا حميدا.

و الجهاد منها على أربع شعب: على الأمر بالمعروف. والنهي عن المنكر. والصدق في المواطن. وشنآن الفاسقين. فمن أمر بالمعروف شد ظهور المؤمنين.. ومن نهي عن المنكر أرغم أنوف الكافرين. ومن صدق في المواطن قضى ما عليه. ومن شيء الفاسقين وغضب لله غضب الله له وأرضاه يوم القيامة.

دعائم الكفر:

و قال : الكفر على أربع دعائم: على التعمق. والتنازع. والزيغ والشقاق. فمن تعمق لم ينب إلى الحق. ومن كثر نزاعه بالجهل دام عماه عن الحق. ومن زاغ ساءت عنده الحسنة وحسنت عنده السيئة وسكر سكر الضلالة. ومن شاق وعرت عليه طريقه وأعضل عليه أمره وضاق عليه مخرجه.

و الشك على أربع شعب: على التماري والهول والتردد والاستسلام. فمن جعل المرء ديناً لم يصبح ليله. ومن هاله ما بين يديه نكص على عقبيه. ومن تردد في الريب وطغته سنابك الشياطين. ومن استسلم لهلكة الدنيا والآخرة هلك فيهما.

الاستغفار من الذنوب

يحسن هنا أن أبين حقيقة الاستغفار، قال سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: الاستغفار درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معان. أولها الندم على ما مضى. والثاني العزم على ترك العود إليه أبدا. والثالث أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة. والرابع أن تعتمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها. والخامس أن تعتمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذنيه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد. والسادس أن تذيب الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية فعند ذلك تقول: أستغفر الله. هذا ما قرره أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب في الاستغفار وقد ذكرته في هذا الموضوع بعد ذكر دعائم الإيمان ودعائم الكفر والعياذ بالله تعالى، ترغيبا لي وإخواني المؤمنين في التوبة التي لا يغلق بابها عن الإنسان ما دام حيا يرزق، ومن استعصت عليه نفسه جاهدها حتى تلين له، وأكبر دعائم الجهاد مخالفتها، وقد بينت أنواع رياضة النفس في الكتب السابقة والعاقلة لا يعدم معرفة طرق تركية نفسه.

الباب الثالث الإمامة الفصل الأول تعريف الإمامة وصفة الإمام

تعريف الإمامة:

هي عبارة عن خلافة شخص من الأشخاص لرسول الله ﷺ في إقامة الأحكام الشرعية وحفظ حوزة الملة على وجه يجب اتباعه على كافة الأمة. هذا الموضوع يشتمل على مباحث:

المبحث الأول: في وجوب نصب الإمام:

أوجبه الإمامية والإسماعيلية على الله تعالى والمعتزلة والزيدية وأجابه علينا عقلا. وأهل السنة أوجبوه علينا سمعا ولم يوجبوه الخوارج مطلقا.

و أريد أن أذكر بيان وجوبه علينا سمعا وعدم وجوبه على الله تعالى، أما الأول: فلأن نصب الإمام لدفع ضرر لا يندفع إلا به، لأن البلد إذا خلا عن رئيس قاهر يأمر بالطاعات وينهى عن المعاصي ويدراً بأس الظلمة عن المستضعفين استحوذ عليهم الشيطان، وفشي فيهم الفسوق والعصيان وشاع الهرج والمرج. ودفع الضرر عن النفس بقدر الإمكان واجب بإجماع الأنبياء واتفاق العقلاء، فإن قيل: يحتمل مفساد أيضا إذ ربما يستتكف الناس عن طاعته فيزداد الفساد، أو يستولي عليهم فيظلمهم، أو يحتاج لدفع المعارض وتقوية الرياسة إلى مزيد مال فيغتصبه منهم. قلنا احتمالات مرجوحة وترك الخير لأجل الشر القليل شر كثير. وأما الثاني: وهو عدم وجوبه على الله تعالى فلما بينا فيما سبق من كتبنا أنه لا يجب عليه شيء بل هو الموجب لكل

شيء. قال: احتجت الإمامية بأن نصب الإمام لطف، لأنه إذا كان للناس إمام كان حال المكلف إلى قبول الطاعات والاحتراز عن المعاصي أقرب مما إذا لم يوجد، واللطف على الله واجب قياسا على الممكن. والجواب بعد تسليم المقدمات الباطلة: إن اللطف الذي ذكرتموه إنما يحصل بوجود إمام قاهر يرحى ثوابه ويخشى عذابه وأنتم لا توجبونه. كيف ولم يتيسر من عهد النبوة إلى أيامنا إمام على ما وصفتموه.

صفة الإمام عند من أوجب تنصيبه عقلا:

قول من أوجب تنصيب الإمام عقلا في صفته:

الأولى: أن يكون مجتهدا في أصول الدين وفروعه ليتمكن من إيراد الدلائل وحل الشكوك والحكم والفتوى في الوقائع، الثانية: أن يكون ذا رأي وتدبير يدبر الحرب والقلم وسائر الأمور السياسية، الثالثة: أن يكون شجاعا لا يجبن عن قيام بالحرب ولا يضعف قلبه عن إقامة الحد، وجمع تساهلوا في الصفات الثلاث وقالوا: ينبى من كان موصوفا بها، الرابعة: أن يكون عدلا لأنه متصرف في رقاب الناس وأموالهم وأبضاعهم، الخامسة والسادسة: العقل والبلوغ، السابعة: الذكورة، فإنحن ناقصات عقل ودين، الثامنة، الحرية لأن العبد مستحققر بين الناس مشتغل بخدمة السيد، التاسعة كونه قرشيا خلافا للخوارج وجمع من المعتزلة لقوله ﷺ: ﴿الأئمة من قريش﴾ ⁽¹⁾ واللام في الجمع للعموم حيث لا عهد فقوله الأئمة للعموم. وقوله ﷺ: ﴿الولاية من قريش ما أطاعوا الله واستقاموا﴾ ⁽²⁾.

⁽¹⁾ أخرجه أحمد في المسند 129/3 - 183 - 421/4

⁽²⁾ ومن رواية أخرى عن علي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ و آله قال: ((ألا ان الأمراء من قريش ثلاثة ما أقاموا بثلاث، ما حكموا فعدلوا، وما عاهدوا فوفوا، وما استرحموا فرحموا، فمن لم يقبل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)) رواه أبو يعلى على ما في مجمع الزوائد 5 / 191. وعند أحمد: ((استقيموا لقريش ما استقاموا لكم)) المسند 5 / 277.

القول في عصمة الإمام:

قال: ولا يشترط فيهم العصمة خلافا للإسماعيلية والإثنا عشرية، وينقض مذهبهم صحة إمامة أبي بكر رضي الله عنه. والأمة اجتمعت على كونه غير واجب العصمة ولا أقول أنه غير معصوم.

احتج المشترون للعصمة في الإمام بأن وجه الحاجة إليه: إما أن المعارف الإلهية لا تعلم إلا منه كما هو مذهب أصحاب التعليم. أو تعليم الواجبات العقلية. أو تقريب الخلق إلى الطاعات كما هو مذهب الإثنا عشرية، وذلك لا يحصل إلا إذا كان الإمام معصوما. وبأن احتياج الناس إلى الإمام لجواز الخطأ عليهم ولو جاز الخطأ عليه لاحتاج إلى إمام آخر.

ولقوله: ﴿إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾⁽¹⁾ وأجيب عن الأول بمنع المقدمات وعن الثالث بأن الآية تدل على أن شرط الإمام أن لا يكون مشتغلا بالذنوب التي تنفك بها العدالة لا أن يكون معصوما.

صفة الإمام العادل:

كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة إلى الحسن بن أبي الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل، فكتب إليه الحسن رحمه الله: اعلم يا أمير المؤمنين أن الله تعالى جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصف كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق الذي يرتاد لها أطيب المرعى ويزودها عن مراتع المهلكة ويحميها من السباع ويكنفها من أذى الحر والقر. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغارا ويعلمهم كبارا، ويكتسب لهم في

(1) سورة البقرة - آية 124

حياته ويدخر لهم بعد مماته. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البره الرفيعة بولدها حملته كرها ووضعته كرها وربته طفلاً، تسهر بسهره وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته وتعتم بشكايته. والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصي اليتامي وخازن المساكين يربي صغيرهم ويمون كبيرهم. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح، تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده. والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وعباده يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريههم، وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله فبدد المال وشرذ العيال فأفقر أهله وفرق ماله. واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاه من يليها؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفرع الأكبر، واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحباؤك يسلمونك في قعره فريداً وحيداً فتزود له بما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، واذكر يا أمير المؤمنين إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور، فالأسرار ظاهرة والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مهل قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك. ولا يغرنك الذين يتعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك، ولا تنظر إلى قدرتك اليوم. ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبال الموت، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبين والمرسلين وقد عنت الوجوه للحي القيوم. إني يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعظمتي ما بلغه أولوا النهى من قبل فلم آلك شفقة ونصحا، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة

لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة. والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

قول علماء النفس في صفة الإمام العادل:

هو الرئيس الذي لا يرأسه إنسان آخر أصلا، والإمام الحاكم بالسوية الذي يخلف صاحب الشريعة ﷺ في حفظ المساواة، ولا تتحقق تلك المنزلة المقدسة منزلة الخلافة عن الرب سبحانه وتعالى وعن رسوله ﷺ إلا لمن فطر على تلك الخصال: أحدهما أن يكون تام الأعضاء يمكن كل عضو أن يقوم بما خلق له بسهولة. الثانية: أن يكون جيد الفهم والتصور لكل ما يقال له فليقاه بفهمه على ما يقصده القائل وعلي حسب الأمر في نفسه. ثم أن يكون جيد الحفظ لما يفهمه وما يراه وما يسمعه وما يدركه؛ وفي الجملة لا يكاد ينساه. وأن يكون جيد الفطنة ذكيا إذا رأى الشيء بأدنى دليل فطن له على الجهة التي دل عليها. وأن يكون حسن العبارة يؤاتيه لسانه على إبانة كل ما يضمه إبانة تامة. وأن يكون محبا للتعليم والإستفادة منقادا لهما سهل القبول، لا يؤلمه تعب التعليم ولا يؤذيه الكد الذي يناله منه.

ثم أن يكون غير شره على المأكول والمشروب والمنكوح متجنبا للعب مبغضا للذات الكائنة عن هذه. وأن يكون محبا للصدق وأهله مبغضا للكذب وأهله. وأن يكون كبير النفس محبا للكرامة تكبر نفسه عن كل ما يشين من الأمور وتسمو نفسه إلى الأرفع. وأن يكون الدرهم والدينار وسائر أعراض الدنيا هينة عنده. وأن يكون محبا للعدل وأهله مبغضا للجور والظلم وأهلها، يعطي النصف من نفسه وأهله ومن غيره ويحث عليه ويؤتي من حل به الجور، ويكون مؤاتيا لكل ما يراه حسنا وجميلا. وأن يكون عدلا غير صعب القياد ولا جموحا ولا لجوجا، إذا دعي إلى الجور وإلى القبيح نفر وامتنع. وأن يكون قوي العزيمة على الشيء الذي يرى أنه ينبغي أن يفعل جسورا عليه مقداما غير خائف ولا ضعيف. واجتماع هذه كلها في إنسان واحد عسر،

فلذلك لا يوجد من فطر على هذه الفطرة إلا الواحد بعد الواحد والأقل من الناس فإن وجد مثل هذا ثم حصلت فيه بعد أن يكبر تلك الشروط الستة المذكورة بعد أو الخمسة منها دون الأنداد من جهة القوة المتخيلة كان هو الإمام الأعظم وإن اتفق أن لا يوجد مثله في وقت من الأوقات كان الإمام القائم بالأمر رئيس أهل الشورى الذين يمثلون جميع تلك الصفات حتى يقوموا بتنفيذ الأحكام الشرعية مع ملاحظة الاقتداء بالأئمة الهادين الذين جعلهم الله بجمال تلك الصفات.

و يجب أن يكون الإمام الأعظم المنفرد بالاجتهاد والاستنباط والحكم فيما لم يكن له نظير في السنن، وهو الذي اجتمعت فيه من مولده وصباه تلك الشروط المتقدمة. ويكون بعد كبره فيه ستة شروط: أحدهما أن يكون حكيما. والثاني: أن يكون عالما حافظا للشرائع والسنن والسير التي دبرها الأولون محتذيا بأفعاله كلها حذو السنن الماضية لأئمة الشريعة بتمامها. الثالث: أن يكون له جودة استنباط فيما لا يحفظ عن السلف فيه شريعة، ويكون فيما يستنبطه من ذلك محتذيا حذو الأئمة الأولين. الرابع: يكون له جودة رؤية وقوة استنباط في الحوادث التي يقتضيها الوقت الحاضر من الأمور والحوادث التي تحدث، مما لم يكن في زمن أئمة الهدى المقتدى بهم صريح حكم فيها، ويكون متحررا بما يستنبطه من ذلك صلاح حال المسلمين وأهل ذمتهم. والخامس: أن يكون له جودة إرشاد بالقول إلى العمل بالشريعة وسنن الأئمة الراشدين قبله، وإلى التي استنبط بعدهم مما احتذي فيه حذوهم.

السادس: أن يكون له جودة ثبات ببدنه في مباشرة أعمال الحرب، وذلك أن يكون معه الصناعة الحربية الخادمة والرئيسية.

فإذا لم يوجد إنسان واحد اجتمعت فيه هذه الشروط ولكن وجد اثنان أحدهما حكيم والثاني فيه هذه الشروط الباقية كان أحدهما رئيسا والثاني مشيرا لجماعة المسلمين، فإذا تفرقت هذه في جماعة وكانت الحكمة في واحد والثانية في واحد والثالثة في واحد

والرابعة في واحد والخامسة في واحد والسادسة في واحد وكانوا متلائمين كان أحدهم إماما والبقية مشيرين، فمتى اتفق في وقت ما أن الحكمة فقدت معها سائر الشروط كان الرئيس القائم بأمر الأمة ليس إماما واستعد المجتمع للهلاك، فإن لم يتفق أن يوجد حكيم تضاف إليه الإمامة لم تلبث الجماعة إلا ريثما تتقهقر وتغلب على أمرها، ويسارع الأجنب في استبعادها ومحو فضائلها وسلب أموالها، والله سبحانه وتعالى يحفظ المسلمين من أئمة الجهالة وقادة الضلالة إنه مجيب الدعاء آمين (وأرى) أن الإمام الأعظم لا يخصص ذاته بشيء من الخيرات أكثر مما يعطي غيره كما ورد في الخبر أن الخلافة تطهر الإنسان.

انتخاب الإمام:

ينتخب العامة لمنصب الخلافة العامة من كان شريفا في حسبه ونسبه، وبعض العامة يؤهل لذلك من كان كثير المال، وأما أهل العقل فإنهم يؤهلون لذلك من كان حكيما فاضلا، فإن الحكمة والفضيلة هما اللتان تنال بهما الرياسات والسيادات الحقيقية، والمؤهل للخلافة العامة لا يخفى على أحد، والله يوفق المسلمين لخيري الدنيا والآخرة ويدفع عنا جميعا شرور أنفسنا وشرور الأشرار.

الفصل الثاني الواجب على الإمام والواجب له

الواجب على الإمام الأعظم:

الإمام الأعظم خليفة رسول الله ﷺ وعليه أعظم واجب لأنه مطالب بحقوق بقدر ما على الأمة بأسرها، وكيف لا وهو مطالب بإقامة حدود الله تعالى وتنفيذ أحكام الله ودفع المظالم عن المسلمين وأهل الذمة، وحفظ الثغور وإحياء الأفراد بمادتي العلم والضروري والكمالي للحياة، فهو مسئول أمام الله تعالى وأمام رسوله ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم وأمام كل فرد من أفراد الأمة بحقوق توجب عليه اليقظة والسهر والجد والدأب وطرح حظوظ نفسه وشهواته وراءه حتى يكون خليفة لرسول الله ﷺ ممثلاً لجنابه ﷺ، ويجب عليه أن يسوق كل إنسان نحو سعادته التي تخصه ثم يقسم عنايته بالناس ونظره لهم إلى قسمين: أحدهما في تسديد الناس وتقويمهم بالعلوم الفكرية. والآخر في تسديدهم نحو الصناعات والأعمال الحسية، وإذا سددهم نحو السعادة الفكرية بدأ بهم من الغاية الأخيرة على طريق التحليل، ووقف بهم عند القوى التي ذكرناها، وإذا سددهم نحو السعادة العملية بدأ بهم من عند هذه القوى وانتهى بهم إلى تلك الغاية، حتى يكون كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية آمناً على دمه وماله وعرضه، ساعياً بقوته البدنية والفكرية في نوال السعادة والخير الحقيقي، مجداً في طاعة الله ورسوله، وطاعة أولى الأمر المتجملين بصفات رسول الله ﷺ رحمة وكرماً وعظفاً واستقامة وتقوى وعلماً وعملاً. فيتمتع كل مسلم بالحرية التي لا يخاف فيها إلا ذنبه ولا يخشى فيها إلا ربه، يبذل الفضل من ماله وجاهه وعلمه لإخوته المؤمنين اقتداء بالإمام الأعظم، وتشبهاً بولادة الأمر، فيكون وقت كل فرد بين شغل الصناعات المفيدة للمسلمين والزراعات المعينة لهم، واختراع ما لا بد منه من الآلات الحربية ومعدات النقل وفنون الطب المخففة لآلام المجاهدين، وكشف

أسرار الكائنات مما به راحة المجتمع الإسلامي، لأن قلوب المسلمين صفت بالإمام الأعظم من السخائم وطهرت النفوس من الرذائل حتى حصل التآلف والتحابب والتعاطف والتراحم، وشعر كل فرد بقدر الواجب عليه لإخوته المؤمنين. كل ذلك بعد القيام بما أوجبه الله تعالى والعمل بما سنه رسول الله ﷺ ويكون هذا كله سعياً وراء سعادة الدنيا والآخرة، وحفظاً للدين وصيانة لجماعة المسلمين.

كل تلك النعم يفيضها الله على المؤمنين ويزيدهم من فضله عزة لهم في قلوب أعدائهم ورهبة في نفوس جيرانهم، ويحصل المزيد بدخول الناس أفواجا أفواجا في دين الله لما يرونه من الخير والسعادة والعزة لمن تمسك بدين الإسلام فتكون تلك الحالة كداع يدعو جميع الأديان الأخرى إلى دين الإسلام، ويكون الفضل في ذلك كله للإمام الأعظم الذي جاهد نفسه في ذات الله تعالى لتكون كلمة الله هي العليا.

و مثل هذا الإمام لا يشك مسلم في أن طاعته طاعة لله ورسوله، ومعصيته معصية لله ورسوله، والخروج عليه كفر، وإخفاء النصيحة عنه ضلال.

لذة الإمام الأعظم:

لذة الإمام الأعظم تكون روحانية أكثر منها جسمانية، فإنه يتلذذ بما يرى عليه المسلمين من العلم والعمل والصناعات والفنون والزراعات وما يراه لهم من الشرف والحرية والثروة والتمكين في الأرض بالحق، والتآلف وروابط الإخاء وحسن طاعتهم له ومساعدتهم فيما يرضيه، وحبهم له وتنائهم عليه ودعائهم له بالقلوب والألسنة. ويتلذذ براحة ضميره وأمنه على نفسه في كل حال وكل مكان، لأن كل مسلم حريص على حياته يتمنى أن يفديه بنفسه وماله وأهله فيمشي في الأسواق منفرداً، ويجلس في المسجد وحيداً، ويسافر بلا خادم ولا زاد ولا حارس يحرسه، لأنه يجد في كل بلد وفي كل مكان أولاداً برة وحفدة يعظمونه. ويتلذذ بتنفيذ أمره ورهبة أعدائه منه وتملقهم له وخوفهم من سطوته بما يفد عليه من وفودهم الحاملة لكتب الخنوع والذل وهدايا

النور المبين (طبعة نهائية) 493

التودد. ويتلذذ بما يناله من نصره جيوشه وسعة مملكته وإذلال خصومه، وتوفير أموال بيت المال من الغنائم وعشور تجارات الأجانب ومحصولات المدن وخزن الأموال التي في بيت كل مسلم المعدة لطلبه عند مقتضى ذلك عن سماح نفس ورغب في رضوان الله الأكبر.

و يتلذذ بما ينعم الله به عليه من القربات التي يقوم بها بإعلاء الكلمة وأمن الطرق ودفع المضار وإقامة الحدود، وعمارة المساجد ومعاهد العلم وانتشار الفنون والصناعات والحرف، وتعزير القائمين بها حتى تكون الأمة بأجمعها كبيت واحد هو لهم كأب وهم له أبناء يسعى كل فرد في خير المجتمع.

مثال الإمام الأعظم:

مثل العلماء الإمام الأعظم بالقلب في الجسد فقالوا: كما أن العضو الرئيسي في البدن هو أكمل أعضائه وأتمها في نفسه وفيما يخصه وله من كل ما يشاركه فيه عضو آخر من الأعمال أفضلها. ودونه أيضا أعضاء أخرى رئيسة لما دونها ورياستها دون رئاسة الأول وهي تحت رئاسة الأول ترأس وترأس. كذلك الإمام الأعظم هو أكمل أجزاء المسلمين فيما يخصه وله من كل ما شارك غيره أفضله ودونه قوم مرءوسون منه ويرأسون آخرين.

وكما أن القلب يتكون أولا ثم يكون هو السبب في أن يكون سائر أعضاء البدن والسبب في أن تحصل لها قواها وأن تترتب مراتبها، فإذا اختل منها عضو كان هو المرفد له ما يزيل عنه ذلك الاختلال، كذلك الخليفة الأعظم ينبغي أن يكون هو أولا ثم يكون هو السبب في أن يتمتع المجتمع بالعدل والمساواة وإقامة الشريعة والسبب في أن تحصل الملكات الإرادية وأن تترتب مراتبها. وإن اختل منها جزء كان هو العامل على إزالة اختلاله. وكما أن الأعضاء التي تقرب من العضو الرئيسي تقوم بالأفعال التي هي على حسب غرض الرئيس الأول مما هو شرف، وما هو دونها من الأعضاء

يقوم عاملاً بما هو دون ذلك في الشرف إلى أن ينتهي إلى الأعضاء التي تقوم بالأخس من الأعمال. كذلك الأجزاء التي تقرب في الرياسة من الإمام الأعظم تقوم بأعمال إرادية هي أشرف لأنها منفذة لإرادة الرئيس مباشرة، وهكذا كل عامل يبعد عن الإمام يقوم بأعمال إرادية هي أخس من أعمال من هم أقرب للإمام إلى أن تنتهي إلى أعمال يقومون بأخس الأعمال وهم البعيدون عن الإمام كأهل المهن المحتقرة، والمكتسبون بالأعمال المرذولة. وخسة الأفعال ربما كانت بخسة موضوعاتها. فإن كانت الأفعال لا غنى عنها مثل فعل المثانة وفعل الأمعاء السفلي في البدن مع خسة موضوعاتها فإنها عظيمة. وربما كانت خسة الأعمال لقلّة فائدتها أو لسهولتها كذلك في المجتمع الإسلامي، وكذلك كل جملة كانت أجزاءها مؤتلفة منتظمة مرتبطة فإن لها من سائر الأجزاء هذه الحال.

الواجب للإمام على كل فرد من أفراد المسلمين وعلى جماعتهم:

تقدم أن الواجب على الإمام أعظم واجب لعظم مسؤليته، ولأن زلته زلة العالم بأجمعه، وبخطئه يوقع المسلمين في الخطأ. وقل أن يأتي الشر لجماعة المسلمين إلا من قبل إمامهم، وذلك قد يكون للتساهل في حدود الله وفي إقامة شعائره فيجرأ أهل النفوس للقسرة على ارتكاب المحرمات، فهو المؤاخذ على خطأ نفسه وخطأ العامة سواء أحدثه فقلده فيه أو علمه وتهاون في المؤاخذة عليه. وكما أن الواجب عليه عظيم ومسؤليته أعظم فقد أوجب الله سبحانه وتعالى وأوجب رسول الله ﷺ عليه وآله وسلم على كل فرد من أفراد المسلمين وعلى جماعتهم للإمام واجبات، وحذرننا من الإهمال في القيام بها، فإنه كما تحصل المضرة لجماعة المسلمين بإهمال الإمام فقد تكون المضرة أعظم بمخالفة أمره والتهاون بشأنه، فإن ذلك ربما فرق كلمة الجماعة وأكثر الأحزاب في المسلمين ومكن منهم عدوهم الشيطان الرجيم، وأدخل بينهم الدسائس والمفاسد من أعدائهم الكافرين. والحوادث السابقة عبرة للمعتبر قال

الله تعالى: (أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) ⁽¹⁾. والذي عليه أكثر المفسرين أن أولي الأمر هنا هو الإمام ونوابه ولاة الأمور. وإن كان بعض المفسرين أول ذلك بأهل العلم فقهاء القلوب وهذا لا يمنع، فإنه تقدم لنا أن الإمام ونوابه يلزم أن يكونوا علماء فقهاء القلوب وهذا لا يمنع، فإنه تقدم لنا أن الإمام ونوابه يلزم أن يكونوا علماء فقهاء فتكون طاعتهم واجبة من جهة الفقه والعلم ولازمة من جهة الولاية. وقال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم {54}﴾ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راعون {55} ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ⁽²⁾ بين لنا سبحانه وتعالى أن أولياءنا هم العلماء، لأن تلك الصفات التي ذكرها الله تعالى بقوله سبحانه وتعالى: ﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ الآية. تعين أنهم علماء فقهاء لأن إقامة الصلاة لا تتحقق إلا من العالم الراسخ. ومن تدبر قوله تعالى: ﴿فويل للمصلين﴾ ⁽³⁾ علم معنى إقامة الصلاة. وقوله سبحانه: ﴿ويؤتون الزكاة وهم راعون﴾ ⁽⁴⁾ يظهر من هذه الآية حقيقة الزكاة الشاملة لتزكية النفس وزكاة المال كما قال تعالى: ﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾ ⁽⁵⁾ أي لتزكية أنفسهم وتقديد تأدية الزكاة بالركوع يرجح هذا المعنى. وإنما يركي نفسه من عرفها ومن عرف نفسه عرف ربه. فهؤلاء الأئمة جعل الله طاعتهم طاعة لجنابه العلي ورسوله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ ومخالفتهم مخالفة لله ورسوله ﴿ﷺ﴾ وكفى بذلك إثماً. فالواجب على كل

(1) سورة النساء - آية 59

(2) سورة المائدة - آية 54 - 56

(3) سورة الماعون - آية 4

(4) سورة المائدة - آية 55

(5) سورة المؤمنون - آية 4

مسلم أن يطيع الله ورسوله وولاه الأمر وأن تكون طاعته لولاة الأمر عن حب خالص
لخير المسلمين جميعا وإخلاص في النصيحة لهم، ويتحقق أنه بطاعته لولاة الأمر،
ونصيحته لهم كأنه أحسن إلى نفسه وإلى إخوته المؤمنين في الدنيا، وفاز برضاء الله
سبحانه ورضاء رسوله الله ﷺ وبالنعيم الأبدي، واقتدى بأئمة الخير، وجدد سنة
رسول الله ﷺ، وكان إماما لمن يأتي بعده لأن الأبناء يقلدون الآباء.

و لما كان القائمون بالأمر رجالا منا جماعة المسلمين لم تثبت عصمتهم، ولكن لهم
اجتهاد فيما لم يرد عنه نص صريح في الشريعة ولا نظائر له في عمل أئمة الهدى،
بقدر وضوح الدلالة وطمأنينة القلوب والتحري أن يكون أقرب إلى الحق والدلائل
الشرعية إما إقرار أو شهادة أو قرائن دالة فما على كل مسلم قضى عليه وال من ولادة
المسلمين بما هو بريء منه بعد اجتهاده في الحكم إلا أن يتلقى ذلك راضيا بقضاء الله
داعيا لمن حكم عليه أن يوفقه الله للصواب، وإذا أداه اجتهاده إلى عمل ما يضر
بصالح الأفراد أو الأمة فالأولى أن يتلقوا هذا الأمر بتسليم لقضاء الله وقدره، وبدعاء
للأمير أن يبين الله له الحق في كل أعماله رحمة بالمسلمين واجتماعا لقلوبهم على
إمامهم، والاجتهاد من جماعة المسلمين في نصيحة الأمير بطرقها المقبولة ووسائرها
المؤدية للخير العام من غير تنفير ولا تفرقة، حتى لو ظهر أن الأمير يقصد المضرة فعلى
المسلم أن يحسن ظنه مفوضا أمره لله خشية من تفرقة الجماعة والتشنيع على الإمام،
لأن ذلك يؤدي إلى التحزب والخروج عليه فيكون المسلمون عاملين على إضعاف
قوتهم وذهاب سلطاتهم وتسليط عدوهم عليهم، وبذلك تهمل أحكام الله وتتعدى
حدوده سبحانه وتعالى. وكيف لا وبخروج بعض المسلمين على بعض هلاك للنفوس
وضياع للأموال وخراب للعمران ومحو للصناعات النافعة والعلوم المفيدة، وبذلك
تتمكن الأعداء فيكون جماعة المسلمين أذلاء بعد العز. ومن تدبر هذا واستحضر
قدر ما ينال الإسلام والمسلمين من عمله يجب أن يكون للمسلمين سلطان قوي ولو
ضرب ظهره وأخذ ماله. ومعلوم أن عزة جماعة المسلمين وقوتهم ومنعتهم وقوة سلطاتهم

عز لكل فرد من أفراد المسلمين أين كانوا وكيف كانوا، ووسعة لأرزاق كل فرد وإعلاء
لكلمة الله ولسنة رسول الله ﷺ.

كل مسلم مطالب بسلامة جماعة المسلمين:

ولا لوم علي إذا قلت إن كل فرد من أفراد المسلمين مطالب بسلامة جماعة المسلمين
وسلامة كل فرد منهم بقدر استطاعته، ولقائل أن يقول: كيف يمكن كل فرد أن يقوم
بهذا الواجب؟ فأقول له: أن معظم النار من مستصغر الشرر، فلو أن كل فرد حمل
أحوال اخوته وأميره على الأجل منها وسد أبواب الفتن من جهته، وإذا علم بفتته
غاب عنها ولم يشهدا أو اجتهد في إطفاء نارها ما أصاب جماعة المسلمين ما
أصابهم. قال رسول الله ﷺ: ﴿كل واحد من المسلمين على ثغر من ثغور
الإسلام، فإذا تمهون إخوانك فاشدد، لئلا يأتي العدو من قبلك﴾⁽¹⁾ وليس الأمر
ببعيد فإن مثال الإمام الأعظم مع جماعة المسلمين كعائلة لها رئيس، فإن كان الرئيس
شفيقا مدبرا حكيما واقتمدى به أفراد العائلة صفت حياتهم وارتفع شأنهم وتحدد
مجدهم، وإن كان الرئيس غير حكيم ولا مدبر أمكن أفراد العائلة أن يخففوا شروره
ويدفعوا مضاره عنهم بحكمة وروية ونصح بدون مخالفة ولا تنفير، فإن خرجوا عليه
ونفروه هدم المجد وبدد الأموال واستعان برياسته على إذلالهم، ولم يمض زمن إلا
ويصبحون جميعا أذلاء فقراء وقد تقدم مثل لذلك بالقلب والجسد. فعلى كل مسلم
أن يتحقق أنه بغضبه وسعيه في الانتقام سارع في إهلاك نفسه وأهله ومحو مجده وعزه.
وليست الحوادث التي تحدث بين العائلات ورئيسها التي بها تصبح الديار بلاقع والعز
ذلا والغنى فقرا والهدى ضلالا بقليلة أمام المتأمل البصير.

(1) وفي رواية أبي داود (كتاب الجهاد) والدارمي (سير) والموطأ (في الجهاد): ((إذا تمهون أخوك
فاشدد لئلا يدخل العدو من قبلك)).

فالواجب علينا جميعا أن نسعى بإخلاص وصدق فيما به عز جماعة المسلمين وسعادتهم وقوة سلطاتهم، معتقدين أن ذلك عز لكل فرد وشهرة لصناعاتنا وزراعاتنا وبلادنا وشرف لنا عند أعدائنا.

وإني أرى كثيرا منا قد من الله عليهم بمواهب العقول أو بالوسعة في الرزق أو بالقوة في الجسم لا يهتمهم هم المسلمين بل حظ كل واحد منهم قاصر على نيل حظوظه وشهوته، فتراه لا يهتم بغير ذلك ولو أضيعت حدود الله وأهملت سننه سبحانه وتعالى وتركت شعائره وضيعت جماعة المسلمين، ويظن المغرور لجهله أنه متلذذ متنعم. وربما أعان على هدم السنة ومحو الفضائل الإسلامية، ولا يعلم أن ذلك هو عين الذل والفقر والهلاك الأكبر في الدنيا والآخرة. قال رسول الله ﷺ: (من لا يهتمهم المسلمون فليس منهم) وقال ﷺ: ﴿من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا﴾⁽¹⁾ وبمعناه ﴿من سن سنة سيئة﴾ فإياك أيها الأخ البار وفقني الله وإياك لما يجب أن تجلب لنفسك خيرا قليلا فتفتح به على المسلمين شرا كثيرا، أو تدفع عن نفسك شرا قليلا فتجلب به على المسلمين شرا كثيرا، وكن يا أخي يقظا مشددا على حماية ثغرك الذي أنت عليه من الإسلام وأن أهمل جميع إخوانك، حتى تكون قد قمت بالواجب عليك الله تعالى ولرسوله ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم وإخوانك المؤمنين ولأولي الأمر منا.

صبر المظلوم خير من أن يكون سببا في فساد المجتمع:

و تدبر أن رئيس عائلة لو أنه طمع في مال فرد من العائلة وصبر المظلوم راضيا فإن هذا الرئيس قد تأخذه الشفقة عليه ويشفق عليه إخوانه فيعطفون عليه جميعا وتدمم الألفة والجماعة ويبقى للعائلة مجدها وعزها ويهاجها جيرانها. ولكن إذا قام الفرد حنقا

⁽¹⁾ أخرجه مسلم في كتاب العلم، والزكاة والنسائي في كتاب الزكاة، وأحمد في المسند 4/357،

واستعان ببقية الأفراد على نصرته وأخذ حقه من الظالم، وبت فيه أن هذا الظالم سيعاملهم بتلك المعاملة وأنه لا بد من بذل المجهود في إذلاله وخذلانه، فإما أن يتحدوا على ذلك فيكيدون لرئيسهم ويكيد لهم فما يمضي زمن إلا ويهلكون جميعا ويرجعون أدلاء، وإما أن يكونوا ضعفاء فيستعينون بجيرانهم الذين ينتهزون تلك الفرصة ليضعفوا قوة العائلة، ويستولوا على ثروتها ومجدها ويظهرون لهم المساعدة والرحمة، ويقبحون عمل رئيسهم ويغضون فيه ويمدوهم بالمال والجاه لإذلال الرئيس، حتى تصبح العائلة كأنها لم تكن فهكذا جماعة المسلمين.

واعلم يا أخى أيدك الله وإياي أن كثيرا من الناس يبذلون مواهبهم في جلب الخير لأنفسهم بواسطة الأمراء والرؤساء، ويعتقدون أن الخير لا يصل إليهم إلا إذا تمكنوا من قلوب الرؤساء وصارت لهم الكلمة النافذة لديهم، فإذا تمكنوا من أغراضهم سلطوا الأمراء على أعدائهم وعلى أهل الفضل ممن يحشون على أنفسهم من فضلهم، وعلى من يحسدونه ممن يحبهم الأمراء، فيفسدون أخلاق الأمراء ويمثلون صدورهم وغرا على أهل النصيحة والرأي حتى يفسدوا بين الراعي والرعية، فبييت الأمير يكيد لأفاضل أمته وأفاضل أمته يحذرون منه، وهؤلاء من أشرار الناس، وهم الأمراض المفسدة للجسد الإسلامي فاحذر يا أخى أن تكون منهم، وتحقق أنك إن عشت فقيرا تجوع يوما وتشبع يوما خير لك من أن تكون سببا في فساد المجتمع الإسلامي.

و جاهد نفسك أيها الأخ خشية أن تغرك الدنيا فتبيع الفضيلة بالرزيلة، والهداية بالضلالة، والآخرة بالدنيا، وتحقق صدق قوله ﷺ: (من أعان ظلما سلطه الله عليه).

و اعلم أيها الأخ البار أن كثيرا ممن لم يؤمنوا بيوم الحساب يستعينون على قضاء شهواتهم الدنيوية بالكذب وبإخوان السوء الذين يشهدون لهم بالزور، حتى يضطر أعداؤهم أن يقابلوهم بالمثل، فينتشر الزور والبهتان بين جماعة المسلمين وتفرق

الكلمة، ويصبح المسلمون مشغولين بأذية بعضهم بعضاً، وأعداؤهم في استعداد لهم وفي انتهاز فرصة غفلتهم.

هذا وإن كان ولي الأمر واجبا عليه أن يكون يقظا متحريرا من الوقوع في شبكة الأشرار وصحبة الخبثاء، ولكن أهل الجهالة والضلالة والخبث يجمعون ظاهرهم بصفات الأتقياء البررة وهم ذئاب أشرار، والوالي يحكم بالظاهر فلا لوم عليه إلا إذا كان شريرا مثلهم، وإن كان الواجب عليه أن ينفر من الأشرار المتجملين ظاهرا عندما تظهر منهم بادرة الخيانة ويعددهم عنه، ولا يكون ذلك إلا بتوفيق من الله وحسن معونة منه سبحانه وتعالى والله ولي المتقين. ومن فهم قوله سبحانه وتعالى ﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ ⁽¹⁾ وقوله تعالى: ﴿ فاحكم بينهم بما أنزل الله ﴾ إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فإنه منهم ﴾ ⁽²⁾

و قوله تعالى: (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) ⁽³⁾ وقوله تعالى: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) ⁽⁴⁾.

من فهم تلك الآيات وكان يؤمن بيوم الحساب تصغر في عينه الدنيا وتحتقر، ويفر من نعيمها الزائل وحظها الفاني، ويقبل بقلبه وقالبه على ما ينال به الخير العظيم في الدنيا والآخرة. والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمنحنا الفضل الذي به تأليف القلوب وإعلاء الكلمة وإحياء السنة وخير الدنيا والآخرة إنه مجيب الدعاء.

⁽¹⁾ سورة آل عمران - آية 26-28

⁽²⁾ سورة المائدة - آية 49 - 51

⁽³⁾ سورة الاسراء - آية 16

⁽⁴⁾ سورة النساء - آية 65

الإيمان بيوم الحساب:

من نور الله قلبه بالفقه ففقه أسرار تلك الآيات ونظائرها في كتاب الله تعالى، علم كيف يتحفظ من التشبه بالشياطين ومن الاقتداء بأهل النفوس اللقسة، وجاهد نفسه حتى تزكو وعكف على الحق ولو كان مرا عليها.

و لو أن كل أخ من إخواننا المؤمنين في كل البلاد تيقظ قلبه من نومه الغفلة ورقدة الجهالة واستحضر هول يوم الجزاء، وتحقق أن نعيم هذه الدار آلام وشقاء وأن حلالها حساب وحرامها عقاب ولذتها آلام، كما قال تعالى: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا﴾⁽¹⁾ وهذه الآية دالة على أن من أراد الدنيا بأن عكف عليها يعجل الله له فيها ما قدره له ألا بدون أن يناله منها إلا ما سبق له في علم الله بدون زيادة ولا نقص، وتكون إرادته لها دليلا على عدم إيمانه بيوم الحساب، وعدم الإيمان بيوم الحساب موجب لعمي القلب عن خوف مقام الرب والرغبة فيما عنده، فيئول ذلك إلى خسران الدين والدنيا والآخرة، ولذلك فقد حكم الله عليه بأن جعل له جهنم يصلاها مذموما مدحورا. أما مذموما فلأنكشاف النعم التي أنعم الله بها عليه من الإيجاد والإمداد والمنن التي من بها عليه من بعثة الرسل وورثتهم وإقامة الحججة على ذلك، والفضل العظيم الذي تفضل به عليه من تسخير ما في السموات وما في الأرض جميعا منه له، وكفرانه بكل تلك النعم ونسيانه للمنعنم جل وعلا.

كل تلك النقم والبلايا لم تصبه إلا بنسيان يوم الحساب، ولم يتمكن الشيطان الرجيم لعنة الله عليه من قلب المسلم حتى يجعله أتبع له من ظله إلا بنسيانه يوم الحساب. فكن يا أخي يقظ القلب. وعلمي كل أخ من إخواننا منعمهم الله روح القدس وودهم الله بكمال التصديق بيوم الحساب أن يجعل أكبر همه استحضار هول ذلك اليوم

(¹) سورة الإسراء - آية 18

مستحضرا بقلبه مدلول قوله تعالى: ﴿اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا وما أواكم النار وما لكم من ناصرين﴾⁽¹⁾ وأن ينيه جميع إخواننا وفقهم الله إلى الاستعداد له ما داموا لم يبلغوا درجة الرهبة والرغبة بأن كانوا في مقام القبض والبسط أو الخوف والرجاء، حتى يقوم كل أخ من إخواننا بما أوجبه الله تعالى وأوجبه رسوله ﷺ ﴿مما هو خير لكل فرد من أفراد المسلمين، بل وخير لكل حي، حتى يكون كل أخ ساعيا في خير كل أخ، وكل أخ لكل أخ كعضو متمم لجسد. وبذلك يتحقق قوله سبحانه وتعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾⁽²⁾ وكن يا أخي منحك الله العناية وإخواننا على يقين أن أشرار الخلق إذ شهدوا أهل الحق في عزة انخذلوا أمامهم، وتستروا عن المظاهرة بشروهم، وتكلفوا أن يتشبهوا ولو ظاهر بأهل الخير. وقد يكون هذا التكليف بعد هذا طبيعة فيكون المجتمع الإسلامي كما قال الله تعالى: ﴿كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء {24} تؤتي أكلها كل حين﴾⁽³⁾ وبانخزال أهل الباطل وظهور أهل الحق تقل أو تنمحي المفاسد، وتكون الهفوة كبيرة يتحاشاها أهل المفاسد أن تقع منهم. ولكن إذا ظهر أهل الضلال على أهل الحق تصير السنة بدعة، والكبائر محاسن مألوفة، والقربات خرافات، والصالح بلها وحماقة، والفجور شرفا ورفعة، وينكر المعروف ويعرف المنكر نعوذ بالله من ظهور أهل الباطل على أهل الحق.

و أعلم يا أخي أرشدني الله وإياك للطريقة المستقيمة التي يكون إمامنا فيها سيدنا رسول الله ﷺ ﴿أن الأخ إذا صدق بيوم الحساب سهل عليه الرجوع إلى الحق، وهان عليه العمل به، وخف على قلبه الاعتراف بجهله وحمقه ومخالفته ولو كان في ذلك رجمه أو قطع يده أو ضياع شرفه وماله ومنزلته، لأنه يبيع الفاني بالباقي والديني

(1) سورة الجاثية - آية 34

(2) سورة المنافقين - آية 8

(3) سورة إبراهيم - آية 24 - 25

بالعلي، ويتلذذ بذلك لذة من نال ووصل وفاز واتصل، فيكون أحياء فضيلة الصدق ووجد سنة الحق وصار إماماً للمتقين بعده، يقتدي به الصالحون ويأتم به المرشدون. وإذا لم يؤمن بيوم الحساب استصغر كبائره واستعظم صغائره، واعتبر بنفسه حتى يعتقد أنه خير موجود يتجمل ظاهراً أمام الناس ويأتي بأقبح القبائح في خلوته ولا يخاف الرقيب سر قوله تعالى: (وهو معكم أين ما كنتم).

وجوب طاعة الأمير:

تقدم ذكر الواجب للأمير على كل فرد من أفراد المسلمين وعلي جماعتهم وذكر الآيات القرآنية المتضمنة لذلك. وأحب أن أورد ما ورد من الأحاديث الصحيحة في هذا الموضوع ثم أردفها بما ورد من الأحاديث الحسنة لتنجلي الحقيقة واضحة للعمل بها:

قال رسول الله ﷺ: ﴿من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصي الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني، وإنما الإمام جنة يقاتل من ورائه ويتقى به، فإن أمر بتقوى الله وعدل فإن له بذلك أجراً. وإن قال بغيره فإن عليه منه وزراً﴾ (1)

قال رسول الله ﷺ: ﴿إن أمر عليكم عبد مجدع يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا﴾ (2)

وقال رسول الله ﷺ: ﴿اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة﴾ (1)

(1) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة في كتاب الإمارة

(2) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة والحج . والترمذي في الجهاد، وابن ماجه في الجهاد وأحمد في

المسند 17/4، 581/5، 44/6، 43

لا طاعة للأمير في معصية الله:

هذا الحكم الشرعي يجب أن تنكشف حقيقته وتظهر خفاياه، وقبل أن نورد الأحاديث الصحيحة في هذا الموضوع نبين ما يجب على المسلم إذا أمره الأمير بمعصية الله تعالى وبمخالفة سنة رسول الله ﷺ فيما يعتقد ويعلم. ومعلوم أن أحدا من الناس لا يعتقد أنه أحاط بالسنة إلا إذا كان مدعيا، والعلم كله في جماعة المسلمين كلهم، وقد تقدم أن الأمير يجب أن يكون أعلم الجماعة وأن يكون أهل خاصته علماء حكماء، فقد يأمر الأمير واحدا من المسلمين بأمر من السنة عند الأمير ومن طاعة الله عنده وهو عند المأمور من معصية الله ومن مخالفة السنة، وقد يأمر بما هو معصية ومخالفة قصدا فالواجب على المسلم في هذا الحال أن يلاطف الأمير ملاطفة تجعله واثقا بإخلاصه ويكتم أسراره، وأنه يفديه بماله وولده من مزار الدنيا والآخرة، حتى إذا أنس الأمير به قال له: إني على قدر علمي أعتقد أن هذا العمل معصية لله تعالى ومخالفة لسنة رسولي —————. وإني أعيد الأمير بالله من هذا فهل لذلك وجه شرعي، فيبين له الأمير. كما إذا كان في جهاد فأمر الأمير فرقة من جيشه بالهزيمة أمام العدو والهزيمة من أمام العدو من الكبائر إلا برخصة شرعية، فعلى الأمير أن يبين له وجه ذلك. وكما لو أمره الأمير بقتل إنسان يعلم أنه تقي صالح وقد علم الأمير بعيونه أنه عين للعدو أو رأس للخوارج أو يسعى في الأرض بالفساد، وعلى المأمور أن يسأل الأمير وعلي الأمير إذا علم منه كتم السر أن يبين له ذلك أو يقيله. كما إذا أمر الأمير مسلما بالكذب في وقت الجهاد وكان المسلم لا يعلم أن الكذب في وقت الجهاد قد يباح، وعليه أن يسأل الأمير وعلي الأمير أن يبين له وجه ذلك. وقد ورد في السنة أن رسول الله ﷺ أمر بقتل رجل فوجدوه يصلي، وأمر بهدم مسجد الضرار على من فيه، وأمر

(¹) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة والأذان، والأحكام ومناقب الأنصار، ومسلم في كتاب الإمارة والحج والترمذي في كتاب الفتن، وابن ماجه في الجهاد.

سيدنا أبا بكر الصديق بقتل رجل سرق، ورخص بعد فتح خيبر لرجل من المهاجرين أن يتكلم فيه ﷺ لخلاص ماله من مكة وكل ذلك من السنة.

و الأمير خليفة رسول الله ﷺ إلا إذا أمر بمعصية لا تحتمل التأويل بوجه من الوجوه فالواجب على المأمور أن لا يطيعه، وعليه عند ذلك أن لا يبيح هذا السر لجماعة المسلمين خشية من تفرقه الكلمة، ولكن عليه أن يظهر له الطاعة إذا كان في حالة غضب وحدة، ثم ينتهز فرصة زوال حدته ويذكره بأيام الله وبعاقة معصية الله فيراجعه ولو بلغ ذلك أنه يأمر بقتله، فيكون من خيار الشهداء لأنه قام بالواجب لله تعالى ولرسوله ﷺ ولولي الأمر، فإن أطاعه في معصية الله أغضب الله تعالى وأغضب رسول الله ﷺ، وأعان الظالم وسعى في زوال الإمارة عن الأمير، واستحق سخط الله تعالى وسلط الله الأمير عليه، وإن خالفه وخرج مشيعا تلك الفاحشة أمام المسلمين حتى أوجد في المسلمين روح الخروج عليه ومحاربه كان كمن فتح باب شر على المسلمين، وليس من ضرب ظهره وأخذ مالك أمرك بمعصية الله ولكن عصى الله فيك، فعليك أن تستر هذا ستر العورات المسلمين وحفظا لقلوبهم من التفرقة. وفي هذا الإجمال تفصيل لذي اللب. قال ﷺ: (السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) ⁽¹⁾ وقال ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف ﴾ ⁽²⁾ وعن عبادة بن الصامت قال: ﴿ يايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا، وعلي أن لا ننازع الأمر أهله، وعلي أن

⁽¹⁾ أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، ومسلم في الإمارة، وأبو داود في الجهاد، والترمذي في الجهاد، والنسائي في البيعة، وابن ماجه في الجهاد، وأحمد في المسند 17/2
⁽²⁾ أخرجه البخاري في الآحاد، ومسلم في الإمارة، وأبو داود في الجهاد، والنسائي في البيعة، وأحمد في المسند 94/1، 49، 426/4، 427، 66/ 5، 67، 7.

نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم⁽¹⁾. وفي رواية: ﴿على أن لا ننزع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا﴾ [أي مجاهرا به] عندكم من الله فيه برهان.

لا طاعة على المسلم للأمر إلا فيما استطاع:

عن ابن عمر رضي الله تبارك وتعالى عنهما قال: ﴿كنا إذا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة يقول لنا: ((فيما استطعتم))⁽²⁾ يظهر من هذا الحديث الشريف تقرير أصل من أصول الدين، وهو أن شرط القيام بتأدية كل حكم من أحكام الشرع القدرة على عمله، سر قوله سبحانه وتعالى: ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾⁽³⁾ فلو أن الأمير أمر مسلما بما لا قدرة له عليه وخالف أمره يكون مطيعا لله تعالى ولرسوله ﷺ، ولكن يجب عليه أن لا يجعل ذلك سببا لإشاعة الشر بين المسلمين على إمامهم.

مفارقة الجماعة مفارقة للدين والخروج على الإمام خروج من الدين:

قال رسول الله ﷺ: ﴿من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت إلا مات ميتة جاهلية﴾⁽⁴⁾ وقال أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿من خرج من الطاعة وفارق الجماعة مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبية أو يدعو لعصبية أو ينصر لعصبية فقتل، قتل قتلة جاهلية، ومن

⁽¹⁾ أخرجه مسلم في الإمارة، والنسائي في البيعة، وابن ماجه في الجهاد، ومالك في الجهاد، وأحمد في المسند 314/5، 6/43.

⁽²⁾ أخرجه البخاري في الأحكام، والفتن ومسلم في الإمارة والنسائي في البيعة، وابن ماجه في الجهاد، ومالك في البيعة، وأحمد في المسند 2/3، 81، 12/62، 51/4، 314/5.

⁽³⁾ سورة البقرة - آية 286

⁽⁴⁾ أخرجه النسائي في كتاب التحريم. وورد هذا الحديث بروايات أخرى عند البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وأحمد.

خرج على أمتي بسيفه يضرب برها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفى لذي عهد عهده فليس مني ولست منه ﴿﴾ .

الصبر على الإمام الظلوم خير من فتنة تدوم:

عن عوف بن مالك الأشجعي قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿﴾ خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم، قال: قلنا يا رسول الله أفلا نناذبهم عند ذلك؟ قال: لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، إلا من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئا من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزعن يدا من طاعة الله ﴿﴾ (1)

عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: ﴿﴾ يكون عليكم أمراء تعرفون وتكفرون، فمن أنكر فقد بريء ومن كره فقد سلم، ولكن من رضي وتابع، قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: لا ما صلوا لا، ما صلوا ﴿﴾ (2) يعني من كره بقلبه وأنكر بلسانه. عن عبد الله بن عمر رضي الله تبارك وتعالى عنهما قال: قال لنا رسول الله ﷺ: ﴿﴾ إنكم سترون بعدي أثره وأمورا تنكرونها، قالوا فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: أدوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم ﴿﴾ (3) قال: وسأل سلمة بن يزيد الجعفي رسول الله ﷺ صلى

(1) أخرجه مسلم في كتابه الإمامة، والترمذي في كتاب التفسير، والدارمي في الرق.

(2) أخرجه مسلم في الإمامة وأبو داود في السنة، والترمذي في الفتن وأحمد 295/6. وعند الطبراني عن عقبه بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ وآله: ((ألا أخبركم بخيار عمالك وشاراهم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: خيارهم خيارهم لكم، من تحبونهم ويحبونكم وتدعون الله لهم ويدعون الله لكم، وشرارهم شرارهم لكم من تبغضونهم ويبغضونكم وتدعون الله عليهم ويدعون الله عليكم. فقالوا: ألا نقاتلهم يا رسول الله؟ قال: لا... دعوهم ما صاموا وصلوا)) مجمع الزوائد 224/5.

(3) أخرجه أحمد في المسند 384/1، 387، 433 والبخاري في المناقب، والفتن، ومسلم في الإمامة، والترمذي في كتاب الفتن.

الله عليه وآله وسلم ﴿ فقال: ﴿ يا نبي الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألوننا حقهم ويمنعوننا حقنا فما تأمرنا؟ قال: اسمعوا وأطيعوا فإن عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم ﴿ هذه الأحاديث الصحيحة وإن اختلفت ألفاظها فقد أتحدت مدلولاتها، وإن كان في كل حديث من أسرار الحكمة ما لا تفي العبارة بها إلا أننا نأخذ منها حكما شرعيا في موضوعنا هذا وهو أن الواجب على كل فرد منا وعلي جماعتنا الصبر على جفوة الإمام وهفواته، والابتغال إلى الله أن يصلح أحواله ومستقبله، وأن يريح المسلمين من شره من غير أن يفتح باب من أبواب الشر عليهم، ولم يكن ذلك كله إلا خشية أن يقوم بعض أفراد المسلمين أو جماعتهم برد الإمام عن ظلمه بالقوة فيقاتلهم بالمثل فيزول سلطان المسلمين، ويتمكن منهم أعداؤهم.

و صبر المسلمين على جفوة الإمام وظلمه مع حفظ دينهم وديناهم إجمالا، ومع أن الإمام منهم ولو كان ظلما غاشما يؤدي إلى زوال الشر عن المسلمين، إما بتوبة الإمام ورجوعه إلى الحق عندما يذكره الأتقياء أو بموته وتولية غيره فيتغير الحال بتغيره، وإذا لم يصبروا عليه وخرجوا عليه فإنه يدافع عن نفسه بما لديه من القوة فتسل سيفوف المسلمين على المسلمين، و في ذلك ما فيه من غضب رب العالمين ونقص الأموال والأنفس والثمرات، وتكون النتيجة التجاء أحدهما إلى عدو غشاش يعين أحدهما على الآخر حتى يتمكن من جماعة المسلمين فيمحو معالم الدين، ويغير سنن المسلمين، وربما قهرهم على الكفر بعد الإيمان بالقوة التي تجعلهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، أو يغير مدينتهم المؤسسة على الكتاب والسنة وحضارتهم القائمة على الحق والعدل والمساواة كما بين في سنن الأئمة الهادين بمدينة المدن الضالة الفاسقة وحضارتها وحضارة المدن الجاهلية الماحقة.

وليست الحوادث التي حدثت بين الإمام والأمة فأنتجت تلك النتائج الضارة وبدلت معالم الحق وأنواره بظلمات الباطل وأضراره والفضيلة الشرعية بالذائل البهيمية

الشيطنانية بقليلة، كل هذا الأمر العظيم نتج من أمر صغير هو عدم صبر المسلم على جفوة الأمير، وعدم تواضع الإمام وإعطائه الحق من نفسه لرعيته، ولكن ترك الصبر من المسلم وإعجاب الإمام برأيه واتباعه هواه وإطاعته الشح صيرت الملك صعلوكا مملوكا والرعية العزيزة بإمامها همجا رعاغا، ولذلك فقد حذرنا رسول الله ﷺ على الله عليه وآله وسلم في هذه الأحاديث الصحيحة من عدم الصبر على الإمام، ونهانا عن الخروج عليه، وأمرنا ﷺ بالدعاء له ليدوم سلطان المسلمين وتبقى كلمة الله هي العليا: فانظر يا أخي بعين البصير الناقد في هذا الأمر الخطير، وإياك أن تدفعك العزة بالإثم فتستعظم الجفوة من الإمام أو الأذية منه في نفسك أو مالك أو ولدك، فينفخ فيك شيطان الغرور فتسعى في تمزيق جماعة المسلمين وإضعاف سلطاتهم، وتسعى في الاستنصار بغير المسلمين والاستعانة بغير المؤمنين، أو تجعل لك عصبية ممن لا خلاق لهم أهل المطامع في الدنيا والشوق إلى الرياسات، وتقوم فتخرج على الإمام. وقد علمت يا أخي أن الخوارج كلاب النار، فالواجب علينا جماعة المسلمين أن نتمسك بقول رسول الله ﷺ، وأن نصبر على جفوة الأمراء، حتى إذا صبرنا ودعونا الله تعالى نظر الله إلينا فولى الأمور خيارنا، قال الله تعالى: (إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)⁽¹⁾ وقال ﷺ: ﴿كَمَا تَكُونُوا يُولُوعَلَيْكُمْ﴾. وفي هذه الأحاديث المتقدمة من غوامض الحكمة ما لا يسعه هذا المختصر إذ ليست من مقاصده، وستأتي الإشارة إليها في كتاب آخر إن شاء الله تعالى، والله سبحانه أسأل ان يجعلنا جميعا من أهل الخير والفلاح، وأن يجدد بنا السنة ويعلي بنا الكلمة إنه مجيب الدعاء.

(¹) سورة الرعد - آية 11

الخروج من طاعة السلطان خروج عن المحجة ورفض البيعة رفض للإيمان:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية﴾⁽¹⁾ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وأنه لا نبي بعدي، سيكون خلفاء فيكثرون، قالوا فما تأمرنا؟ قال: فوا بيعة الأول فالأول، أعطوهم حقهم فإن الله تعالى سائلهم عما استرعاهم﴾⁽²⁾.

هذان الحديثان الصحيحان يعينان على كل مسلم أن لا يخرج عن بيعة الإمام وأن لا يعيش نفسا بدون الإمام، فإن الخروج عن طاعة الإمام ورفض البيعة مخالفة لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ، وفتح الأبواب الشرور على المسلمين، وإيقاد لنيران العداوة والبغضاء، ومحاربة الله ولرسوله. وليس من مسلم يؤمن بالله ورسوله ويؤمن بيوم الحساب يسعى في مضرة فرد واحد من أفراد المسلمين لينفع نفسه، فكيف يسعى في محو الإسلام والمسلمين؟ أسأل الله تعالى أن يحفظنا من التفرقة ومن الخروج من الطاعة والخروج على الجماعة. وفي الحديث الحسن قال رسول الله ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿أمركم بخمس: بالجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، وإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ريقه الإسلام من عنقه إلا أن

(1) أخرجه مسلم في كتاب الإمامة.

(2) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، ومسلم في الإمامة وابن ماجه في الجهاد، وأحمد في المسند 2

يراجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جناء جهنم وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ﴿⁽¹⁾ وقال ﴿ﷺ﴾: ﴿من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله﴾ ⁽²⁾.

الإمام لا يكون إلا واحدا شرعا:

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﴿ﷺ﴾: ﴿إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما﴾. وقال ﴿ﷺ﴾: (إنه سيكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان) ⁽³⁾. وقال ﴿ﷺ﴾ صلى الله عليه وآله وسلم ﴿من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه﴾ وقال عليه الصلاة والسلام: ﴿من بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر﴾ ⁽⁴⁾.

هذه الأحاديث الصحيحة تبين لنا ما يجب العمل به فيما إذا ظهر من ينازع في الخلافة أو يدعيها لنفسه بعد تنصيب الإمام واجتماع كلمة المسلمين عليه، وتعين علينا جماعة المسلمين أن نقتل الآخر إذا توفرت تلك الشروط، ومنه يظهر أن من أعان الخارج كان مثله يجب قتله حدا. وأما من خرج ضارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين

⁽¹⁾ عند النسائي وكتاب التحريم بلفظ: ((من خرج من الطاعة وفارق الجماعة.. الحديث)) وله روايات أخرى بلفظ: ((من فارق الجماعة شبرا مات ميتة الجاهلية)) البخاري في كتاب الفتن والأحكام، ومسلم في الإمارة وأبو داود في السنة، والترمذي في الأدب والدارمي في السير، وأحمد في المسند 1 / 275 / 4 / 113 / 5 / 18

⁽²⁾ أخرجه الترمذي في كتاب الفتن، وأحمد 5 / 24، 49

⁽³⁾ وعند أحمد بلفظ: (فمن رأيتموه يفرق بين أمة محمد ﴿ﷺ﴾ وهم جميع فاقتلوه) المسند 4 / 341

⁽⁴⁾ أخرجه مسلم في كتاب الإمارة وأبو داود في الفتن، والنسائي في البيعة، وابن ماجه في الفتن وأحمد في المسند 2 / 161، 191

وإرصادا لمن حارب الله ورسوله أو معينا لعدو كافر ليوليه الإمارة أو لعصبية وانتقام قتل كفرا.

و لا يعلم قدر المفسد والمضار التي تحصل لجماعة المسلمين بالإهمال في قتله إلا الله سبحانه وتعالى. فالواجب علينا جميعا أن ننفذا أحكام الله ورسوله بكل شدة، ولا تأخذنا رافة في دين الله على الفاسقين الخوارج، والله سبحانه وتعالى أسأل أن يودنا بوجه الذي ود به أهل محبته.

إنما يؤمر من أكره عليها لا من طلبها:

لو أن جماعة المسلمين سلكوا مسلك الأئمة الهداة في اختيار الإمام كما فعل سيدنا ومولانا أبو بكر الصديق إذ اختار سيدنا ومولانا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبين لهم بالدلائل البرهانية وجه اختياره له حتى اطمأنت القلوب، وكما جعلها عمر بن الخطاب لعدد من الصحابة شورى بينهم وجعل ابنه من أهل الشورى وليست له الإمامة، وكما أجمع أهل الشورى على إمامة سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام وهو كاره لها، لدام الأمر على ما كان عليه، ولا تنتشر الإسلام حتى دخل فيه جميع سكان الأرض. ولكن الإمامة صارت حظا في النفوس يختص به الرجل ولده أو أخاه، ويقهر جماعة المسلمين على البيعة له، فيكون القائم بالأمر معتقدا أن المسلمين لم يرضوا له إلا بالقهر فيتحرز منهم ويخشى على نفسه من غدرهم ويشغل وقته بالكيد لهم، حتى يتمكن منه عدوه على غرة منه. وقد سري هذا البلاء حتى أصبحت وظائف القضاء وحماية الثغور وقيادة الجيوش وإمارة الخراج تطلب ببذل المال والجاه والعرض والدين، فيتعلم الولد من صغره ليكون قاضيا في كبره، ويشب ومعه تلك الغاية فيسعى لنوالها من الأمير برمى القائم بما أو بالتشنيع عليه أو بالكذب عليه أو بدعوي أنه عدو للأمير حتى يتولى هذا المنصب جاهلا بقدر تبعاته، ويحكم في دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم بحظه، فما يتلذذ بالرياسة إلا يرثما يسلط الله عليه آخر

ينتقم الله به منه، وينتقم الله من الظالم بالظالم وهذا عقابه العاجل له في الدنيا وفي الآخرة عذاب شديد. فالواجب على إمام المسلمين وعلي جماعتهم أن لا يولوا ولاية قضاء أو جباية أو حماية تغور أو إمارة جيوش إلا من كان أهلا ومحلا، وأكره عليها وفر منها خوفا من الله تعالى أن لا يحسن القيام بها، كما حصل ذلك لأئمة السلف الصالح، فكم ضرب عالم وكم عذب تقي ليتولى وفر منها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة، فعممت المرضعة وبئست الفاطمة) ⁽¹⁾ وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله ألا تستعلمني؟ قال: فضرب بيده على منكبي ثم قال ﷺ: ﴿يا أبا ذر إنني ضيفك ضيفك ضيفك ضيفك﴾ وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها ⁽²⁾ وقال ﷺ: ﴿يا أبا ذر إني أراك ضعيفا وإني أحب لك ما أحب نفسي، لا تؤمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم﴾.

و عن أبي موسى رضي الله عنه قال: دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من بني عمي فقالا: أمرنا على بعض ما ولاك، فقال: (إنا والله لا نولي على هذا العمل أحدا سألته ولا أحدا حرص عليه) ⁽³⁾ وقال ﷺ: (لا نستعمل على عملنا من أراد) ⁽⁴⁾ وقال ﷺ: ﴿تجدون من خير الناس أشدهم كراهية لهذا الأمر حتى يقع فيه﴾ ⁽⁵⁾ وقال رسول الله ﷺ: ﴿ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام

⁽¹⁾ أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، والنسائي في البيعة، والقضاء، وأحمد في المسند 2 / 448.

⁽²⁾ أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، وأحمد 5 / 173، 267.

⁽³⁾ أخرجه البخاري في كتاب الأحكام ومسلم في الإمارة.

⁽⁴⁾ أخرجه البخاري في كتاب الإمارة، والردة، ومسلم في الإمارة وأبو داود في الأفضية والحدود، وأحمد في المسند 49/4

⁽⁵⁾ أخرجه البخاري في المناقب، وأحمد في المسند 2 / 418 مع اختلاف في بعض الألفاظ

الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده وهي مسئولة عنهم . وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ﴿⁽¹⁾﴾ وقال ﴿⁽²⁾﴾: ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة ﴿⁽²⁾﴾ . وقال ﴿⁽³⁾﴾: ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصيحة لم يجد رائحة الجنة ﴿⁽³⁾﴾ . وقال ﴿⁽⁴⁾﴾: إن شر الرعاة الحطمة ﴿⁽⁴⁾﴾ . وقال ﴿⁽⁵⁾﴾: اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم فارفق به ﴿⁽⁵⁾﴾ .

سعادة الإمام المقسط:

معلوم أن رسول الله ﴿⁽¹⁾﴾ خاتم الأنبياء فلا نبي بعده يسوس الناس، ولكن الله تعالى من جماعة المسلمين بأن أبقى فيهم أسرار النبوة وورثهم أنوراها، وأقام لرسول الله ﴿⁽²⁾﴾ أبدا لا يقومون بحجة الله ويجددون سنة رسول الله ﴿⁽³⁾﴾ منهم الإمام الأعظم، فإذا كملت معانيه وصحت مبانيه كان هو الصورة المحمدية الكاملة والخليفة الحقيقي لرسول الله ﴿⁽⁴⁾﴾ وخليفة ربنا سبحانه وتعالى في أرضه، وهي أشرف المقامات بعد الرسالة وأجل المنازل بعد النبوة، بما طهارة النفس وتركيتها والمنافسة في نوال القرب من حضرة القدس، والحظوة لدى رسول الله ﴿⁽⁵⁾﴾ صلى

(¹) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة والجنائز والقراض والوصايا والعقق والنكاح ومسلم في كتاب الإمامة، وأبو داود في الإمامة.

(²) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام ومسلم في الإمامة.

(³) أخرجه البخاري في الأحكام، ومسلم في الإيمان والإمامة والدارمي في الرق، وأحمد في المسند 2 / 15، 25/5، 27

(⁴) أخرجه مسلم في الإمامة، وأحمد في المسند 5 / 64

(⁵) أخرجه أحمد في المسند 6 / 62، 93، 257، 258، 26

الله عليه وآله وسلم، حتى قد يبلغ درجة من الكمالات النفسية إلى أن تكون مخالفة أمره من أكبر الكبائر لأنه قام مقام رسول الله ﷺ، ويكون اجتهاده حقا واستنباطه حقا وعمله سنة يقتدى بها، فلا يعلم إلا الله ما أخفي له من قرّة أعين وما أعدّه الله له من عظيم الفضل وجزيل الثواب. قال رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح: ﴿إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن - وكلتا يديه يمين - الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا﴾ (1)

تحرز الإمام من بطانة السوء:

اعلم يا أخي يا أخي منحني الله وإياك الإخلاص لذاته والصدق في معاملته سبحانه، وأن الخليفة لادنيا إلا عنده ولا دين إلا به، والناس قسمان: طالب دنيا وطالب دين. وأشد الناس طمعا في الدنيا لا يطلبها إلا عند الإمام، وأشد الناس حرصا على الدين لا يطلبه إلا بالإمام. ولذلك ترى أشد الناس حرصا على الدنيا يبذلون النفس والنفس في التقرب منه، وأحرص الناس على الدين يهتمون بشأنه للنصيحة وتحديد السنة وإعلاء الكلمة به.

و معلوم أن أهل الدنيا يتجملون للسلطان بما يحب إن بالدين وإن بالدنيا فيخفى عليه أهل الحق، فرما ظن الخير في أهل الشر فأفسدوا عليه ملكه وفتحوا عليه أبواب الفتن والشور، وربما ظن الشر في أهل الخير فأبعد عن نفسه الخير، وكل ذلك من عدم رويته في الأمور وبخنه عن خفايا كل أمر، وجهله بمقاصد أهل الشرور الذين يسمعون ما يحب ويعينونه على ما يهوى، ويظهرون له الحب في ذاته والسعي في تقوية سلطانه فيغتر بهم وينفر من أهل النصيحة المخلصين، فيكون عاقبة ذلك فساد الراعي والرعية وتفرق الجماعة. وأما إذا كان السلطان حذرا يقظا أبعد أهل المطامع

(1) أخرجه مسلم في الإمامة والنسائي في آداب القضاء وأحمد في المسند 2/ 16

الأشرار وقرب الحكماء الأخيار واقتدى بهم، فصلح الرعي والرعية وكان الله مع الجميع وأغدق نعمه وفضله، قال رسول الله ﷺ: ﴿ ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان، بطانة، بطانه تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانه تأمره بالشـــــــر وتحضه عليه عليـــــــه، و المعصوم من عصمة الله ﷻ ﴾

هول يوم القيامة على السلطان المخالف :

قال ﷺ: ﴿ ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً حتى يفك عنه العدل أو يوبقه الجور ﴾. وقال ﷺ: ﴿ ويل للأمرء، ويل للعرفاء، ويل للأمناء، وليتمنين أقوام يوم القيامة أن نواصيهم معلقة بالثريا يتجلجلون بين السماء والأرض وأنهم لم يلبسوا عملاً ﴾ (1) وقال ﷺ: ﴿ إن العرافة حق ولا بد للناس من عرفاء، ولكن العرفاء في النار ﴾ (2) وقال ﷺ: لكعب بن عدرة: ﴿ أعيذك بالله من إمارة السفهاء، قال: وما ذاك يارسول الله ؟ قال: أمرء سيكونون من بعدي من دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليسوا مني ولست منهم ولم يردوا علي الحوض، ومن لم يدخل عليهم ولم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فأولئك مني وأنا منهم وأولئك يردون علي الحوض ﴾

إذا كان المصدق لهم بكذبهم المعين لهم ليس من رسول الله ولا يرد عليه الحوض فكيف بنفس الأمرء. أعوذ بالله من إمارة تبعث عن الله ورسوله ﷺ. عن المقدام بن معد يكرب أن رسول الله ﷺ ضرب على منكبيه ثم

(1) أخرجه أحمد في المسند 2 / 352.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب الإمارة.

قال: (أفلحت يا مقدم إن مت ولم تكن أميراً ولا كاتباً ولا عريفاً) (1) عن عقبه بن عامر قال: قال النبي ﷺ: ﴿إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً إمام عادل، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً - ويروى وأبعدهم منه مجلساً - إمام جائر﴾ (2)

آداب عمومية للراعي والرعية وردت في أحاديث حسان :

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: ﴿من سكن البادية جفأ، ومن اتبع الصيد غفل ومن أتى السلطان افتتن - ويروى ومن لزم السلطان افتتن - وما ازداد عبد من السلطان دنوا إلا ازداد من الله بعداً﴾ (3) وعن عقبه ابن عامر قال: قال النبي ﷺ: ﴿لا يدخل الجنة صاحب مكس﴾ (4) يعني الذي يعشر الناس. وقال ﷺ: ﴿أفضل الجهاد من قال كلمة حق عند سلطان جائر﴾ وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ﴿إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم﴾ (5) وعن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿إنك إذا اتبعت عورات الناس أفسدتهم﴾ (6) عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿كيف انتم وأئمة من بعدي يسـتأثرون بمـذا الفـيء؟ قلـت أمـا

(1) أخرجه أبو داود في الإمارة وأحمد في المسند 4 / 133

(2) أخرجه الترمذي في كتاب البر واحمد في المسند 2 / 185، 23/3

(3) أخرجه ابو داود في كتاب الأضاحي والترمذي في الفتن والنسائي في السير، وأحمد في المسند 357/1

(4) أخرجه ابو داود في كتاب الامارة والدارمي في الزكاة وأحمد في المسند 4/143، 15

(5) أخرجه أبو داود في كتاب الملاجم والترمذي في كتاب الفتن، وابن ماجه في الفتن وأحمد في المسند 3/19

(6) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب.

والذي بعثك بالحق أضع سيفي على عاتقي ثم أضرب به حتى ألقاه، قال
ﷺ: أولاً أدلك على خير من ذلك؟ تصبر حتى تلقاني؟⁽¹⁾

الفصل الثالث الواجبات العامة أولاً: واجبات العلماء

أيها العلماء الحكماء الأتقياء أنتم ورثة رسول الله ﷺ، وسرج الدنيا ومصايح الآخرة، يأمن الناس يوم القيامة وتحافون لأنكم مسئولون، ويفزع الناس في الدنيا وأنتم حصون الأمن لأنكم النور المبين للهدى الماحي للضلال. الملوك ملوك على الناس وأنتم ملوك عليهم إليكم يرجعون وبكم يقتدون وبمشورتكم يعملون، فعظمو العلم بالزهد في الدنيا وتحقيرها والرغبة في الآخرة والعمل لها، ولا تتشوفوا إلى السيادة الفانية والرياسة المفسدة وارضوا بالقليل من الدنيا لتتمكنوا من عمل الخير العام للمسلمين. فإنكم إذا عظمتكم الله ورسوله وعظمت شعائر الله سبحانه وتعالى، وأقبلتم بكليتكم على الحق محقرين لزهرة الدنيا وبهجتها، جعلكم الله محلل العزة والجلال والهيبة والوقار، فخضعت لكم الأمراء وأطاعتكم الرعية، فكنتم حجة الله على عباده، بكم تعلو كلمته وتحدد سنته. وإذا غرتكم الدنيا وقادكم الحظ والهوى وهوى بكم إلى هوة الذل، فخلت الأرض من قائم لله بحجة وعلمت بالرأي والهوى فضلتكم وأضلتكم وهلكتم وأهلكتم وكان إثم ذلك عليكم فاحفظوا الله يحفظكم واحفظوا الله تجدوه أمامكم. كونوا مع الله تروا الله معكم.

(1) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب.

و اقتدوا بإخوانكم العلماء الذين سبقوكم بالإيمان فإنهم كتبوا لأمر المؤمنين عمر ابن الخطاب يعظونه ويجذرونه، وكان من تعلمون مكاتته من الله ورسوله ﷺ فمدحهم وأثنى عليهم. وهكذا كان العالم من أمة محمد ﷺ في السلف ينطق بالحق أمام الخليفة لا يخشى في الله لومة لائم، فكان سيدنا عمر بن الخطاب يعارض سيدنا أبا بكر. وكان المسلم يقف أمام عمر ﷺ ويقول له: لو انحرفت عن السنة لقطعنا رأسك. وكانت العاملة من النساء تدخل على سيدنا معاوية فتتكلم معه حتى تبكيه. وكتب محمد بن سهل لأمر المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما يعظه مشددا. ووقف ابن جريح أمام أبي جعفر المنصور فذمه وشنع عليه ورماه بالظلم والجور، وفضيل بن عياض ﷺ كلم أمير المؤمنين هارون حتى أبكاه. وكان العلماء في كل عصر أمراء على الملوك يسعي الملك إليهم صاغرا. حتى صار العلم آلة لجمع الدنيا ووسيلة للسيادة وسلما للرياسة، وكيف لا وكان السلف رضوان الله عنهم يضربون على الولاية ويفرون منها، ويرضى العالم أن يكون خواصا أو خرازا ليجهل عند الأمراء خوفا على نفسه من الفتنة، وأصبحنا وطالب العلم يفتتح طلبه بنية أن يكون قاضيا أو واليا أو قائدا، ولذلك درست آثار السنة وخفيت طريق الهداية، كل ذلك لإهمال العلماء في واجباتهم وتهاونهم في القيام بما فرض عليهم.

و قد كاد النور أن يطفأ لولا بقية ثقة بالله، وأمل في البقية الباقية من صالح عباد الله تعالي.

فيا أيها العلماء لو رضيتم بالفقر في الدنيا لتحيا سنن الله أغناكم الله في الدنيا والآخرة، ولو زهدتم في الدنيا لتجددوا سنن رسول الله ﷺ أقبلت عليكم الدنيا صاغرة، فقوموا بواجبكم وارفخوا أصواتكم بالنصيحة الخاصة للمسلمين وعامتهم ولأولى الأمر منكم، وإن منعوكم ذلك فاكتبوا لهم معتصمين بالله، معتقدين أن رضاء الله خير من الدنيا وما فيها، فإن في ذلك عز للمسلمين وقوة لسلطانهم وسعادتهم في الدنيا

والآخرة، واحذروا قوله تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾ (1) وتحمّلوا بحقيقة قوله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (2) واعلموا أن جهادكم أكبر من جهاد الجيوش الفاتحة، وما يستفيده المسلمون منكم خير من غنائم الأكاصرة والقياصرة، والله يوفقنا لما يحبه ويرضاه من العلم والعمل آمين.

ثانيا: واجبات التجار

أيها التجار أنتم أمناء الله في أرضه، والجالبون الخير لعباده، وكنوز المسلمين عند الحاجة، وحصونهم عند الداعي، تجلبون لهم النافع من الميرة والذخيرة وضروريات الحياة وكمالياتها مما أباحه الله سبحانه، وتصدرون ما زاد عنهم إلى البلاد الأخرى لتنمية أموالهم، وأنتم رواد الإسلام وناشروا أنواره بين الأمم الذين لم يهدمهم الله لدينه. بكم تنتشر فضائل الإسلام وتحمي ثغوره وتعلم كمالاته بما جملكم الله به من الصدق والأمانة والوفاء، وما منحكم الله من الحب لدينه والرغبة في تذكير الخلق لفضائله. وبكم يعلم أمراء المسلمين أسرار داخلية الأمم الأخرى وعوائدهم وأخلاقهم والوجوه التي يؤلفهم بها الأمير أو يفاجئهم. فإذا شغلكم حظ العاجلة عما أوجب الله عليكم من الحقوق أبدلتكم الوفاء بالعدر، والأمانة بالخيانة، والصدق بالكذب، والنصيحة بالغش، والاشتغال بنشر فضائل الدين بحب غير المسلمين ومدحهم، فيسلب الله البركة من أيدي من يتصفون بتلك الصفات ويذهب الصناعة من بلادهم، ويجعل ذلك في أيدي أعدائهم تعجيلا للعقوبة منهم في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأبقى. فاسترجعوا أيها التجار مجدكم القديم، وعاهدوا الله ورسوله ﷺ أن تقوموا

(1) سورة الجاثية - آية 23

(2) سورة فاطر - آية 28

بالواجب عليكم لإخوانكم المسلمين، وتجعلوا التجارة تجارة راحة لن تبور تنالون بها سعادة الدنيا والآخرة، ولا يكون ذلك إلا بالاخلاص لله ورسوله ﷺ والنصح لخاصة المسلمين وعامتهم والعمل لتقوية سلطان المسلمين، والله سبحانه يجعلنا بواسع فضله ويمنحنا الهداية إلى الصراط المستقيم.

ثالثا: واجبات الصناعات

أنتم الأيدي العاملة لخير المسلمين. أبدانكم متعبة لسعادتهم، وأفكاركم مشغولة لراحتهم ينامون وأنتم تسهرون، ويستريحون وأنتم تتعبون، ويفرحون بالرياسات والفتوحات والغنائم وأنتم في أعمالكم دائبون، ولو تفكر السلطان على سريره والأمير على منصبه والوالي على رعيته والتاجر في مهجته والمزارع في روضته والمسافر في البر والبحر في راحته، والعالم بين كتابه ومحبرته، والمثري في شاهق قصره، لتحقيق أن تلك النعمة أنعم الله بها على الكل على يدك أيها الصانع المسكين تتعب فكرك لتخترع ما به راحة أمتك وإعلاء كلمة ربك وإحياء سنة نبيك ونمو ثروة إخوانك، وتتعب يديك وبدنك لتقيهم ضرر الحر والبرد، فأنت ولا شك نعمة الله على المسلمين لخير الدنيا والآخرة. أحل الرزق رزقك وأطيب الطعام طعامك، سيأتي عليك يوم يخاف الناس وأنت آمن، ويحزن الناس وأنت فرح، ويعذب الناس وأنت متنعم، ولا يكون ذلك إلا إذا أسهرت طرفك فيما نفعه عام وخيره عام للدين والدنيا مما به قوة السلطان وضعف الأعداء وثروة الإخوان وراحة الأبدان. فاعمل فعملك لله، واجتهد ولا تهمل في عملك فإن إهمالك في عملك وتهاونك بإتقانه بذهب عزة المسلمين ويمكن منهم أعداءهم، ويجعل إخوانك المسلمين يرغبون في صناعات أعدائهم فيحبونهم ويقلدونهم ويرغبون فيهم، فيكون ذلك ضياعا لسلطان المسلمين ولأمواتهم وفسادا في الدين. فأتقن عملك وانصح، واجتهد أن ترغب إخوانك في صناعات بلادهم بما تحترعه وما تتقنه والله ولي ووليك وهو حسبي ونعم الوكيل.

و كما أقامك الله عاملا بما به حفظ ثغور المسلمين وطيب حياتهم، فاجعل لك أيها الصانع وقتا تشكر فيه ربك على ما من عليك به من الأعمال النافعة لجميع إخوانك المسلمين، وتجالس فيه أهل العلم والتقوى لتنال سعادة الدنيا والآخرة. ولكنك يا أخي إذا كنت بياض نهارك بين الصانع، وفي وقت فضائك في مجتمعات اللهو والغفلة أو مع زوجتك وأولادك، ولم تجالس العلماء وأهل التقوى الذين تتعلم منهم الإخلاص في العمل وحسن النية في أعمال الدنيا لله رب العالمين حتى تكون صناعتك التي تعملها للدنيا نافعة لك يوم القيامة فتفوز بسعادة الدنيا والآخرة جميعا، كانت تلك المنافع العامة التي تقدمها لجماعة المسلمين لا أجر لها يوم القيامة. لأن ثواب يوم القيامة إنما يكون لعمل قصد به وجه الله تعالى، ولا يقصد العامل وجه الله تعالى إلا إذا كان عالما والله سبحانه وتعالى يمنح الصانع الرغبة في العلم النافع.

رابعاً: واجبات المزارعين :

أيها الفلاح أنت الذي يخرج الله على يدك خبايا الأرض وخفي كنوزها مما به غذاء الأبدان الحية وما به الأثاث والزينة والرياش. أقامك الله مقام العامل لنفع الكائنات الحية من أنواع النباتات والحيوانات، ولولاك أيها المسكين لجاعت الأبدان وفترت الأفكار. فما من زينة ظهرت ولا آلة اخترعت ولا أمن استتب ولا معارف ولا علوم نشرت ولا فنون شهرت ولا مساجد شيدت لعبادة الله ولا لذة فرح بها إلا بعد الراحة من الجوع والعري، ولا راحة منهما إلا بعملك الذي أقامك الله فيه وأمدك بالقوة المعينة لك عليه، فأنت مصدر كل خير وراحة وهناءة لجماعة المسلمين، إذا قمت بواجبك حق قيامك توفرت العدة والعدد وتجددت سنن رسول الله ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم، وعمرت مساجد الله سبحانه وتعالى وكثر شاكروه وذاكروه سبحانه. أقامك الله في عمل يشهد فيه العامل آثار قدرة القادر وآيات حكمة الحكيم، تقوم يا أخي فتشوق الأرض فيصب الله الماء صبا إما من السماء أو من النهار أو من العيون ثم تتوجه إلى بيتك وقد وضعت حبة من الجماد مية في أرض مية ولا قدرة لك على

غير ذلك، فتصبح يا أخي فترى الأرض اهتزت وربت واكتست بحلة سندسية ونما نباتها وأزهر، تشهد ذلك صباح مساء، وتشاهد من غرائب صنع ربك سبحانه وآثار رحمته مالا يشهده غيرك من بني الإنسان، ثم تدعي يا أخي أنك زرعت وتعبت وعملت وعملت، ثم تبخل بحقوق الله وتدعي أن ذلك ملكك جهلا منك بالواجب عليك لربك المنعم، ونسيانا بوصايا نبيك ﷺ الرؤوف الرحيم عليك. ينتج من ذلك ما تراه بعينك، تري الحبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة فكأن ربك في الواحدة سبعمائة، ولكن البركة نزلت من العمل فكأنك أيها الفلاح مع شهودك تلك البركات والخيرات لم تعمل شيئا، وذلك لأنك تسهر الليل والنهار في العمل الشاق ولا تعود لأهلك إلا بالخشن من اللباس والرديء من الطعام.

لم ذلك أيها الفلاح وأنت تفتح كنوز الأرض وتستخرج خباياها؟ أنبهك إلى سبب ذلك لعلك تتبته فتعود لك البركة وتفاض عليك الخيرات: ذلك لأنك تشهد آثار قدرة ربك وبديع صنعه وغريب آياته لتتذكر فتذكر وتشكر، فتتسى وتغفل وتجعل العمل إمالك أو للحاكم الذي أعانك بالماء أو الجسور. تنبه يا أخي: هل الحاكم أجرى لك الأثمار وأنزل تلك الأمطار وأوجد لك الأرض خصبة سهلة؟ تضيع الوقت في شكر الحاكم وذكره، فاحذر يا أخي أن ينتج نسيانك ربك إمساك السماء ماءها والأرض نباتها، وتنتشر جنود ربك في المزروعات فتفسدها وفي الأثمار فتغيرها، فإن الله غيور أن يهب نعمته لعبد يشكر غيره أو يمن على عبد يذكر غيره. أيها الفلاح تضر زراعة جارك لتتفع زراعتك، وتضييق أرضه لتوسع أرضك، وتحرم الورثة من الميراث لتكثر أطيانك، وتظن أنه يبارك لك في مالك أو بدنك أو أهلك أو زراعتك، وجهلت طريق البركة وسبيل النعمة، أتغضب ربك ويبارك لك؟ أو تسخطه ويعينك؟ وتحزن الناس بسلب أموالهم وظلمهم وتظن أنك تفرح في الدنيا أو الآخرة؟ لذلك ترى الفلاح الذي يعمل هذه الأعمال شقي الجسم والفكر في الدنيا فإن تاب وأقنع وأصلح عملا تاب الله عليه وسعد في الدنيا والآخرة. وإن دام على ذلك فلا يعلم

عاقبة أمره في الآخرة إلا الله تعالى. فتنبه أيها الفلاح الذي جعله الله مصدرا للخيرات ويدا عاملة لجلب المسرات ودفع المضرات إلي مقامك في الوجود، ومنزلتك بين إخوانك واشكر ربك على ما أولاك يبارك لك ويتولاك، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

خامسا: الواجب للوالدين:

لست في مقام تقرير حقيقة خفية ولكنها ثابتة شرعا وعقلا، وجليية تؤثر على القلوب والحواس تأثيرا يؤدي إلى الانفعال النفساني والجسماني بالعواطف والاعتقاد والانقياد وبالغيرة والحمية. ما لي وللتكلم في واجب فطرت على مراعاته النفوس الكريمة!! وجبلت على القيام به العقول السليمة، حتى صار من المقرر عقلا وعادة أن الولد إذا لم يقيم لوالديه فيما من شأنه أن يقوم به أهل العواطف ظلم أمه. وسمعت أن بعض أولياء الله المتوسمين جلس في مجلس فرأى رجلا يؤذي والده فذم الناس أم العاق، فقال الولي: الولد من ظهر أبيه إلا أن أباه كثير الحلف بالطلاق. فيظهر من هذا أن المرأة إذا حفظت فرجها وحفظ الرجل لسانه من يمين الفسق وبطنه من الحرام رزقه الله بأولاد برة يكونون له كعينه ويديه ورجليه.

و يعيشك أيها الأخ هل تتصور أن إنسانا عاقلا يتوهم أن اليد اليمنى تضر اليسرى أو تضر الرأس أو العين وهي جزء من الجسد؟ لا شك أنك تقول لا! لا أتصور ذلك، إذا فكيف تتصور أن خلاصة الجسد وصورته الحقيقية بل وثمره شجرته تؤذي الأصل؟ إلا أن تكون من أصل آخر لا يجمعها عليه أصول دانية ولا عالية. فالولد العاق إما أن يكون من حرام عملا أو غداء أو قولا، لأن الولد زهرة الشجرة التي هي الوالد والوالدة. والوالد والوالدة هما مظهر الشفقة والرحمة والحنان والبر والإمداد والإيجاد الإلهي، ولذلك فقد أوجب الله الشكر لهما، وجعل رسول الله ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم الجنة تحت أقدام الأمهات وجعل الوالد على باب الجنة. قال

سبحانه وتعالى: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾ وقال الله تعالى: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾ وقال ﴿وقال سبحانه وتعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير﴾.

وقال ﴿ﷺ﴾ في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله من أحق بحسن صحابتي - أو صحبتي - ؟ ﴿قال: أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أبوك﴾ (1) وقال ﴿ﷺ﴾: ﴿رغم أنفه، رغم أنفه، رغم أنفه، قيل من يا رسول الله؟ قال: من أدرك والديه عنده الكبير أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة﴾ (2) وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها أنها قالت: قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد قريش فقلت: يا رسول الله إن أمي قدمت علي وهي راغبة أفأصلها؟ قال: ﴿نعم، صليها﴾ (3). وفي الحديث الحسن عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿رضا الرب في رضا الوالد وسخط الرب في سخط الوالد﴾ (4) وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: ﴿الوالد أوسط أبواب الجنة فإن شئت على الباب أو

(1) أخرجه الشيخان وزاد مسلم فقال: ((نعم وأبيك لئنبأن)) تيسير الوصول للزيدي 46/4

(2) أخرجه مسلم في كتاب البر، وأحمد في المسند 5 / 29

(3) أخرجه البخاري في كتاب الجزية والأدب ومسلم في الزكاة، وأبو داود في الزكاة، وأحمد في المسند 6/344، 347، 355.

(4) أخرجه الترمذي في كتاب البر

ضيع ﴿⁽¹⁾﴾ هذه الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة قد بينت لنا حقوق الوالدين وشرحت لنا مقدار السعادة التي تنالها ببرهما والشقاء الذي يناله العاق.

من كمال البر للوالدين:

ومن كمال البر أن تبذل مالك وتحفظ ما لهما، وتأكل بعد أكلهما، وتنام بعد نومهما، وتلبس بعد لبسهما، وتجتهد أن تعمل ما يسرهما ولو كانا كافرين، حتى لو طلبا منك أن تسقيهما الخمر فاسقهما، وعليك أن لا تخالفهما إلا إن جاهدك على أن تشرك بالله ما ليس لك به علم فالواجب عليك أن لا تطيعهما كما قال: ﴿وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفًا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ ⁽²⁾ وإياك أن يدفعاك الطمع فتوفر مالك وتنفق من ما لهما أو تأخذ من مالهما شيئًا تدخره لنفسك أو لأولادك، أو تحمل امرأتك بشي لم تحمل به والدتك فإن ذلك عقوب لنفسك به يوم القيامة وتعاقب به في الدنيا بعقوب أولادك لك وكن على يقين أن برك لوالديك سعادة لك في الدنيا بالعافية في بدنك والنسيئة في عمرك والوسعة في رزقك. و نجابة أولادك وسرورك بهم، ولو تحققت ذلك يا أخي لبذلت النفس والنفيس في إدخال السرور علي والديك، فإنك لا تدري متى يفارقك. لو تصورت يا أخي كيف كانا يفرحان بك صغيرا، ويبدلان نفائس أموالها لسرورك، وكيف تحملت والدتك في حملك ورضاعك وفي ترميضك، وما تحمله والدك في تربيتك لبذلت وسعك لتسرهما وتكرمهما ليموتا راضيين عنك، داعيين لك، وتعيش بعدهما مطمئن القلب بأنك ستنال الخير ببركة دعائهما، والذرية الصالحة ببركة رضاهما، مع ما يحصل لك من

(1) أخرجه الترمذي في كتاب البر، وابن ماجه في كتاب الطلاق والأدب، وأحمد في

المسند/196، 445/6

(2) سورة لقمان - آية 15

البهجة والسرور عندما تتذكر أنك أحسنت إلي والديك وأن الله سبحانه وتعالى سيدخلك الجنة مع الأبرار البارين. تلك البهجة يا أخي خير من الدنيا وما فيها. و أظنك تقول: أبنائي وزوجتي، أنت يا مسكين لا تدري أهم أبنائك حقا أم التصقوا بك، ولا تعلم أرزقت بهم ليكونوا لك خيرا في الدنيا والآخرة أو شقاء لوالديهما في الدنيا والآخرة، فكيف يا أخي تترك الأمر الجلي خيره، البينة سعادته، وهو بر والديك الذين أحسنا إليك وأوجب الله عليك أن تقوم لهما بالإحسان، وتجتهد في الأمر المشكوك فيه الذي لا تعلم عاقبته وهو أن تدخر لأبنائك وتهمل الحقوق الواجبة عليك لوالديك؟ أعاذني الله وإياك يا أخي مما يوجب المقت والسخط. ولو أنك ادخرت لأبنائك نفسا عالية ترفعهم عن سفاسف الأمور، وعقلا ذكيا يعقلهم عن مهاوي المقت، وخلقًا جميلا حسنا تحسن به معاشرتهم لأرحامهم وأقاربهم، وكنزا من الدين يمنحهم الله به السعادة في الدنيا والآخرة لكان خيرا من نفائس الأموال وكنوز الذهب والفضة. والله تعالى يا أخي يجعلني وإياك من الأبرار البارين لوالديهم إنه مجيب الدعاء وصلي الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

و من بر الوالدين بعد موتهما الاستغفار لهما والصلاة عليهما، وصلة الأرحام التي توصل بهما وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وإكرام صديقيهما، ومن إكرامهما في حياتهما أن تبر يمينهما فتري الفاسق الغوي إذا مات والداه أو أحدهما دعاه الطمع الأشعبي والغرور بالدنيا ونسيان يوم الحساب أن يقوم فيحارب إخوته وأخواته، ويعتقد أنه لا عدو له في الأرض إلا أبناء والديه، وما ذلك إلا لأن الجهل أنزل المال عنده منزلة الإله المعبود الذي يأمره فيطيعه. ومن الضلال من يسلط الناس على إخوته الأشقاء أو أبناء العلات ليستريح من منافستهم له في هذا العرض الزائل. ولعمري أن هذا العمل لا يعمله رجل من أهل الجنة ولا من ذاق حلاوة الإيمان. كن يا أخي على يقين أنك إن بررت والديك بعد موتهما بصلة أرحامهما، إن الله تعالى يبارك لك بركة تدوم لك حتى تكون في الفردوس الأعلى، ومن اغتر بمال يفني ومملك يزول ورياسة

تتحول ورياش يبلى واستعان بأهل الزور والبهتان فقطع أرحامه ليكثر ماله فرحا بالمال والسيادة والرياسة، كان كمن عرض نفسه لشقاء الدنيا، فإن قطيعة الرحم تعجل عقوبتها في الدنيا، خصوصا وأن قطيعة الرحم عقوق للوالدين، وعقوق الوالدين موجب لسوء الخاتمة نعوذ بالله.

الواجب الثاني للوالدين:

أحق ما يجب للوالدين بعد موتهما دوام الصلاة عليهما والاستغفار لهما خصوصا عقب الصلوات الخمس وعقب مجالس الذكر والعلم، ويلى هذا الواجب واجب مقدس أوجبه الشرع وفطرت عليه النفوس الفاضلة وهو صلة أرحامهما، والأرحام في الأصل كل من لك به قرابة توصلها بك أمك نسبة للرحم، ولكن العرف الشرعي أطلق اللفظ وجعلها عامة لكل من لك به قرابة تدلي إلى أمك أو أبيك، وجعل قرابة الأم أولى بحسن العاطفة وإن كان للعصبة تأثير على النعرة بالنسب والحمية للقرابة، فابدأ أيها الأخ أيديك الله بالتوفيق بصلة أرحامك معتقدا أن ذلك سعادة لك في الدنيا والآخرة، وليكن ذلك بقدر استطاعتك. وابدأ بنفسك ثم بمن تعول. ومن يدفعه الأمل إلى الطمع فيقصر في حقوق الصلة ويحتال في سلب ما في أيديهم فيكون قد ارتكب جريمتين، جريمة التلصص وجريمة قطيعة الرحم. واللص الذي يتلصص على الأجنبي أقل وزرا منه. كيف يكون سرورك أيها الأخ إذا أنت أكرمت إخوتك وأقاربك وتحققت أن الله تعالى يكرمك في الدنيا بأن يجعل في قلوب أبنائك الرحمة والعاطفة لبعضهم وشهدت ذلك في حياتك، وانتقلت إلى الدار الآخرة شاكرا ربك على ما وهبهم من التعاطف والتواصل والتآلف والمساعدة والمساعدة إلى جلب الخير لبعضهم ودفع الضر عن بعضهم، وانتقلت إلى البرزخ فوجدت قبرك روضة من رياض الجنة فأكمل سرورك وتمت بمجنتك، ولم يكن ذلك كله يا أخي إلا لقيامك بالواجب لوالديك وأقاربك بما تفضل الله به عليك من حسن العناية والتوفيق لما يجب.

حالة العاق لوالديه:

ثم انظر يا أخي للعاق لوالديه القاطع لرحمه كيف تصب عليه البلايا في الدنيا صبا بكثرة القضايا والخصومات، ثم يجعل الله له أبناء فجرة يبددون ما جمع في حياته، وينغصون عيشه بما يقع بينهم من الخصومات والعداوات، وما يناله منهم من قبيح أعمالهم مع الناس حتى يتمنى أنه لم يكن تزوج، بل وأنه لم يوجد في الدنيا، فيعيش طول عمره في شقاء وكبائر حتى يفارق الدنيا فينتقل من آلام بدنية فكرية إلى حفرة من حفر النار، نعوذ بالله من قطيعة الأرحام. ولا يصبر أبناؤه حتى يواروه في التراب، بل تقع بينهم المنازعات والمخاصمات، وربما تلاكموا وتضاربوا بالعصي وتزاحموا على تفتيش الحجرة التي هو فيها، وربما وطئوه بالنعال وهو ملقى بينهم وهم الذين كان يسهر ليجمع لهم ويخاصم أقرابه ليجدد لهم.

انظر يا أخي بعينك عاقبة هذا الأمل وتناج هذا الطمع. صل رحمك يا أخي ليرحمك الرحمن، وأكرم أقاربك ليقربك القريب، وبر والديك ليبرك البر الودود، قال الله تعالى: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ وقال رسول الله ﷺ: ﴿من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره، فليصل رحمه﴾⁽¹⁾. وقال ﷺ: ﴿خلق الله الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقوى الرحمن فقال: مه، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطعية، قال ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك، قالت: بلى يا ربي، قال: فذاك﴾⁽²⁾ وقال ﷺ: ﴿صلى الله

(1) أخرجه البخاري في كتاب الأدب والبيوع، ومسلم في البر، وأبو داود في الزكاة
(2) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، ومسلم في البر، وأحمد في المسند 33/2-383.

عليه وآله وسلم: ﴿ لا يدخل الجنة قاطع رحم ﴾ (1) ﴿ أحاديث صحيحة ﴾ وفي الحديث الحسن يقول ﷺ: ﴿ لا تنزل الرحمة على قوم فيهم قاطع رحم ﴾ (2). وقال ﷺ: ﴿ ما من ذنب أحرى أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر في الآخرة من البغي وقطعية الرحم ﴾ (3)

الواجب الثالث للوالدين:

يجب عليك يا أخي أن تبر أهل ود أهلك ممن كان يودهم ويحبهم، ولا تشبهه يا أخي بمن أبعدهم الله عن أعمال الخير الذين إذا تمكنوا أساءوا إلى أهل ود والديهم، واضرب لك مثلاً: قد يكون للرجل ولد سييء ويكون لوالده إخوان صدق فيشدون على الولد، ويأمرون والده بالتشديد عليه ليتحسن مستقبله، فيظن الجاهل أن ذلك الرجل العاقل صديق أبيه يعين أباه على مضرتهم، فإذا توفي أبوه قام فحارب صديق أبيه وأذاه. وقد يكون الرجل متزوجاً امرأة غير أمه وتكون محظية عند والده محبوبة لديه ولم ترزق من أبيه بأولاد، فإذا مات أبوه قام فجعلها أعدي أعدائه وأشر ألدائه ولم يراع حقوق والده. وقد يكون عامل مخلص في عمله له محافظ على أمواله، ويكون الولد مسرفاً فيشدد عليه العامل وهو صادق أمين، فإذا تمكن المسرف من المال أو الميراث حارب العامل الصدوق الأمين وطرده من عمله ولم يراع حقوق والده. وقد ورد عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وأرضاهما أنه كان راكباً على جمل فمر به أعرابي فنزل عن الجمل فقابله وحياه، ثم أخذ بزمام الجمل وأعطاه إياه وانصرف، فقيل له: ما هذا؟ قال: هذا الرجل كان يضحك والدي إذا رآه فأحببت أن أبر والدي

(1) أخرجه مسلم في كتاب البر، وأحمد في المسند 2/484، 3/14، 83، 4 /

(2) وعند الطبراني عن عبد الله بن أبي أوفى أن النبي ﷺ وآله قال: ((إن الملائكة لا

تنزل على قوم فيهم قاطع رحم)) مجمع الزوائد 8 / 151

(3) أخرجه أحمد في المسند 5 / 36، 38

يا كرام من كان يضحك لرؤيته. وهكذا فليكن البر ومن هذا الإمام يؤخذ. فقم يا أخي يا كرام أهل ود أبيك لتكون بارا. ومن كمال البر وفاء عهودهما بأن تفي لهما بما عاهدا عليه بعد موتهما، وكن على يقين أنك تفوز بالمسرات في الدنيا والسعادة في الآخرة، والله تعالى يمنحني وإياك التوفيق لما يجب ويرضى إنه مجيب الدعاء.

نصيحة للأبناء:

يا بني، لا تجهل من أنت ولا ما يجب عليك ولا ما يجب لك، لعلك يا بني تظن أنك بما تجده من عواطف أمك وأبيك ومن حرصهما على سرورك وخيرك ومن بذل نفائس أموالهما فيما فيه راحة بدنك وزيادة صحتك أن ذلك واجب عليهما أو حق لازم عليهما لك فتجهل قدرك وتنسى قدر النعمة عليك من ربك، فتقوم مطالبا بحقوق توهمتها لم يوجبها الشرع ولم يستحسنها العقل، فتكلف والدتك بخدمتك أو تغضب عليها إن تماونت بشأنتك، أو تأبى أن تلبس أو تأكل ما قدم لك، أو تستقل ما أكرمك به، فتكون كالذباب الذي يطوف حول النار لا يرضي بضوئها وحرارتها حتى يسقط في لهبها، فإنك يا بني إن توهمت ذلك وقادتك رحمتهما وحنانتهم وعواطفهما لارتكاب شيء من ذلك، أسرع بأن تعلم منزلتك وأنب إلى ربك نائبا وإلى والديك متذللا متملقا. لم يبذلا لك ما بذلا من المال والنفس لواجب عليهما، بل لأنك زهرة شجرتهم ومرآة حقيقتهم، فإن نظرت إليهما بنظر الابن للوالدين نظر تعظيم وإطاعة لأمرهما وحب لهما ورغبة في نوال رضاهما، من الله عليك بأن جعل عاطفتهم عليك في مزيد، وجعلك لهما ظهيرا ونصيرا بعد كبيرك، فتكون لهما والدا شفوفا ويكونان لك كوالدين رحيمين. وتكون قد قمت بالواجب عليك لله ولرسوله وللوالدين.

يا بني، إن والديك لهما عليك بعد الله تعالى المنة، وقد اكتسبا من التجارب علوما تجهلها، فإياك يا بني أن تجتمع على أمثالك الصغار فيحسنون لك ما يقبحه والداك مما قد تراه حسنا في سنك، فإن ذلك ينتج احتقارك لوالديك ومخالفتك لأمرهما

والكذب عليهما والمضرة لمن اتصف بهذا. يا بني إنك في صغر سنك تستحسن أشياء هي في الحقيقة قبيحة، وتستقبح أشياء هي في الحقيقة حسنة، فجاهد يا بني نفسك أن تتروي قبل العمل، وأن تستشير والديك قبل الإقدام، وتعلم يا بني الملاحظة وتباعد عن كل عمل يضطرك أن تكذب على والديك، بل اترك كل عمل يلجئك أن تستحي منه إذا رآك غيرك. ثم اعمل بعد ذلك ما شئت. فإن أعمالك يا بني إن صدرت عن تقليدك لوالديك الحكيمين أو عن روية وملاحظة ولو كان العمل خطأ فإنك لا ترى نفسك ذليلاً عند تأديك عليه، بل تقبل اللوم والتأديب بسرور لأنك تحب الحسن من كل شيء، وتكره القبيح من كل شيء. يا بني لا تضع أوقات شبابك وفراغك من هوم الدنيا مادام والداك قائمين بما لا بد لك منه، أجهد نفسك يا بني في هذا الزمن لتتحصل على ما به تكون من أهل الشرف والمجد من العلوم الدينية ومن الأغنياء عن شرار الخلق بالصناعات والفنون، ومن المحترمين المعظمين عند الناس بالأخلاق والآداب، قبل أن تضطر لشغل قلبك وتعب بدنك في جلب مالا بد لك منه من قوت ولباس ومسكن وزوجة وخادم. يا بني، من شب على شيء شاب عليه. تجنب صحبة الأشرار والعمل الموجب للعار، واجعل لعبك فيما ينفع في منزل والديك من خدمتهما عند فراغك من التعليم، وتنظيم منزلك ونظافة ثيابك ومكانك، لتكون عوناً لوالديك من طفوليتك. وإذا من الله عليك بأن جعلك غنياً عن أشرار خلقه عالماً فكن رجلاً خارج المنزل، فإذا دخلت على والديك فكن طفلاً كما كنت أولاً، عبداً كما كنت سابقاً تملك ولا تملك، واجعلهما يديران لك شأن داخلك وإن أخطأ، وحسن شأن خارجيتك فإنك لا تدري متى يأتيهما الموت.

لعلك يا بني إذا تزوجت صارت زوجتك أحب إليك من أهلك وأهلك وإخوتك، وهي إنما رضيت بك لأنك قوي سوي غني، ولو ذهبت صفة من تلك الصفات ذهبت معها وكانت حرباً على زوجها، فاصحب زوجتك حذراً منها، واعلم أن حظك منها كحظ الحمار من الأتان وكن عبداً لله مطيعاً لوالديك. يا بني بعض الضالين الذين

حرموا الكمالات الإنسانية يتهاون بشأن والديه ويعتني بشأن زوجته أعوذ بالله أن
 أكون منهم أو تكون منهم، فإنهم عبيد لشهواتهم، وعباد الدراهم والدنانير أقرب منهم
 للإنسانية. انظر إلي والديك تراك غصن شجرتكما وصورة حقيقتكما وخلصتهما
 حياتكما، فلا تعبد يا بني شهوتك وتكفر بربك سبحانه وتعق والديك، واجعل
 والديك في أعلى المراتب من قلبك، واجعل زوجتك والمرحاض تأتيها عند الحاجة،
 وأكرمها بقدر تلك الحاجة، وقم لها بما فرض الله تعالى وما سنه رسول الله ﷺ صلى الله
 عليه وآله وسلم، ولا تنسى الفضل بينك وبينها، ولا تجعلها سببا في عقوق والديك
 وقطيعة رحمك، فإن الإنسان لا يدري لعله يجمع المال ويحرم منه أرحامه ثم تحوزه
 الزوجة وتنفقه على زوج أجنبي. أحب يا بني زوجة أبيك وإن كانت كدرا لوالدتك برا
 بوالدك، إلا أن توفيت والدتك فاجعلها في منزلتها وأحسب إخوتك منها كحسبك
 لإخوتك، واجعلهم لك أنصارا وأعوانا وكنوزا وجمالا لتكون كثيرا بهم. اجتهد يا بني إن
 كان وراثك والدك مجدا وشرفا أن تحافظ على ميراث والدك، وأن تجتهد في أن تزيد
 وتنمية ليحيى والدك، وإن وراثك مالا وعقارا فاجتهد أن تحفظ ميراث أبيك وأن تأكل
 من عرق جبينك، وتهتم أن يكون لك مالا وعقارا اكتسبته بنفسك لتورثه لأولادك
 كما وراثك أبوك، وعليك أن تجعل أهل بلدك يعلمون أن هذا العقار والمال ميراث
 أبيك لك ليحيى ذكر أبيك، وأن هذا المال والعقار هو ما اكتسبته بنفسك لتحيى
 ذكرك. واجتهد أن تورث أبنائك هذا المبدأ الشريف ليدوم عقار المسلمين وما لهم في
 خزائن المسلمين. واعلم يا بني أن بعض أهل الغواية الأندال المفسدين الذين هم مرض
 في جسم العائلات يتمنى الخبيث منهم أن يموت والده ليرث ماله، فإذا مات والده قام
 فبذل المال في شهواته وحظوظه حتى إذا لم يبق في يده ما يستعين به ندم ولات حين
 مندم، فتمني أن والده عاش له بعد أن أحوجته الضرورة إلي خدمة من كان خادما
 عنده أو ارتكب ما به يحشر إلي السجون أعاذني الله وإياك يا بني من أعمال الأشرار
 وفعل الخبثاء إنه مجيب الدعاء. وإلى هنا أقول لك أيها الولد البار: اجتهد في صحة

العلماء العاملين، وداوم على مجالسة الأتقياء الصالحين وتعلم منهم وتشبه بهم، والله يتولاني وإياك إنه ولي المؤمنين وصلى الله على سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم.

سادسا: بيان الحقوق الواجبة على المسلم لإخوانه:

سبق الكلام في الواجب عليك لنفسك ولربك سبحانه وتعالى ولرسول الله ﷺ ولأولي الأمر منا ولوالديك ولأرحامك، ولم نتكلم على الحقوق الواجبة على الزوج للزوجة والحقوق الواجبة على الزوجة للزوج والواجب على الوالد لأبنائه لأنه سبق شرح تلك المعاني في كتاب: (أصول الوصول) وكتاب: (معارج المقربين) وغيرها⁽¹⁾ في مواضعها الخاصة بها، والمراد بعون الله تعالى بيان الحقوق الواجبة على المسلم لإخوانه. وقد ثبتت تلك الحقوق شرعا بنص قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ وقوله تعالى: (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) وقوله تعالى: (إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم) وقال ﷺ ﴿تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إِنْ اشْتَكَى عَضُو تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَىٰ﴾⁽²⁾ وقال ﷺ: ﴿الْمُؤْمِنُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ، إِنْ اشْتَكَى عَيْنَهُ اشْتَكَى كَلَّهُ، وَإِنْ اشْتَكَى رَأْسَهُ اشْتَكَى كَلَّهُ﴾⁽³⁾ وعن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبَيْتَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُنَّ بَعْضًا، ثُمَّ شَبَكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ﴾⁽⁴⁾.

(1) تطلب مؤلفات الإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم من مكتبة دار المدينة المنورة 11 ش مجلس الشعب - القاهرة.

(2) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، ومسلم في البر، وأحمد في المسند 4 / 27

(3) أخرجه مسلم في كتاب البر، وأحمد في المسند 4 / 271، 276.

(4) أخرجه البخاري في كتاب الأدب.

وعنه عن النبي ﷺ أنه كان إذا أتاه السائل أو صاحب الحاجة قال: ﴿اشفعوا فلتؤجروا، ويقضي الله على لسان رسوله ما شاء﴾⁽¹⁾ وقال ﷺ: (انصر أحاك ظالما أو مظلوما، فقال رجل: يارسول الله أنصره مظلوما فكيف أنصره ظلما؟ قال: تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه)⁽²⁾ وقال: ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: ﴿المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات الآخرة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة﴾⁽³⁾ وقال ﷺ: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى ههنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات. بحسب أمريء من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه) وقال ﷺ: ﴿أهل الجنة أربعة، ذو سلطان مقسط، ومتصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال. وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زبر له⁽⁴⁾ الذين هم فيكم تبع لا يبتغون أهلا ولا مالا، والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خان، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك﴾ وذكر البخل والكذب والشنطير الفحاش. وقال

(1) أخرجه النسائي في الزكاة بلفظ: ((اشفعوا تؤجروا أو فتؤجروا))

(2) أخرجه البخاري في كتاب المظالم، والإكراه، والترمذي في الفتن، وأبو داود في الرق، وأحمد في المسند/3، 99، 21.

(3) أخرجه البخاري في كتاب المظالم، وأحمد في المسند/2، 68، 277، 36 311، 491/3، 66/4، 69، 24/5، 25 ومسلم والترمذي في كتاب البر.

(4) الذي لا قوة له.

﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾: ﴿والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه﴾ (1) وقال: ﴿والله لا يؤمن والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: من يارسل الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه﴾ (2) وقال ﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾: ﴿لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه﴾ وقال: ﴿ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه﴾ (3) وقال ﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾: ﴿إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الآخر حتى يختلطوا بالناس من أجل أن يجزئهم﴾ (4) وعن تميم الدارى أن النبي ﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ قال: ﴿الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة، قلنا: يا رسول الله لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعامتهم﴾ (5).

و عن جرير قال: ﴿بايعت رسول الله ﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم﴾ (6) هذه أحاديث صحيحة على شرط الشيخين رضي الله عنهما.

-
- (1) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان والترمذي في كتاب القيامة، والنسائي في الإيمان، وابن ماجه في المقدمة، والدارمي في كتاب الرق، وأحمد في المسند 3/176، 177، 4/233، 236
- (2) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، ومسلم في الإيمان وأحمد في المسند 1/387، 288/1، 366، 3/154، 198، 4/31، 6/385
- (3) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، ومسلم في البر وأبو داود وابن ماجه في الأدب، وأحمد في المسند 2/85، 16، 5/32، 365، 6/52، 91
- (4) أخرجه البخاري في الاستئذان، ومسلم في السلام، والترمذي في الأدب وابن ماجه في الطهارة والأدب، والدارمي في الاستئذان، ومالك في كتاب الكلام، وأحمد في المسند 1/431، 2/32.
- (5) أخرجه البخاري ومسلم في كتاب الإيمان.

و في الحديث الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت أبا القاسم الصادق المصدوق عليه السلام يقول: ﴿ لا تنزع الرحمة إلا من شقي ﴾ ⁽¹⁾ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء ﴾ ⁽²⁾ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا، ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر ﴾ ⁽³⁾.

سعادة الدنيا والآخرة بأحكام الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم:

هذه الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة النبوية تبين للمؤمن سبل الخير وتوضح مناهج السعادة وما من حكم من أحكام الشريعة المطهرة إلا وهو خير للمسلمين في الدنيا والآخرة. وأوجب الله سبحانه وتعالى علينا أن نجعل كل فرد من أفراد المؤمنين أختنا، وأوجب علينا أن نقوم بحقوق المسلمين بالتعاون والاتلاف والمحبة، وبين لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك بيانا جليا حتى صار كالمحسوس، وإليك ما نناله من الخير في الدنيا والآخرة باتباع سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، تعلم أيدك الله أن الناس محتاج بعضهم إلي بعض، وأن كل واحد من الناس لا ينال كماله بل ولا يحصل على ضروريه إلا بمعاونة الآخرين له، لأن الناس مطبوعون على النقصان ومضطرون إلي زوال هذا النقصان بالتمام، ولا سبيل لكل واحد أن

(1) أخرجه البخاري في الإيمان ومواقيت الصلاة والزكاة والبيوع والشروط والأحكام ومسلم في الإيمان، والترمذي في البر والنسائي في البيعة، والدارمي في البيوع، وأحمد في المسند 361، 358/4

(2) أخرجه أبو داود في الأدب والترمذي في البر، وأحمد في المسند 31/2، 442

(3) أخرجه أبو داود في الأدب والترمذي في البر.

(3) أخرجه الترمذي في البر، وأبو داود في الأدب، وأحمد في المسند 1 / 257 / 185/2، 27، 5 / 328.

ينال كماله بنفسه، فالضرورة داعية إلى التعاون والائتلاف والحاجة صادقة في ذلك وباعثة على حال تؤلف بين أشتات المسلمين ليصيروا بالائتلاف والاتحاد جسدا واحدا، حتى يقوم كل عضو من أعضائه بمفرده وبمعاونة الأعضاء على الفعل الواحد النافع ولا تنال العيشة الطيبة في الدنيا ولا السعادة الأبدية في الآخرة إلا بالاتحاد والتعاون. وإذا سعى كل فرد من المسلمين في الخير لجماعة المسلمين حصلت المودة فالمحبة فالصداقة، وللمحبة أنواع، فمنها ما ينعقد سريعا وينحل سريعا وهي المحبة للذة لأن اللذة سريعة التغير. ومنها ما ينعقد سريعا وينحل بطيئا وهي المحبة التي سببها الخير. ومنها ما ينعقد بطيئا وينحل سريعا وهي المحبة التي سببها المنافع. ومنها ما ينعقد بطيئا وينحل بطيئا وهي التي تتركب مما تقدم إذا كان فيها الخير. ولا تكون الصداقة صداقة إلا إذا كانت بين الأخيار لأن محبتهم لأجل الخير الحقيقي المقصود للأرواح. ولما كان الخير الحقيقي المقصود بالذات لا تتغير ذاته، صارت محبة الأخيار لا تتغير أبدا بل وتنمو في كل نفس. متي بلغت المحبة لدرجة الصداقة كان المجتمع الإسلامي بأجمعه يمثل الجناح المحمدي، لأن الخيرات الحقيقية تقسمت عليه وصارت مقاصدهم الخير المطلق الحقيقي. ما الذي ينتج عن ذلك يا أخي؟ ينتج عن ذلك عز المسلمين وقوة سلطانهم ورغد عيشتهم، وتقسيم السعادة بين كل فرد منهم حتى يكون كل فرد قد حاز قسطا عظيما من السعادة، وإذا حصل ذلك دان لهم الخلق أجمعون، وفتحت لهم كنوز السموات والأرض، وتوالت عليهم الغنائم وصارت كلمة الله هي العليا، وتجددت شعائر الإسلام وعمرت مساجد الله، وانتشر العدل بين العالم ولا يعلم قدر ما ينال كل فرد من النعيم الأبدي والسعادة الحقيقية يوم القيامة إلا الله تعالى. إذا تدبرت هذا علمت أن أحكام الله سبحانه وأحكام رسوله ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم بالعمل بها سعادة الدنيا والآخرة. ومعلوم أن الإنسان في هذه الدار الدنيا إما أن يكون وحده وقد تقدم الكلام على ما يجب على الشخص لنفسه، وبيننا تدبير النفس في: (معارج المقربين) وطرق تركيتها. أو يكون مع خواصه من والدين وأرحام وأهل وولد وأتباع، وتقدم الكلام على حقوق الوالدين والأرحام والأهل والولد

في كتابنا هذا، وتقدم الكلام على حقوق الجار والأتباع في كتاب: (أساس الطريق) عند ذكر الإنسان، أو يكون مع عموم الخلق وهذا الأمر الثالث هو المراد بيانه.

سابعاً: الواجب لعموم الخلق:

نبتديء بأقل الواجبات. أقل واجبات حسن الصحبة وكف الأذى عن جميع المسلمين لقوله ﷺ: ﴿المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده﴾⁽¹⁾ وفوق ذلك أن تنفعهم وتحسن إليهم وأن تحب لهم ما تحب لنفسك، وأن تتواضع لكل مسلم ولا تفتخر عليه، وإن تكبر عليه أحد من المسلمين فعليه أن يتواضع له لقوله تعالى: (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)⁽²⁾ وعليه أن يوقر المشايخ ويرحم الصبيان، وأن يكون مع كل مسلم مستبشراً طلق الوجه ليدخل عليه السرور، وأن يصلح ذات البين ولو بالمبالغة في الكلام. وعلي كل مسلم أن لا يسمع بلاغات بعض الناس لأن النفوس جبلت على حب الانتقام، وأن لا يهجر أخاه المسلم فوق ثلاثة أيام فإن ذلك ليس من خلق المؤمنين. وأن تحسن إلي كل أحد بقطع النظر عن كونه أهلاً أولاً، وأن تخالق الناس على قدر عقولهم ولا تنتظر من الجاهل ما تنتظره من العالم، وأن تنزل الناس منازلهم فتكرم أهل المكانة والجاه ولو في الدنيا. ومن أعظمها ستر عورات المسلمين وأن تتقي مواضع التهم حفظاً لقلوب المسلمين من سوء الظن وألستهم عن الغيبة، وأن تسعى لقضاء حوائج المسلمين ولو بشفاعة. ومنها المبادرة بالسلام على كل مسلم ومصافحته ليكون لك فضل البداية، وأن تنصر أخاك في غيبته بالرد عن عرضه وماله. ومنها مداراة أهل الشر لتسلم من شرهم. ومنها التردد على مجالس

(1) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، والرق، ومسلم في الإيمان، والجهاد والترمذي في القيامة، والإيمان والنسائي في الإيمان، والدارمي في الرق، وأحمد في المسند 16/2، 163، 154/3، 372، 215/4، 224، 21/6، 22

(2) سورة الأعراف - آية 199

المساكين والتباعد عن مجالسة الأغنياء فيأثم موتى القلوب. ومنها عيادة مرضاهم وتشيع جنازتهم وزيارة قبورهم والدعاء لهم في الغيبة وتشميت عاطسهم وإنصاف الناس من نفسه. هذه بعض الحقوق الواجبة على المسلم لإخوانه آثرنا ذكرها لتنبيه إخواني المؤمنين إليها ومراعاتها لتقوي المحبة وتجدد الصداقة وترضي الله ورسوله ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم، والله سبحانه أسأل أن يعيد للمسلمين مجدهم، وينظر إلينا جميعا نظر إحسان وود إنه مجيب الدعاء وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلي آله وصحبه وسلم آمين.

هذه هي الحقوق التي وردت بها الأحاديث النبوية الصحيحة وحث عليها القرآن المجيد، وهي حقوق تجب مراعاتها على كل مسلم لكل مسلم حتى يكون مسلما حقيقيا وبحسن مراعاتها تكمل الأخلاق ويسهل على المسلم حسن معاملة إخوانه المسلمين، وبذلك يكون مسلما كاملا وعضوا عاملا لخير المسلمين، ومن ذاق حلاوة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾⁽¹⁾ وإن كان سببها خاصا فحكمها عام، علم - حقيقة العلم - أن الواجب على كل مسلم لكل مسلم أمور وجدانية يمكن للمسلم أن يدركها من سر قوله ﷺ: ﴿أَحَبُّ لِأَخِيكَ مَا تَحِبُّ لِنَفْسِكَ﴾ والذي تحبه لنفسك لا يخفى عليك من الجاه والمنزلة والأمن والعافية وحسن السمعة ورغد العيش وغير ذلك مما لا يخفى على إنسان وهذا هو الميزان الحقيقي الذي به يكون المسلم مسلما بمعناه، ومن أحب أن يكون إماما للمتقين فالسبيل إلي نوال ذلك أن يتعلم أخلاق رسول الله ﷺ، وقد كتبنا نبذا من أخلاقه ﷺ الظاهرة في كتاب: (أصول الوصول) وكتاب: (معارج المقربين) فاجتهد يا أخي أن تطلع على تلك الأسرار في مواضعها، لتتجمل بتلك الجمالات لتكون من المحسنين، والله سبحانه

(1) سورة البقرة - آية 237

وتعالى أسأل أن يعاملنا بإحسانه، ويعيننا على حسن معاملة إخواننا إنه مجيب الدعاء آمين.

ثامننا: الواجب لمعلم الخير:

قال رسول الله ﷺ من حديث طويل: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ - حَتَّى النَّمْلَةِ فِي جِوَاهِرِهَا وَحَتَّى الْحَوْتِ - لِيُصَلُّوا عَلَى مَعْلَمِ النَّاسِ الْخَيْرِ﴾⁽¹⁾ قبل أن نتكلم عن الواجب في هذا الموضوع نبين الخير ومن هو معلمه الذي نقصد أن نشرح الواجب له في مختصرنا هذا.

بيان الخير المقصود ومن هو معلمه الحقيقي:

معلوم أن الخير هو المقصود للكل وكل ما سواه وسائل له، فكأنه المقصود لكل النفوس على السواء، والمقصود أولاً وبالذات وهو الحق تقديست ذاته وتنزهت صفاته تتأله لجنابه العلي النفوس الطاهرة، وتحن إليه الأرواح الملكية، فهو المقصد الحقيقي لأولي العزم من الرسل ولعالمين من الروحانيين، ولكل الأفراد الوارثين، ولأهل الخصوصية من أولياء الله المقربين، وما سواه من المقاصد وإن علا ومن المطالب وإن سما فهو بالنسبة للمقصود الأول وسائل توصل إليه، ومعارج تقرب إليه مشرقات دالات عليه، وإنما تشترك تلك النفوس الطاهرة إلى الفردوس الأعلى لا الفردوس وما فيها، أو تمنى الرضوان الأكبر لا لنيل الرضوان وإدراكه، إنما ذلك كله لحظة تؤدي إلى جلوة، وقرب بينيء بحب.

و الوسائل كلها إلى هذا المقصود الأعظم هي كالمقاصد لعظمتها. ولما كان معلم الخير يطلق ويراد منه كل من دل على خير ديني أو بدني أو دنيوي أو أخروي. كان هذا اللفظ عاماً يشمل معلمي الصناعة النافعة العامة ومعلمي الأخلاق والتهذيب. لأن

(1) أخرجه الترمذي في كتاب العلم.

من الصناعات ما هو ضروري للعمران لا يستقيم حاله إلا بها كعلوم الطب وفنون الزراعة والتجارات وفن تنظيم المدن وما لا بد للمجتمع منه من فنون العمارات، وما يتصل بذلك من فنون النسيج والخياطة والبناء وغيرها، فإن ذلك لا بد للمجتمع الإنساني منه، وبدونها لا يكون المجتمع فاضلا. ومعلموا الفنون أو الصناعات يعدون من معلمي الخير ويتصل بذلك علوم الأحكام والقضاء وإقامة الحدود وسياسة المدن. وقد قام العلماء فشرحوا فضل هؤلاء المعلمين وما لهم من الأجر عند الله تعالى.

و لكنى في مختصري هذا أتكلم على معلم الخير الحقيقي، وألمع إلي فضل معلمي الخير الذي هو وسائل للخير الحقيقي، فإن الزراع والتجار قاموا للمجتمع بعمل به اتسع الوقت وحصلت الراحة للقلوب والأبدان، فلو أن الزراع والتجار والصناع لاحظوا في أعمالهم حسن النية وقصدوا بذلك النفع العام بالمجتمع الإسلامي لكانوا كالمجاهدين في سبيل الله أو كالصائمين القائمين، فإن المزارع يتعب نفسه الليل والنهار ليربح بقية إخوانه، والتاجر يتعب نفسه، ويذل ماله ويشغل فكره ليأخذ ما زاد عن لوازم أمته ويرسله إلي البلاد المحتاجة له ويجلب لأمته ما هم في حاجة إليه من البلاد الأخرى، فهو في جهاد لو حسنت نيته وصدقت عزيمته وهو الأمين على المسلمين وعلي قلب نبي مالم يخن أو يغش المسلمين. والصانع مسكين يتعب جميع جوارحه ليعمل عملا به سرور إخوانه وراحتهم، فلو حسنت نيته ولاحظ جانب ربه في عمله كان كالمجاهد في سبيل الله. وأحل الأرزاق أرزاق الزراع والتجار والصناع إذا صدقوا، ومعلموا الصناعات أو التجارات أو الزراعات معلمون للخير المقصود لا بالذات ولكن للوسائل التي بها نيل الخير الذي لا بد منه للتوجه إلى هذا المقصد الأعظم الذي هو الخير الحقيقي فهو المقصود. وقد أثنى الله تعالى في القرآن على العاملين، المخلصين في المعاملة، أما معلم الخير الحقيقي بالذات دون غيره، إذ به سعادة الأبد والنعيم الحقيقي في الدنيا والآخرة، فإن معلم الخير الحقيقي هو الشمس المضيفة التي تبين سبل السعادة في الدنيا والآخرة، وتوضح الطريق المستقيم الذي يكون به الناهج عليه مع النبيين والصديقين والشهداء

والصالحين، فهو النجاة الحقيقية للعالم كله، والسعادة الحقيقية لبني الإنسان، ورحمة الله الحقيقية لمن اقتدي به وقبل وصاياه يعز الله به بعد الذل، ويغنى به بعد الفقر، ويقوي به بعد الضعف، سر قوله سبحانه وتعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ (1) وقال ﴿ﷺ﴾: (قال الله تعالى لإبراهيم: إني عليم أحب كل عليم) وعن أبي أمامة قال: سئل رسول الله ﴿ﷺ﴾ عن رجلين أحدهما عالم والآخر عابد، فقال ﴿ﷺ﴾: (فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم رجلا) (2)

معلم الخير الأول هو سيدنا رسول الله ﴿ﷺ﴾:

و معلم الخير الأول هو سيدنا ومولانا رسول الله ﴿ﷺ﴾، وقد سبق لك في الواجب عليك أن طاعته ﴿ﷺ﴾ هي طاعة الله، وأن مخالفته ﴿ﷺ﴾ معصية الله، ولسنا الآن بصدد شرح تلك المعاني بالنسبة لجنابه ﴿ﷺ﴾ لأننا قدمنا نبذا في الواجب لجنابه ﴿ﷺ﴾ في كتابنا هذا.

الوارث هو معلم الخير بعد رسول الله ﴿ﷺ﴾:

و المراد الآن أن نبين الواجب لوارث رسول الله ﴿ﷺ﴾ الذي هو معلم الخير بعد رسول الله ﴿ﷺ﴾ الذي هو حجة الله على خلقه، ونور تستبين به السنن وتتضح به السبل كما قال الله تعالى:

﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ولو رده إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ وقوله سبحانه: ﴿أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا

(1) سورة الأعراف - آية 96

(2) أخرجه الترمذي في كتاب العلم، وابن ماجة والدارمي في المقدمة.

له نورا يمشي به في الناس ﴿ وقوله سبحانه وتعالى: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ وقوله تعالى: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾. وسر قوله ﴿﴾: ﴿طلب العلم فريضة على كل مسلم﴾ (1) وقوله ﴿﴾: ﴿خيار أمتي علماؤها، وخيار علمائها فقهاؤها﴾ (2) وقوله ﴿﴾: ﴿يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين﴾ (3) وقوله ﴿﴾: ﴿على بخلفائي، قالوا من خلفاؤك يا رسول الله؟ قال: الذين يحيون سنتي يعلمونها عباد الله﴾ وقوله ﴿﴾: ﴿ما عبد الله بشيء أفضل من فقهه في الدين، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد﴾ (4) ولكل شيء عماد وعماد الدين الفقه وقال ﴿﴾: ﴿إن الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع العبد المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك﴾. وقوله ﴿﴾: ﴿تعلموا العلم قبل أن يرفع، ورفع ذهاب أهله، فإن أحدكم لا يدري متى يحتاج إليه أو متى يحتاج إلي ما عنده، وليحذر أن يطلبه لراء أو رياء، فإن المماري به مهجور لا ينتفع، والمرائي به محقور لا يرتفع﴾ (5)

(1) أخرجه ابن ماجه في المقدمة.

(1) وعن علي كرم الله وجهه قال: قال ﴿﴾: ((نعم الرجل في الدين إن احتجج إليه نفع، وإن استغنى عنه أغنى نفسه)) أخرجه رزين كما في تيسير الوصول للزبيدي 171 / 3.

(2) أخرجه أبو عمرو وغيره، القرطبي ج1، ص 36.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب العلم عن ابن عباس بلفظ تيسير الوصول 171/3 كما أخرجه ابن ماجه في المقدمة.

(4) أخرجه الدارمي في المقدمة: ((تعلموا العلم قبل أن يقبض))

والآيات القرآنية والأحاديث النبوية الواردة في الحث على العلم والثناء من الله سبحانه ورسوله ﷺ على العلماء المعلمين للخير لا تحصى ولا تعد.

الواجب لمعلم الخير في مقام البداية:

أول واجب عليك لمعلم الخير أيها الأخ المسترشد بعد أن تتحقق أنه معلم للخير وأنه دال على الحق وأنه على الصراط المستقيم، يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ويخالق الناس على قدر عقولهم، أن تفرغ قلبك وبدنك من الشواغل بقدر استطاعتك، وأن تتلقى منه العلم بقبول وإقبال بدون التفات أو شعور من نفسك بأنك تعلمت شيئاً في حال بدايتك، فإن ذلك ربما أدى إلي إظهار مبادئ العلم الذي تعلمته من العالم الرباني أمام الجهلاء أدعياء العلم فينكرون عليك في بدايتك، وأنت لا قدرة لك على إقامة الحجة وبيان المحجة، فيكون ذلك منتجاً لشكك في معلم الخير أو في اشتغالك بالخلق عنه، وأن تكون أمامه كمريض يستشفى، يشعر بالأم الجهل كما يشعر المريض بالأم المرض ويتمني عود العافية عليه كما يتمني المريض، وتتحقق أن هذا العالم الرباني هو الطبيب الذي يزيل أمراضك بما تتعلم منه. هذا في مقام البداية.

الواجب على من ذاق حلاوة العلم الرباني:

فإذا ذقت حلاوة العلم الرباني يجب عليك أن تكون كالميت بين يديه الذي يتحقق أن هذا المعلم يحييه من هذا الموت بما يجمله به من علوم الحكمة وأسرار المعرفة سر قوله تعالى: ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾⁽¹⁾ والاستجابة لمعلم الخير استجابة لله ولرسوله ﷺ، فإن أمراض القلوب والأمم النفوس أعظم وأشد في الحال والمآل من أمراض الأبدان والآم الجوارح، فإن أمراض الأبدان والآم الجوارح

(1) سورة الأنفال - آية 24

تفضي بالإنسان إلى الموت الذي لا بد منه، وأما أمراض القلب وآلام النفوس فإنها تفضي بالإنسان إلى جحيم الغضب وسقر المقت وجهنم الحجاب عن حضرة الله سبحانه وتعالى. ومن الواجب عليك أيها الأخ أن تتقرب إليه بما يجب لتشرح صدره، فإنك إن شرحت صدره بالتقرب إليه بما يجب أباح لك بغرائب العلوم وأسرار الفهوم وكاشفك بالمكنون، وتعلق له يا أخي فإن التعلق ليس من خلق المؤمن إلا في طلب العلم، كما قال ﷺ: ﴿ليس من أخلاق المؤمن الملق إلا في طلب العلم﴾. ويجب عليك يا أخي أن يكون تعلمك من العالم الرباني بعمله أكمل من تعلمك بقوله فإنه يعمل بالعزائم، وقد يقول بالرخص لمقتضيات، وتعلمك من سكوته أكمل من تعلمك بكلامه فإن سكوته علم وكلامه علم، وكن حاضر القلب والجسم معه إن استطعت، فإن غاب عنك يا أخي لا تحدث نفسك بأن تقوم لتعلم الناس ما تعلمته منه، فإن ذلك وقفة لك في طريق التعليم والتفات عن معلم الخير، ولكن كن رواية لعلومه ومحدثا عنه إن استطعت أن تميز بين مراتب النفوس وما يليق لكل نفس، فإن جهلت مراتب النفوس وما يليق لكل نفس فجاهد نفسك أن تعمل بما علمته منه، ليعلمك الله علم ما لم تعلم خشية من أن تنزل فيزل العالم بزلتك، ويتركك الناس ويذمون معلم الخير فتكون زلتك بدم معلم الخير وتنفير المسلمين منه شرا على الناس. إذا بلغ حبك لمعلم الخير مبلغا لا تستطيع أن تكتمه فجاهد نفسك أن تكون بواعث الحب معينة لك على الاقتداء والعمل بوصاياه، وإياك أيها الأخ أن تقوى عليك عوامل المحبة فتقوم معلنا أسرارنا ومبيننا أحواله ظنا منك أن الناس يحبونه كما أحببتهم، ويتنفعون به كما انتفعت به، فتخطيء السبيل وتفسد على العالم أحوالهم، فإنه لم يكاشفك بما كوشفت به من الأسرار إلا بعد تركية نفسك وعلمه منك الأهلية واعتقاده أنك على الصراط المستقيم.

و إياك أيها الأخ أن تدعوك المحبة إلى تنقيص العلماء ومجادلة الناس، فإن ذلك ليس من آداب المریدین الصادقین، و يجب عليك أيها المخلص أن لا تقلده فيما لم يستبن لك منه وجه التأويل إلا إذا أمرك.

صفات معلم الخير الحقيقي:

و معلم الخير الحقيقي لا يخفى على ذي عقل ولكني أشرح لك بعض صفات العلماء.

من أكمل صفاتهم الخشية لله والتواضع لله تعالى، والتباعد عن مجالسة الأمراء والحكام، ودوام الميل إلى الفقراء والمساكين، والعمل بما علموا، فمعلم الخير هو العالم الرباني الذي وصفه الله تعالى في كتابه وأثنى عليه، وقد وصفه سيدنا علي بن أبي طالب وفضله على الخلائق فقال في وصفه: ﴿القلوب أوعية وخيرها أوعاها، و الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق. العلم خير من المال، العلم يجرسك وأنت تحرس المال، والعلم يزكيه العمل والمال تنقصه النفقة، محبة العلم دين يدان به. يكسبه الطاعة في حياته وجميل الأحدثه بعد موته.

العلم حاكم والمال محكوم عليه، ومنفعة المال تزول بزواله. مات خزان الأموال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر. ثم تنفس الصعداء فقال: هاه. إن هاهنا علما جما لو أجد له حملة، بلى أجد لقنا غير مأمون يستعمل الدين في طلب الدنيا. ويستطيل بنعم الله تعالى على أوليائه، ويستظهر بحججة على خلقه، أو منقادا لأهل الحق ينزرع الشك في قلبه بأول عارض من شبهة لا بصيرة له. وليسوا من رعاة الدين في شيء لا ولا ذلك. فمنهوم باللذة سلس القياد في طلب الشهوات، أو مغرى يجمع الأموال والادخار منقاد لهواه أقرب شبيها بما الأنعام السائمة. اللهم هكذا يموت العلم إذا مات حاملوه. بل لا تخلي الأرض من قائم لله تعالى بحجة إما ظاهرا

مكشوفاً وإما خافياً مقهوراً لئلا تبطل حجج الله تعالى وبيناته، وأين أولئك ؟ هم الأقلون عدداً الأعظمون قدراً، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة، يحفظ الله تعالى بهم حججه حتى يودعوها نظراءهم ويزرعوها في قلوب أشباههم. هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين، فاستلنا ما استوعر منه المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الغافلون. صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك أولياء الله من خلقه وعماله في أرضه والدعاة إلى دينه، ثم بكى وقال: ﴿ واشوقاه إلى رؤيتهم ﴾ فهذه كلها أوصاف علماء الآخرة، وهذه نعوت علماء الباطن وعلماء القلوب لا علماء الألسنة.

و كذلك وصفهم سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه - في وصف العلم بالله تعالى فقال: ﴿ تعلموا العلم فإن تعلمه خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قرينة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والدليل على السراء والضراء والزين عند الأخلاء والقريب عند الغرباء، ومنار سبيل الجنة يرفع الله تعالى به أقواماً فيجعلهم الله في الخير قادة وهداة يقتدي بهم أدلة في الخير تقتفى آثارهم، وترمق أعمالهم، ويقتدى بفعالهم، وينتهى إلي رأيهم، وترغب الملائكة في خلقتهم وبأجنتها تمسحهم، حتى كل رطب ويابس لهم مستغفر حتى حيطان البحر وهوامه وسباع البر ونعامه والسماء ونجومها، لأن العلم حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظلم، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى، والتفكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام، به يطاع الله تعالى وبه يعبد وبه يوحد وبه يتورع وبه توصل الأرحام، العلم إمام والعمل تابعه، تلهمه السعداء وتحرمه الأشقياء ﴾ فهذه أوصاف علماء الآخرة ونعت العلم الباطن.

هذا ما أحببت أن أبين به صفات معلم الخير من كلام أئمة الصحابة رضوان الله عنهم ليتبين للمريد الصادق الأوصاف التي جعل الله بها عبداً من عباده كان ولا شك

معلما للخير. وقد سبق لي وصف العلماء الربانيين وشرح علاماتهم الظاهرة والباطنة في كتاب (أصول الوصول) عند ذكر علماء الآخرة وفي كتاب (معارج المقربين) عند ذكر العلم والإيمان. وفي (مذكرة المرشد والمسترشد) ⁽¹⁾ عند ذكر المرشد ونوابه. فمن أراد المزيد فليراجع تلك الكتب، إلا أنني أرى من الواجب علي أن أشرح بعض مشاهد العلماء العارفين بإيجاز خصوصا فيما يتعلق بعلم المعرفة والإيمان واليقين.

العلم والإيمان:

اعلم يا أخي وفقك الله تعالى أن تلك العلوم العالية من أخص علامات العالم الرباني لأنها مواهب من الله تعالى يتفضل بها سبحانه فضلا منه وكرما، وأما علم الأديان والتوحيد وعلم المعرفة واليقين فهو مع كل مؤمن موقن حسن الإسلام، وهو مقامه من الله وحاله بين يدي الله، ونصيبه منه في درجات الجنة به يكون من المقربين عنده والعلم بالله تعالى والإيمان به قرينان لا يفترقان، فالعلم بالله تعالى هو ميزان الإيمان به يستبين المزيد من النقصان، لأن العلم ظاهر الإيمان يكشفه، ويظهره، والإيمان باطن العلم يهيجه ويشعله، فالإيمان مدد العلم وبصره، والعلم قوة الإيمان ولسانه، وضعف الإيمان وقوته ومزيده ونقصه بمزيد العلم بالله عز وجل ونقصه وقوته وضعفه. وفي وصية لقمان الحكيم لابنه: ﴿يا بني كما لا يصلح الزرع إلا بالماء والتراب كذلك لا يصلح الإيمان إلا بالعلم والعمل﴾ ومثل المشاهدة من المعرفة من اليقين من الإيمان كمثل النشاء من الدقيق من الخنطة، والخنطة تجمع ذلك كله. كذلك الإيمان أصل ذلك والمشاهدة أعلى فروعه، كالخنطة أصل هذه المعاني والنشاء أعلى فروعها. فهذه المقامات موجودة في أنوار الإيمان بمدى علم اليقين.

(1) تطلب هذه الكتب وغيرها من مؤلفات الإمام أبي العزائم من مكتبة دار المدينة المنورة 11 شارع مجلس الشعب - القاهرة

مقامات المعرفة والمشاهدة:

ثم إن المعرفة على مقامين: معرفة سمع ومعرفة عيان: فمعرفة السمع في الإسلام وهو أنهم سمعوا به فعرفوه وهذا هو التصديق من الإيمان، ومعرفة العيان في المشاهدة وهو عين اليقين. والمشاهدة أيضا على مقامين: مشاهدة الاستدلال ومشاهدة الدليل عنها. فمشاهدة الاستدلال قبل المعرفة وهذه معرفة الخبر وهو في السمع، لسانها القول، والواجد بها واجد يعلم علم اليقين من قوله تعالى: ﴿من سبأ نبأ يقين إني وجدت﴾ (1) فهذا العلم قبل الوجد وهو علم السمع وقد يكون سببه التعليم. ومنه قوله ﷺ: ﴿تعلموا اليقين﴾ أي جالسوا الموقنين وسمعوا منهم على اليقين لأنهم علماءه. وأما مشاهدة الدليل فهي بعد المعرفة التي هي العيان، وهو اليقين لسانه الوجد والواجد بها واجد قرب. وبعد هذا الوجد علم من عين اليقين وهذا يتولاه الله تعالى بنوره على يده بقدرته، ومنه قوله ﷺ: ﴿فوجدت بردها فعلمت﴾ فهذا التعليم بعد الوجد من عين اليقين باليقين وهذا من أعمال القلوب وهؤلاء علماء الآخرة وأهل الملكوت وأرباب القلوب وهم المقربون من أصحاب اليمين وعلم الظاهر من علم الملك وهو من أعمال اللسان والعلماء به موصوفون بالدنيا وصالحوهم أصحاب اليمين.

فضل اليقين:

جاء رجل إلى معاذ بن جبل فقال: أخبرني عن رجلين أحدهما مجتهد في العبادة كثير العمل قليل الذنوب إلا أنه ضعيف اليقين يعتريه الشك في أموره، فقال معاذ: ليحبطن شكه أعماله. قال: فأخبرني عن رجل قليل العمل إلا أنه قوي اليقين وهو في ذلك كثير الذنوب، فسكت معاذ فقال الرجل: والله لئن أحبط شك الأول أعماله يره ليحبطن يقين هذا ذنوبه كلها، قال: فأخذ معاذ بيده وقام قائما ثم قال: ما رأيت

(1) سورة النمل - آية - 22 - 23

الذي هو أوفقه من هذا. وقد روينا معناه مسندا قيل: يا رسول الله رجل حسن اليقين كثير الذنوب ورجل مجتهد في العبادة قليل اليقين. فقال: (ما من آدمي إلا وله ذنوب ولكن من كانت غريزته العقل وسجيته اليقين لم تضره الذنوب لأنه كلما أذنب تاب واستغفر وندم فتكفر ذنوبه ويبقى له فضل يدخل به الجنة)

و روينا في حديث أبي أمامة عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿ ومن أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومن أعطي حظه منهما لم يبال ما فاتته من قيام الليل وصيام النهار ﴾ وفي وصية لقمان لابنه: يا بني لا يستطاع العمل إلا باليقين ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه، ولا يقصر عامل حتى يقصر يقينه، وقد يعمل العمل الضعيف إذا كان متيقنا أفضل من العمل القوي الضعيف في يقينه.

و من يضعف يقينه تغلبه المحقرات من الإثم. وقد كان يحيى بن معاذ يقول: إن للتوحيد نورا وللشرك نارا وإن نور التوحيد أحرق لسيئات الموحدين من نار الشرك لحسنات المشركين.

مقامات اليقين:

و اليقين على ثلاثة مقامات: يقين معاينة وهذا لا يختلف خبره فالعالم به خبير وهو للصديقين والشهداء. ويقين تصديق واستسلام وهذا في الخبر، والعالم به مخبر مسلم، وهذا يقين المؤمنين، وهم الأبرار، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ؛ كقوله تعالى جده: ﴿ وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ﴾⁽¹⁾ وقد يضعف هؤلاء بعدم الأسباب ونقصان المعتاد ويقوون بوجودها وجريان العادة، ويحجبون بنظرهم إلى الأواسط ويكاشفون بها. ويجعلون مزيدهم وأنسهم بالخلق، ويكون نقصهم ووحشتهم بفقدهم، ويكون من هؤلاء الاختلاف ويتلونون بالخلاف لتلوين الأشياء وتغيرها عليهم.

(1) سورة الأحزاب – آية 22

الأعمال القلبية الخاصة لمعلم الخير:

من الواجب عليك أيها المرید الصادق أن تعتقد أن له أعمالاً قلبية خاصة به وأن ذرة صغيرة منها خير من أمثال الجبال الرواسي من أعمال الأبدان، فلا تشبهه به في أعماله البدنية فإنه قد يقتصر على الفرض والسنة أمامك، فتظن بجهدك بأعمال القلوب أنه أقل عملاً منك، أو تقلده فتترك الرغائب والمستحبات من الأعمال. كما حصل لبعض الأئمة عليهم السلام وقد نزل ضيفاً على تلميذ له وكان التلميذ يقوم الليل أجمعه، فأحضر له الوضوء وانصرف عنه بعد نومه، وحضر إليه وقت الفجر فوجد العالم جالساً ووجد الماء الذي أعده له كما هو وكأن العالم نام بعد أن صلى العشاء الأخيرة، فتعجب التلميذ من وجود الماء كما هو. وبعد أن توضع الأستاذ وصلى الصبح أمره أن يحضر دواة وورقاً وأملى عليه أحكاماً شرعية استنبطها من آيات القرآن، وشرح له عدة آيات فهمها من كتاب الله تعالى في ليلته هذه.

فصغرت أعمال التلميذ في عينه وتحقق أن العلماء لهم أعمال قلبية خاصة بهم، وأن المرید الصادق يجب عليه أن يجاهد نفسه بالأعمال البدنية حتى يمنح الفقه في القلب ولديها يكون عاملاً بقلبه وبدنه. وقد جهل كثير من المریدين أعمال القلوب عند أهل القلوب، وشهدوا من العلماء الاقتصار على الفرائض والمسنونات، ورأوا بعض العباد يصومون الدهر ويقومون الليل فتعجبوا لخفاء السبب. اجعل معلم الخير كحقيقة جميلة أمامك وكن له كمرآة تنطبع فيها أخلاقه المحمدية وآدابه وعلومه وورعه ورحمته على إخوانه المسلمين، حتى تتكامل بكل معانيه وتكون له دالة على فضله وحجة له قائمة على علمه بأخلاقك الفاضلة وورعك عن الشبهات ومخالفتك للناس. واعلم حق العلم أنك إذا تهاونت في شيء من ذلك كنت كساع في ضرر نفسك وغيرك.

فضل العالم ومنزلته:

و إليك يا أخي ما ورد عن رسول الله ﷺ من الأحاديث الصحيحة: قال رسول الله ﷺ: ﴿ من دل على خير فله مثل أجر فاعله ﴾⁽¹⁾ وقال ﷺ: ﴿ من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء ﴾⁽²⁾ وقال ﷺ: ﴿ من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي ولا تزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك ﴾⁽³⁾ وقال ﷺ: ﴿ من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في مسجد من مساجد الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفت بهم الملائكة، وذكروهم الله فيمن عنده، ومن بطؤ به عمله لم يسرع به نسبه ﴾⁽⁴⁾ وقال ﷺ: ﴿ من سلك طريقاً يطلب فيه

(1) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة وأبو داود في الأدب والترمذي في العلم، وأحمد في

المسند 4/12، 5/274، 357

(2) أخرجه مسلم في كتاب العلم، والزكاة، والنسائي في الزكاة.

(3) أخرجه البخاري في كتاب العلم، والخمس، والاعتصام، ومسلم في كتاب

الإمارة، والزكاة، والترمذي في العلم، وابن ماجه والدارمي في المقدمة، والموطأ في

المقدر، وأحمد في المسند 1/36، 2/234، 4/92، 93

(4) أخرجه البخاري في كتاب المظالم، ومسلم في البر والذكر، وأبو داود في، والترمذي

في الحدود، والبر، وابن ماجه في المقدمة، وأحمد في المسند 2/91، 252

علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر ﴿⁽¹⁾﴾ (حديث حسن)). وقال أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه: ذكر لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم. قال رسول الله ﷺ: ﴿ فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم ﴾ ثم قال رسول الله ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض - حتى النملة في جحرها وحتى الحوت - ليصلون على معلم الناس الخير ﴾ ⁽²⁾ وقال رسول الله ﷺ: ﴿ طلب العلم فريضة على كل مسلم ﴾ وقال ﷺ: ﴿ فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ﴾ ⁽³⁾ وقال ﷺ: ﴿ من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع ﴾ ⁽⁴⁾.

هذه الأحاديث تبين لنا فضل العالم ومنزلته التي يجب أن ننزله فيها، وهي شراب ظهور للصادقين من المريدين يتناولون منها أسرار الواجب لمعلم الخير والآداب الواجبة له فإن رسول الله ﷺ حصر الخير كله في العلم ولا علم، إلا بمعلم، فكان الخير جميعه لا ينال إلا بمعلم.

(1) أخرجه أبو داود والترمذي، والبخاري في كتاب العلم وأحمد في المسند 452/5، والنسائي في النكاح.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب العلم، وابن ماجه والدارمي في المقدمة.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب العلم، وابن ماجه في المقدمة.

(4) أخرجه الترمذي في العلم، وابن ماجه في الجهاد.

الواجب في صحبة العالم الرباني الوارث لرسول الله ﷺ:

يجب عليك يا أخي أن تنتهز فرص انشراح صدر معلم الخير وتسأله بآداب متعلم وسلوك متفهم عما لا بد لك منه، وأن تلازم مجلسه، وأن تنافس في القرب منه، فإن كنت جيد الفهم والحفظ فاحفظ ما يلقى عليك من العلوم النافعة، أو اجتهد أن تكتب ذلك إن لم تكن جيد الحفظ، ولكن احذر أن تطلع عليه غير أهله إن كان من أسرار الحكمة أو من المكنون حتى تضعه في صدور أهله، وإن كان من الأحكام أو من الإنذار أو من التبشير مما ينفع إعلامه ولا يضر، يجب عليك يا أخي أن تذكر به إخوانك المؤمنين. ويجب عليك أن تعين معلم الخير بنفسك وبمالك وبجاهك حرصاً على دوام صفاء قلبه، لأن عناءه في طلب الرزق أو من الخوف من الخلق يشغل قلبه ويضيع وقته فيضيع العلم، واجعل صحبتك له خالصة لله سبحانه وتعالى ولرسوله ﷺ، واجهد نفسك حتى تذوق حلاوة أنك بصحبة العالم الرباني كأنك في معية رسول الله ﷺ.

لأن العالم الرباني وارث رسول الله ﷺ، والوراث ينفق من مال مورثه، وميراث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام العلم والحكمة. وتحقق أيها المرید المخلص أن العالم الرباني أنزله رسول الله ﷺ منزلة الأخ لجنابه ﷺ كما ورد بسند الإمام مالك في الحديث الطويل قوله ﷺ: «واشوقاه لإخواني الذين لما يأتوا بعد إلى قوله ﷺ: يجيئون سنتي بعد مواتها»⁽¹⁾ وسر ذلك يا أخي والله أعلم أن سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ خاتم النبيين فلا نبي بعده ﷺ، ومن إكرام الله تعالى

(1) عند الترمذي في العلم . وابن ماجه في المقدمة بلفظ: ((من أحيأ سنة من سنتي قد أميتت بعدي فقد أحبني)) ومن طريق رزين على ما في تيسير الوصول بلفظ: ((من أحيأ سنة من سنتي بعدي فقد أحبني ومن أحبني كان معي)) تيسير الوصول .171 / 3

لأمة حبيبه ﷺ أن جعل العلماء الربانيين ورثة لرسوله ﷺ، يقيمون حجج الله سبحانه ويمجدون سنن رسول الله ﷺ. ومن الواجب عليك يا أخي لمعلم الخير أن تنشر محاسنه بين إخوانك المؤمنين بحالة متوسطة لا تنفر القلوب منه بالمبالغة، ولا تفسد القلوب بأن تذكر ما أكرمه الله به من الكرامات وتنسى ما من الله به عليه من العلم والأخلاق والورع والتواضع والإخلاص.

و اعلم يا أخي أنك كما لا يمكنك أن تتعلم الأحكام الظاهرة إلا بمعلم عالم بها حي، فكذلك يا أخي لا يمكنك أن تتعلم علوم اليقين وأسرار أهل التمكين وتذوق حلاوة التوحيد، وتشهد أنوار التنزيه والتفريد وتتجرد من أحوال الإطلاق والتقييد إلا بالعالم الحي الرباني، الذي يشرح لك أسرار العلوم ويبين لك غوامض الفهوم، فلا تك ممن حجبته المعاصرة فحرم إمداد الحي القيوم، واحتقر أهل زمانه واستصغر أهل عصره، فإن فضل الله لا يقيد بزمان ومكان. ما يضرك يا أخي لو أنك سلمت للعالم فسلمت من عقوبة الإنكار؟ أو أقبلت عليه فواجهك الله بالأنوار؟ وأهم واجب لمعلم الخير يا أخي أن يكون حبك له وحضورك عنده وإقبالك عليه وبذلك له خالصا لوجه الله الكريم وابتغاء فضله ورضوانه سبحانه وتعالى، ورغبة الانتشال من أحوال التوحيد والسلامة والعافية من أمراض الجهل وآلام الغفلة، عاكفا بقلبك وجسمك عليه بإخلاص النية وصدق الطوية، لأن من صحب العارف لغرض من أغراض الدنيا أو حظ من حظوظ نفسه عجل الله له ما يريد وحرمه أجر يوم القيامة سر قوله ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿من تعلم علما مما يبتغي به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة ((يعني ربحها))﴾. واحذر يا أخي أن تصحب العالم الرباني وتلقي العلم منه لمجادلة العلماء ومعارضة السفهاء وقهرهم لتعظم في أعين الناس وترفع درجتك عندهم، فإن ذلك ربما أدى إلى سوء الخاتمة. قال ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿من طلب العلم ليجادل به العلماء أو ليماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار﴾.

فإذا من الله عليك يا أخي بالعلم فأخلص الله سريرتك عاملاً به بصدق وعلمه لإخوانك المؤمنين ابتغاء وجه ربك العظيم، زاهدا ما في أيديهم غير ملتفت إلى ثنائهم عليك وإقبالهم، ولا ذمهم لك أو إدبارهم عنك. وسمع يا أخي هذا الحديث الصحيح، قال ﷺ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يَقْضَى عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ فَأَتَى بِهِ اللَّهُ فَعَرَفَهُ نَعْمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنَّ يُقَالُ رَجُلٌ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلِمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأَتَى بِهِ فَعَرَفَهُ نَعْمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلِمْتَهُ وَقَرَأْتُ الْقُرْآنَ لِيُقَالُ هُوَ قَارِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسِعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأَتَى بِهِ فَعَرَفَهُ نَعْمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا. قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يَنْفُقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالُ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ﴾⁽¹⁾.

و احذر أيها المرید الصادق أن تجعل نعم الله عليك سبباً في العذاب يوم القيامة باستعمالها في غير ما أحب الله تعالى أن تستعمل فيه، فإن من المریدین من إذا أحب العالم الرباني دعاه حبه لجهله إلى المبالغه فيه وانتقاد من سواه والاعتراض على غيره فيكون قد فتح باب فتنه، والمرید الصادق يتأدب بآداب القرآن فإنه إذا جلس يذكر محاسن المرشد يجب عليه أن يحافظ على كرامة العلماء، فإذا ذكر أمامه عالم من السابقين أو المعاصرين أثنى عليه بما يعلمه اقتداء بالقرآن المجيد سر قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ

(1) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، والنسائي في الجهاد، وأحمد 322/2

رؤوف رحيم ﴿١﴾ ليرضى الله سبحانه ورسوله ﷺ: ويحصن قلوب إخوانه من دسائس الشيطان الرجيم. فإنه إن لم يعمل ذلك تمكن الشيطان منه ومن إخوته المؤمنين وجعلهم أعداء لمعلم الخير. وقد بينت مراتب الرجال والواجب على المرشد للمرشد والواجب على نواب المرشد في كتاب (مذكرة المرشدين والمسترشدين) بما أغني عن الإطالة في هذا المختصر، على أني يسرني أن يكون كل أفرد من افراد المسلمين لكل العلماء والمرشدين معينا لهم فرحا بهم، ليتلقى عنهم الخير ويترك أعمالهم التي تخالف الشرع الشريف لأن الدعاة إلى الخير ليسوا معصومين. وما أضربنا - جماعة المسلمين - إلا التفرقة والاختلاف والانكار والجدل، ورب رجل مسكين تنكر عليه وتعارضه وهو عند الله عظيم، وماذا يضربنا لو أننا تلقينا العلم من كل عالم ونتخلق بأخلاق رسوله ﷺ

﴿٢﴾، فإن العلم كله في العالم كله وقد الله تعالى: (وقل رب زدني علما) (٢) والله سبحانه وتعالى يوفقنا جميعا للعمل بما يحب ويرضى ويفهمنا أسرار كتابه ويجملنا بالعمل بسنة رسوله ﷺ، إنه على كل شيء قدير وصلى الله على سيدنا محمد وآله وورثته والتابعين.

(1) سورة الحشر - آية 1

(2) سورة طه - آية 114

الباب الرابع الجهاد والمجاهدة الجهاد

الجهاد بذل ما في الوسع في سبيل الله تعالى، وهو مقبول على معنيين الأول إعلاء كلمة الله تعالى، الثاني الرباط لحفظ ثغور المسلمين ودفع العدو عند هجومه على جماعة المسلمين، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ {10} تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {11} يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلِكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (1) وفي الخبر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها، قالوا: أفلا نبشر الناس) (2) وقال ﷺ: ﴿إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَأَسْأَلُوهُ الْفَرْدُوسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ﴾ (3) وقال: ﴿مَنْ أَنْتَدَبَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يَخْرُجُهُ إِلَّا بِإِيمَانٍ بِي وَتَصَدِيقٍ بِرَسُولِي أَنْ أَرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ أَوْ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ﴾ وقال: (والذي نفسي بيده لولا أن رجلا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن

(1) سورة الصف - آية 1-12

(2) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، والتوحيد، وأحمد في المسند 2/335، 339

(3) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، والترمذي في الجنة والإيمان، وأحمد في المسند 2/321،

سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لوددت أني أقتل في سبيل الله، ثم أحيأ ثم أقتل) وقال: ﴿رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها﴾⁽¹⁾ عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: (جاء رجل بناقة مخطومة فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ وآله: ﴿لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة﴾⁽²⁾.

و عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله، وعيت باتت تحرس في سبيل الله﴾⁽³⁾ وعن معاذ عن رسول الله ﷺ قال: ﴿الغزو غزوان، فأما من ابتغى وجه الله وأطاع الإمام وأنفق الكريمة ويأسر الشريك واجتنب الفساد فإن نومه ونبهه أجر كله، وأما من غزا فخرا ورياء وسمعة وعصى الإمام وأفسد في الأرض فإنه لم يرجع بالكفاف﴾⁽⁴⁾ عن عبد الله بن عمرو أنه قال: يا رسول الله أخبرني عن الجهاد، فقال: ﴿إن قاتلت صابرا محتسبا بعثك الله صابرا محتسبا، وإن قاتلت مرأثيا مكاثرا بعثك الله مرأثيا مكاثرا، يا عبد الله بن عمرو على أي حال قاتلت أوقلت بعثك الله على تيك الحال﴾

كل مسلم مطالب بالجهاد:

و الجهاد تعزتيه أحكام شرعية: فقد يكون فرض عين وقد يكون فرض كفاية وقد يكون سنة مؤكدة. تفصيل ذلك مبين في كتب الفقه، وما من مسلم إلا وهو مطالب بالجهاد بقدره، إما بإعداد المعدات أو بما وبنفسه. فعلى العالم المتفطن أن يجتهد في اختراع ما به قوة سلطان المسلمين، وعلى التاجر أن يجتهد في جلب ما به قوة

(1) أخرجه البخاري في الإيمان، والنسائي في الجهاد والإيمان، وأحمد في المسند 321/2، 384.

(2) أخرجه البخاري في كتاب الوصايا، والجهاد، وأبو داود في المناسك، والنسائي في الأجناس

والدارس في الوصايا

(3) أخرجه الترمذي في الفضائل والجهاد

(4) أخرجه أبو داود في الجهاد والنسائي في البيعة والجهاد، والدارمي في الجهاد، وأحمد في المسند

المسلمين، وعلى المزارع أن يعد ما به مساعدة المجاهدين. فكل مسلم في كل نفس يجب أن يكون مجاهدا في سبيل الله وليس الجهاد قاصرا على مجاهدة العدو فإن من جهز غازيا كأنه جاهد في سبيل الله. وعلى معلم الصبيان أن يبت فيهم روح الغيرة على الدين والمدافعة عنه وعن أهله والجهاد هو العبادة التي تنبيء بكمال الإخلاص لله تعالى والتصديق لما بشر الله به. وقد كان النساء يجاهدن في سبيل الله بما استطعن إما بالغزل أو بالنسيج أو بتجهيز الأغذية أو بضماد الجروح أو بنقل الماء حتى كانت المرأة تقص شعرها ليكون قيذا لدابة يجاهد عليها مسلم في سبيل الله لتكون جاهدت، حتى كان كل مسلم وكل مسلمة في كل نفس يرى نفسه مجاهدا بأى معنى من معاني الجهاد، حتى الأعمى فإنه كان يتوجه إلى بيوت إخوانه المجاهدين ليقضي لهم حاجتهم ليكتب عند الله مجاهدا.

و الجهاد ينتج نتيجتين حقيقيتين: الأولى: علو الكلمة وعز أهلها والغنيمة. الثانية: الحياة الطيبة في فردوس الله الأعلى والفوز برضوانه الأكبر. ولم تر عيني ولم تسمع أذني بتجارة تربح هذا الربح أبدا إلا الجهاد في سبيل الله، وإني على يقين أن أصغر مسلم يعلم أن كلمة الله لا تعلق إلا به، وأن العز الحقيقي لا يكون إلا بالجهاد، ولا شرف ولا مجد أعلى من هذا، أسأل الله تعالى أن يكشف لقلوبنا حقيقة الجمال الرباني الذي به ننجذب بكليتنا إلى الرضوان الأكبر.

المجاهدة:

قال الله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ وقال تعالى: (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) وعنه ﴿ﷺ﴾ أنه قال: ﴿جئتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر قيل يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد المرء هوأه﴾ وقال ﴿ﷺ﴾: ﴿ليس الشديد بالصرعة، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند﴾

الغضب ﴿١﴾ والمجاهدة بذل الوسع في فعل ما يرضي الله تعالى وترك ما يسخط، وبالمجاهدة تحصل رياضة النفس. ومن زين ظاهره بالمجاهدة زين الله باطنه بالمجاهدة ومن لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من عرف الطريقة شمه. وقال سهل بن عبد الله: ما عبد الله بشيء مثل مخالفة النفس والهوى، ومن جعل زمامه في يد الشرع قاده إلى النور، ومن جعل زمامه إلى الهوى قاده إلى الظلمة. وكذلك قال الله تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور...﴾. وورد في الحديث أن المعاصي إذا كثرت يَحْتَم لصاحبها بالكفر والعياذ بالله تعالى.

و ممن أقيم في المجاهدة من الصحابة رضوان الله عليهم عبدة بن هلال، وكان قد أقسم على نفسه أن لا يشهد عليه ليل بنوم ولا شمس بظل أبدا فأقسم عليه عمر أن لا ينهك نفسه ويرفق بها. وقال إبراهيم بن أدهم: لا ينال الرجل رتبة الصالحين حتى يجوز ست عقبات، الأولى: يغلق باب النعمة ويفتح باب الشدة. الثانية: يغلق باب الراحة ويفتح باب التعب. الثالثة: يغلق باب العز ويفتح باب الذل. الرابعة: يغلق باب النوم ويفتح باب السهر.

الخامسة: يغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر. السادسة: يغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت. والمجاهد لنفسه في رضاء الله تعالى تعترضه المحن والشدائد ويتعاهد بالبلايا حكمة من الله تعالى لصالح العبد ولطفا به في آخرته، ليعوضه بذلك بالملك العظيم وسعادة الأبد إن صبر ورضي. وفسر العلماء بالله تعالى المحن بستة أشياء، والأول: الأمر والنهي مع غيبوبة الثواب والعقاب. الثاني تركب الهوى. الثالث: تطيع الشهوات. الرابع: تسليط الشيطان. الخامس: خلق المشتبهات. السادس: تحببه للكسل والراحة.

(1) أخرجه البخاري في الأدب، ومسلم في البر، والموطأ في حسن الخلق، وأحمد في

الحكمة في الابتلاء والامتحان:

و الحكمة في الابتلاء والامتحان شيئان: أحدهما: التمييز بين المطيع والعاصي بالفعل ليظهر في الدنيا من المطيع طاعته ومن العاصي عصيانه، قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾⁽¹⁾ أي حتى نعلم ذلك منكم واقعا لأن الموجود قبل الابتلاء إنما هو العلم بأنه سيوجد من العبد طاعة أو عصيان، وعند الابتلاء يحصل العلم بوجود الطاعة أو المعصية من فاعلهما. والثاني: ليستوجب من صبر الثواب ومن جزع العقاب. وقال بعض أهل المعرفة: البلوى أدب للظالم وسياسة ورياضة للتائب، وتفقد وتطهير للأولياء، وعبادة للأنبياء، وشدد الله البلاء على الأنبياء والخواص من أتباعهم ليكونوا دائما في التضرع إليه والمناجاة معه، لأن الله تعالى يبغض الدنيا فامتنحن أوليائه فيها لثلا يميلوا إلي مبغوضة. ومن المحن أن يجعل الله الطاعة ثقلية والمعصية خفيفة، قال

﴿حَفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحَفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ﴾ والحكمة في ذلك كما قال سيدنا على عليه السلام: ﴿لثلا يأتي بابه كل سفلة﴾ وقال بعضهم: ما الذي يقطع العبد عن الله تعالى بعد وصوله إليه؟ فقال: الواصل على ثلاثة أقسام: واصل إلي الآخرة يقطعه الميل إلى الدنيا، وواصل إلي الدرجات والأحوال يقطعه حب الشهوات في الآخرة، وواصل إلي الله ولا مطمع للقطع فيه لقوله تعالى: ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا﴾⁽²⁾ وفي الخبر عن بعض الأكابر: (ما رجع من رجع إلا من الطريق ولو وصلوا ما رجعوا).

و اعلم أن هذا الزمان لا يصل أحد فيه إلي شيء من الحقيقة إلا بدبح نفسه بالصبر وقتلها بالجوع والفقر والذل، وتقريبها بالذكر والعلم، وهدم الدنيا باليقين والزهد، وعمارتها بالمعرفة والطاعة، ومجاهدة الأعداء واستتصالحهم وهم الهوي والشهوات

(1) سورة محمد - آية 31

(2) سورة النحل - آية 99

والشيطان، واعلم أنك مطبوع على أمور منها حسنة ومنها سيئة، فأعدّي أعدائك سيئات طباعك وأولي أوليائك حسناتها، فقابل السييء من طباعك بالحسن منها، واطلب من الله تعالى المعونة والصبر والنصر فقد بليت في حرب بها ومكايدها وجهادها بجرّب لا حرب أنفع منه لك، فإن رزقت الظفر وإلا فأنقص ما عليك الهزيمة منها فقد كان النبي ﷺ يأمر الصحابة بالجد والجهاد في العبادة وكان يداويهم بالدواء البالغ النافع، فمن رآه قد أهلك نفسه في العبادة أمر بالرفق بنفسه فقال لحنظلة بن الراهب لما قد أهلك بالعبادة: ﴿ يا حنظلة ساعة وساعة ﴾ وقال لغيره: ﴿ جدوا واجتهدوا ﴾. والمجاهدة سفينة النجاة تنتهي بصاحبها إلي بر السلامة، ومجاهدة الصديقين مع الحظرات، ومجاهدة الأبدال مع الفكرات، ومجاهدة الزهاد مع الشهوات، ومجاهدة التائبين مع الزلات.

المسارعة لنيل السعادة:

اعلم أن السعادة التي تجاهد لنيلها والشقاوة التي تجاهد لنفسك على النجاة منها لا نهاية لها ولا انقضاء ولا آخر، بل ذلك أبد الآباد، لا يتصرم بتصرم الأحقاب والآباد، بل لو قدرنا الدنيا مملوءة من الدخن من مشرقها إلى مغربها، وقدرنا طائرا محتظفا في كل خمسمائة ألف سنة حبة واحدة من ذلك الدخن، لفني الدخن ولم ينقض ذلك الشقاء ولا ذلك النعيم، لأن الأبد لا ينقضي. وهذه الشقاوة الدائمة فيها أنواع البلايا والآلام والعقوبات والحسرات ما قد شرّحه الله تعالى في كتابه وأخبر بهنبيه ﷺ مجملا ومفصلا، وأما السعادة فهي لذة وسرور بلا كدورة، وغني بلا فقر، وكمال بلا نقصان، وعز بلا ذل، وراحة بلا تعب، وبالجملة فهي كما أخبر الله تعالى في كتابه

وقال تعالى: ﴿ وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين ﴾ (1) وقال تعالى: ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ (2)

وكما قال ﷺ: ﴿ إن الله أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴾ (3) فمثل هذا لا يحتاج إلى الإحاث في طلبه ويقبح الفتور عنه. إذ كل عاقل مسارع إلى أقل منه لا يصرفه عنه كون الطريق إليه متوعرا، ويحوج إلى ترك لذات الدنيا واحتمال أنواع من التعب، فإن مدة الدنيا واحتمال التعب فيها بالمجاهدة والعبادة قصيرة والغاية من اللذات والشهوات فيها قليل، تنقضي وتنصرم عن قريب، فإن مدة عمر الإنسان في الدنيا قصيرة بل ما يبقى من عمر الإنسان في الدنيا بالإضافة إلى ما مضى منها قليل جدا. وقال ﷺ وآله: ﴿ بعثت والشمس في أطراف النخيل ﴾ (4) والعاقل يترك القليل العاجل لأجل تحصيل أضعافه في الآجل. ولذلك ترى الخلق في التجارات والحرف يتحملون التعب والنصب في الحال طمعا في حصول منفعة وراحة في المستقبل تزيد على ما يفوتهم في العاجل زيادة محددة، فكيف لا يسمحون بترك لذة عاجلة للتوصل إلى نعيم الأبد وسعادة السرمد؟ ولكن فتور الخلق عن سلوك طريق السعادة إنما هو لضعف إيمانهم باليوم الآخر وضعف إيمانهم بسببه الغفلة عن الفكرة في المعاد وعن شهود الوعد والوعيد، وتلك الغفلة مستمرة لأوقاتهم، لا ينتبهون منها ما دامت متوالية وهي كذلك. وليس

(1) سورة الزخرف - آية 71

(2) سورة السجدة - آية 17

(3) أخرجه الدارمي في كتاب الرق وأحمد في المسند 313/2، 37، 47

(4) وعند البخاري في كتاب الرق، والطلاق، والتفسير، والجمعة، ومسلم في الجمعة والفقهاء وابن ماجه في المقدمة، والفقهاء، والدارمي في الرق، وأحمد 39/4، 92/5 بلفظ: ((بعثت أنا والساعة كهاتين))

لهم واعظ مخلص ولا مذكر زكي القلب لأن البلاد قد خلت من مثل هذا، ولو فرض ووجد عالم زكي القلب يذكر الناس ويعظهم لم يلتفت إليه وإذا التفت إليه وأذعنت النفس للقبول منه والعزم على التوبة هجم عليها عقيب ذلك عوارض الشهوات ومحبة الراحة والكسل ونيل اللذات وقضاء الأوطار، فعارضت تلك الشهوات ذلك الباعث الضعيف على التوبة فمحنته وأزالت أثره وأعادت حجاب الغفلة، ويكون ذلك دأب باعث المعاصي مع باعث التوبة والطاعة أبدا مادام الإنسان حيا، لا يزال هذا دأبه إلى الموت وعند ذلك لا يبقى له إلا التحسر بعد الفوت، ولا يغني عنه التحسر شيئا. وكان النبي ﷺ كثيرا ما ينذر قومه وعشيرته ويوقظهم من نوم الغفلة وينذرهم بنذير الله ويقول: ﴿ يا معشر قريش - أو نحو ذلك - اشترؤا نفوسكم لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا، يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئا ﴾ وعنه ﷺ: ﴿ جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم، وما من أحد إلا وله شيطان وإن الله أعانني على شيطاني حتى ملكته ﴾.

التمييز بين دعوة العقل ودعوة الهوى:

اعلم أنه يلتبس على بعض الناس دعوة العقل بدعوة الهوى، فيظن أنه منقاد للعقل متبع دواعي الشرع وهو في الحقيقة شيطان مرید لأنه ما تبع إلا هواه، وما انقاد إلا لشهواته.. وهو يتعلل لأغراضه لأنها من الدين، وأن طلبه لها من الدين، حتى أن جماعة اشتغلوا بالوعظ والتذكير والقضايا والفتيا وتدريس العلوم والخطابة وأنواع الرياسة وهم فيه متبعون للهوى، ويزعمون أن باعثهم الدين ويحركهم لهذه الأمور طلب الثواب ومناقشتهم فيها من جهة الشرع. وهم في ذلك مغرورون. ويكشف لهم عن زلتهم وغرورهم أن الواحد منهم إن كان يفعل لله تعالى وقصده دعوة الخلق إلى الله تعالى وإرشادهم ونصحهم، فلا يعتم ولا يسوءه إذا جاء مكانه واعظ غيره أو قاض غيره أو متصد غيره ممن هو أحسن سيرة منه وأكثر منه علما وأنصح للناس وتضاعف إقبال الناس عليه ليفرح به ويسر بوجوده، ويشكر الله تعالى على سقوط هذا الفرض عنه

بغيره ومن هو أولى منه به فإن كان كذلك فهو صادق وهيهات أن يكون كذلك. فإن قلت: فإذا كان لا يأمن مثل هذا التلبيس والانخداع ببروز الشيطان وغروره كما حكيت عن هؤلاء المغرورين فبم تميز بين دعوة العقل ودعوة الهوى؟ قلنا الذي ينبغي أن يرجع إليه عند هذا التحير أن يعلم أن العقل في أكثر الأمور يشير بالأصلح للعواقب وإن كان فيه ثقل أو مشقة في الحال، والهوى يشير بطلب الراحة وترك التكلف، فمهما عرض لك أمران ولم تدر أيهما أصوب فعليك بما تكره لا بما تحواه، فأكثر الخير فيما يكرهه الإنسان، قال تعالى: ﴿فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ وقال ﷺ: ﴿حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات﴾⁽¹⁾ و بالجملة فكل ما سعت إليه نفسك مما فيه لذة ووطر وراحة ورفاهية وحط الكلف في الحال فاقم نفسك فيه فإن حبك الشيء يعمي ويصم، وما يترجح في قلبك من الإقبال على العبادة والاحتراز عن خطر الآخرة واجتناب مخالفة الله تعالى في أمره ونهيهِ فهو من إشارة العقل فخذ به والزمه.

المجاهدة لا تتم إلا بالثبوت ولا تتحقق إلا بالصبر:

كانت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على غاية ما يمكن من المجاهدة لأنفسهم مع أنهم مقطوع لهم بالفوز والدرجات العالية يأمرهم أتباعهم بالمجاهدة لأنفسهم، وكان في التابعين المجاهدون الصابرون، وبلغ من أمر جماعة من الصحابة في المجاهدة مبلغاً عجز عنه من جاء بعدهم من الخلق. هذا ولا تتم المجاهدة إلا بالثبوت ولا تتحقق إلا بالصبر فإذا عرض للمريد عارض الهوى والشهوة احتاج إلى الثبوت والصبر. وأما وجه احتياجه إلى الثبات فلأن الثبات حاجز بين العبد وبين المعصية، ويقوي عند الثبات الخوف بالوعيد والرجاء والحياء من الله تعالى لعظمته وجلاله ونعمه وإحسانه.

(1) أخرجه مسلم في الجنة، وأبو داود في السنة، والترمذي، في الجنة، والنسائي في

الإيمان، والدارمي في الرق، وأحمد في المسند 2/26، 3/333، 153/254،

وحقيقة الثبوت هو التوقف والتأني قبل الفعل ليتبين للفاعل غوائل الفعل وقبح عاقبته. وأقوى المثبتين وأشدهم رعاية لحقوق الله تعالى ومراقبة لعظمته وجلاله من راعي أحكام الله تعالى المتعلقة بأفعاله عند وقوع الخواطر الداعية إلى العزم والأفعال، ولم تعمه الشهوة ولم تستهوه اللذة. وحديث النفس معفو عنه شرعا لقوله ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿عفي عن أمي ما حدثت به نفوسها﴾. والذي يعصي المكلف به هو ترك الثبوت في الفعل المحرم عند وقوع العزم عليه، وكذلك يعصي بترك الثبوت في الفعل الذي يجهل حكمه، ويعصي بعدم الثبوت عند الشروع في الفعل والأخذ منه والاسترسال فيه بطريق الأولى. وأما وجه احتياج المجاهد إلى الصبر فظاهر لأن الله تعالى خلق الإنسان مطبوعا على الشهوات والميل للذات والنفرة عن كل مؤلم ومشق، فيحتاج المجاهد لثبته إلى الصبر كما يحتاج إلى الثبوت قال تعالى: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوي فإن الجنة هي المأوى﴾⁽¹⁾

مجاهدة النفس بالرفق والتدرج:

و اعلم أنه يجب أن تكون المجاهدة والرياضة بالتنقل والتدرج والرفق بالنفس شيئا فشيئا، ولا يهجم عليها بما يشق عليها من الأعمال فتتفر منه نفورا شديدا يخشى منه الترك والخروج بالكلية، فيجب الرفق بما إلى أن تتعود ذلك. وهذا هو الذي نبه عليه عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى﴾.

فإذا أراد المجاهدة نقل نفسه عن عوائدها المذمومة إلى المحمودة، فليمنعها من الفعل المذموم، وليذكرها ما ورد من الوعيد على فعل المذموم والوعد على فعل الحمود، فإن ثقل عليه ذلك قطع عنها لذاتها الناجزة وداوى نفسه بترك الشهوات العاجلة، ومن عزم على تحصيل مقام السخاء مثلا فطريقه إلزام نفسه القيام بإخراج الواجب من الزكاة والندور والكفارات ونفقة الأب والأولاد الصغار والزوجة وغيرهم من العيال،

(1) سورة النازعات - آية 4 - 41

فإذا قام بذلك بسهولة عود نفسه الإنفاق في المندوب. وإذا وصل إلى ذلك آثر على نفسه ذوي الحاجات، ثم ينتقل إلى الزهد في حظوظ نفسه في الترفه والراحات. فهذه طريق المجاهدة والرياضة يدرج العبد نفسه في سلوك الطريق إلى مولاه مع الرفق بنفسه. والانتقاع إلى الأعمال دفعة وإخراج ما في اليد دفعة واحدة منهي عنه، فإن قيل إن الصديق عليه السلام أتى بجميع ماله إلى النبي ﷺ ليخرجه في سبيل الله، قلنا: ذلك لأن الحاجة كانت إليه متأكدة إذ كان ذلك وقت فاقة وضرورة وبالمسلمين حاجة إليه، وأيضا فإن الصديق كان عنده من الوثوق والصبر واليقين بالله تعالى ما ليس عند غيره. ولا بأس أيضا بأن يرقع المجاهدة لنفسه بالعبادة بشيء من المباحات ليقوى بذلك على الطاعات، وينتفي عن الملل ويزول عنه السأم. قال الإمام علي عليه السلام روحا النفوس فإنها إذا كرهت عميت ﴿﴾ والشريعة جاءت بمداواة النفوس المريضة وتطبيب القلوب المعلولة.

مجاهدة الخواص:

لما كانت المجاهدات إنما قررها الشرع لمداواة النفوس وسياستها حتى تنطبع على الجميل الشرعي، وتقلل من الدنيا فراغا للقلب من الاشتغال بغير ما خلق الإنسان له، كان ولا بد من السير مع النفس برفق حتى لا تمل ولا تنقطع ولا تتعاصي على المرید، فإذا صفت النفس وطهرت من لقسها وأشرقت عليها أنوار ملكوت الله الأعلى تميزت لها المراتب وظهر الفاني والباقي وما ينفع في الآجل وما يضر، انجذبت بالكلية إلى الخير بحسب مقامها الذي وصلت إليه. فقد يكون الخير المقصود لها الجنة فتزهد في الدنيا وما فيها إلا ما يوصل للمقصود، وقد يكون المقصود مقعد صدق فتقبل بالكلية إلى نيل الكمالات الروحانية بالعلم والمعرفة، وقد يكون المقصود الرضوان الأكبر فتتصب بكليتها على الذكر الأكبر. وفي كل مقام من المقامات تتخلي عن مألوفاتها مما لا يسع هذا المختصر شرحه ن وقد يكون المقصود النظر إلى الوجه المقدس فيصغر في عينها كل شيء. ومراتب المجاهدات تكليف فتعريف فمجاهدة فقربات فتلذذ بالشدائد

والمتاعب، وقد ألمعنا إلى نموذج من هذا كتاب (شراب الأرواح) وفي كتاب (مذكرة المرشد و المسترشد) عندما شرحنا أحوال المسلم والمؤمن والمحسن والموقن. وفي كتاب (أصول الوصول) عند مقام التوكل والرضا والتفويض. فإذا انتقل المرید من مقام التكليف إلى التعريف بذل النفس والنفيس في طلب الرجل ليتلقى عنه أسرار المعرفة، فإذا ظفر بالرجل أبدل صفاته الأولى بصفات أخرى. فأبدل العز بالذل للرجل، والأمن بالخوف، والعلم بالجهل والتكبر بالتواضع حتى إذا رآه معارفه أنكروا عليه وشنعوا عليه. وربما خرج الرجل من ماله وجاهه لمن يعرفه ربه متلذذا فرحا. ولكن لا يحسن هذا إلا لمن انتقل من التكليف إلى التعريف واستعدت نفسه لتلقي أسرار الحكمة وغوامض أسرار الغيوب. ويكون النظر في وجه الرجل خير له من عبادة سبعين سنة. فكيف لا يكون خيرا من ماله؟

و لا يكون ذلك حقا إلا إذا كان الرجل رجلا حقيقيا وارثا لرسول الله ﷺ علما وعملا وحالا وخلقا، حتى تكون الصحبة صحبة لرسول الله ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم، والمواجهة مواجهة لرسول الله ﷺ والسير على صراط الله، والعمل على سنة رسول الله، والحال من روحانية رسول الله ﷺ. عند ذلك يجلو التفضح ويجمل خرق العادة من مألوفاته وأحواله، ويطيب تحمل الشدائد بلذة واستقبال المصائب بسرور، والإعراض عن الجاهلين ومخالفة النصحاء الذين لا يعملون حاله ولم يذوقوا مذاقه. والأجمل عندي بهذا المرید الصادق أن يستر نفسه من الخلق ويجتهد في مداراتهم فراغا لقلبه من الاشتغال بهم، وسترا له عن أعين عمياء عن شهوده، وقلوب غلف عن استخضار أحواله، وأذان صماء عن سماع الحكمة. وإلا كان ذلك شغلا لقلبه وضررا لغيره. ولا الوم على رجل نظر بعيني رأسه هوة أمامه تسكنها الأفاعي وتأوي إليها الحشرات المضرة ففر منها إلى ما رآه أمنا وسلامة، وحارب من جذبه إليها ولا م عليه على الفرار منها، وليس من شهد بعيون بصيرته كمن شهد بعيون بصره، وتلك الأحوال العالية والأسرار الغالية لا تكون إلا على يدي الوارث الكامل،

ومن الأفراد المؤهلين للوراثة الحمديّة. وليست دعوي وتقليدا ولا تكلفا وشهرة. ومن ادعاها أو تكلفها لا يلبث إلا ريثما يرجع إلى ما كان عليه. وما انقطع من انقطع بعد الوصال وإنما انقطع من الطريق. وإذا وقعت العين على العين وزال البين من البين وشهدت عين القلب مشاهد عليين النورانية وأعلى عليين سر تنزلات الجمال الإلهي، وظلمات أسفل سافلين هاوية السخط والقطعية والعذاب الأليم، كيف يرجع بعد وصله؟ أو كيف يرتد بعد قربه؟ وقد بشرهم الله بقوله سبحانه وتعالى: (أولئك لهم المن وهم مهتدون) (1) وشنع على قوم ارتدوا بعد إسلامهم لأنهم لم يصلوا بقوله سبحانه: ﴿لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم﴾ (2)

أئمة أهل المجاهدة:

أقمار أهل الصفة الذين كان الرجل منهم عليه السلام ينصرع وهو في الصلاة من الجوع مع أنه يمكنه أن يعمل عملا يكفيه ويكفي مائة معه، ولكنه شهد من مشاهد القرب وسمع من أسرار الحكمة القدسية ما أفناه عن كل لذة زائلة وبهجة فانية، ولكن الله تعالى حفظهم بالأنوار الحمديّة الإلهية من لمة الشيطان ووسوسة الخناس حتى زمان التابعين الذين شهدوا أنوار مواجهات رسول الله عليه السلام في الصحابة، واستمدوا من الفيض الحمدي المفاض على النفوس التي زكاها بنفسه عليه السلام، ثم قام الأفراد المطلوبون للقرب فكانت قلوبهم عامرة بالحب، ولكن شوب تلك الأنوار ببعض الحظوظ والأهواء جعل للشيطان لمة بالقلوب، فكانوا عليهم السلام وأرضاهم يقهرون النفوس على الأعمال الشاقة لتنفطر على الجميل من كل شيء، فكانت تري الرجل منهم يترك العمل للدنيا ويتسول على الناس لتذلل نفسه وتنقاد له، أو يعمل الأعمال المهينة ليحتقر في عين نفسه أو يلقي بنفسه في يم المصاعب والمتاعب بأن يهجر العمران

(1) سورة الأنعام — آية 82

(2) سورة المائدة — آية 41

ويسكن الغابات والصحاري فراغا لقلبه مما يشغله. أو يقيد نفسه ويحبسها في خربة. أو يعرض نفسه لأذية الناس وسبهم، كل ذلك جهادا لنفسه ورياضة لها وقهرا لها لتعينه على نيل السعادة الحقيقية والفوز بالرضوان الأكبر لأنه شهد بنفسه، فإذا انطبعت على الكمال وفطرت على حب الخير ولانت على الطاعة رجع إنسانا كاملا. وكم من سيد من سادات أهل الصفة ممن كان الرجل منهم يتصرعه الجوع تولى الولايات العظيمة وأصبح له خدم وحشم، ولو أن الدنيا بما فيها عرضت إليه في حال مجاهدته لفر منها كما يفر من النار

قهرة النفس بأمر المرشد الكامل الوارث:

كل تلك الكمالات لا ينبغي لمريد سالك أن يتكلفها ولا يقهر نفسه عليها إلا بأمر المرشد الكامل الوارث، لأن للنفوس نزوع إلى المهادى المهلكة تهوي فيها على صورة مجاهدة للنفس على مدارج المجاهدة. كما ترى بعض الناس يحبس نفسه ويصوم النهار ليكون له تصريف ينفع ويضر، وبعضهم يطيل أظافره ويلبس المرقعات ويطأطيء رأسه ويبغض الأكل الطيب والفراش الطيب وينفر من الناس لتكون له الشهرة والسمعة. وبعضهم يترك الأسباب ويدعي وليستريح من عناء طلب الرزق ويجيء له كل شيء، وبعضهم يعمل أعمال الصديقين ويظن لجهله أن اسرار الروحانيات الملكوتية عن عمل أوافق استخدام عفرية، أو إرسال هاتف أو علم بما وراء الجدران أو بما ضاع من الناس، حتى وضعوا كتباً سموها علم الروحاني وجعلوهل قواعد لعمل السحر. كل ذلك لم يكن إلا لقهر النفس على عمل لم يأذن به المرشد ولم يكن على يد وارث. ولا تشك أيها الأخ البار أن النفس إذا صفت من الهموم الكثيرة والاشتغال بها يجلى لها بقدر همة المريد ونيته، فإن كان همته الدنيا كان ذلك منفردا بنفسه أو على يد جاهل بطريق الله، لأن المرشد الحقيقي يعرج بالناس من الدنيا إلى الآخرة، ومن الآخرة لحضرة القدس ولا يهوي بهم.

التسليم للمرشد الكامل:

أعظك أيها الأخ الصالح أن تجتهد في طلب الرجل المرشد الحقيقي، وأنبه فكرك أن تجعل ميزان الرجال أعمال أئمة الهدى من المقتدي بهم، لأن المرشد غير المريد. فالمريد ليس إماما والمرشد إمام يقتدي به. فإذا تحققت أنه على الصراط المستقيم عالم بالطريق والنفوس وطرق تركيتها عارف بالله كن له كالميت بين يديه فإنه عناية الله لا يخرجك إلا مخرج صدق ولا يدخلك إلا مدخل صدق، ولا ينزلك إلا منزلا مباركا. فاخرج له مما أمرك أن تخرج منه وادخل معه فيما أمرك أن تدخل فيه، وانزل معه في كل منزل نزل فيه أو أمرك بالنزول فيه، معتقدا أنك على الحق، مبتهلا إلى الله تعالى أن يمنحك المزيد ويعيدك من السلب. ومهما كانت رياضة النفس ومجاهدتها لا تبلغ بالمريد حدا تخرجه عن سنة رسول الله، أو توقعه في المساخط والملاعن ومعصية الله، فإن ترك الأسباب الفانية والتعلق بالأسباب الموصلة ليس من المعصية وقهر النفس على الأعمال التي نُحقرها في عين المريد كخدمة نعال الإخوان وكرتوك الزينة والبهجة وكرتوك المألوف المعتاد وهجران إخوان السوء وترك الوظائف العالية والرضا بالقليل من الدنيا بأن كان عالما فترك وظيفة العلم وعمل سقاء، وكرتوك التكسب بعمل الرياسة والتكسب بخدمة حمل الأثقال، أو خدمة العامة في الأسواق أو الاتجار أو ترك مجالسة، الأمراء والوزراء ومجالسة الفقراء والمرضي، أو الخروج من ماله ابتغاء مرضات الله تعالى، كل ذلك من المجاهدات الموافقة للسنة. واللوم عليه فيها لا يضره ولا يضر من عارضه لأنه على سنة وهم على سنة. فكأنه بعمله أحيا سننا خفية وأعان الناس على أحياء سنن جلية. وليس من خرج عن حصون الشريعة وظن أنه يركي نفسه بمريد لأنه أضر نفسه وأضر غيره، أما أضر نفسه فلائن عمل ما لا يؤمر به شرعا ولا يكلف به من الأستاذ فكان مخالفا للشرع مخالفا للمرشد، وأما ضرره لغيره فإن من الناس من يقلده ومنهم من يشنع على المرشد الكامل فيكون وأضر نفسه وشنع الناس على المرشد بسببه وأكمل مريد من جعل مجاهدته لنفسه وخروجه عن الاعتدال أمام من لا يعرفه، أو يخرج عن الاعتدال بقهرها على ما يحبه الله ورسوله ليكون قدوة

لإخوانه ونجماً مشرقاً في سبيل الهداية وأخاً معيناً للمرشد على عمله. ومن دعتة نفسه إلى غير ما قررت فالواجب عليه المسارعة إلى التوبة والرجوع إلى ما قررت وانتظار إشارة المرشد بصدق عزيمة وطهارة طوية وإخلاص نية مفارقاً نفسه وكل مخالف له. فإن المرشد الكامل أعلم بنفسك وبخلاصها منك، وأعلم بما تتحملة من الأعمال وما تستطيعه من الأحوال والله سبحانه أسأل أن يمن على وعلي إخواني جميعاً بالتوفيق لما يجب من الأقوال والأعمال والأحوال إنه مجيب الدعاء وصلي الله على سيدنا مُحَمَّد وعلي آله وصحبه وسلم.

المتحابون في الله:

بسند الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُونَ لِحَالِي، الْيَوْمَ أَظْلَهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي﴾ (1) وقال رسول الله ﷺ: ﴿سَبْعَةٌ يَظْلُهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مَعْلُوقٌ بِالْمَسْجِدِ إِلَيْهِ خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَتَفَرَّقَا، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ ذَاتٌ حَسَبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالَهُ مَا تَنْفَقُ يَمِينُهُ﴾ (2) وعنه ﷺ أنه قال: ﴿إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ قَالَ لِجِبْرِيلَ: قَدْ أَحْبَبْتَ فَلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيَحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يَنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فَلَانًا فَأَحْبِبُوهُ فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوَضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي

(1) أخرجه مسلم في البر، الترمذي في الزهد، الدارمي في الرق، ومالك في كتاب

الشعر، وأحمد في المسند 2/237، 228، 87/3، 128، 386

(1) أخرجه البخاري في الاذان، والزاكاة، والرق، والحدود، ومسلم في الزكاة، والترمذي في الزهد

والنسائي في القضاء، والموطأ في الشعر، وأحمد في المسند 2/439

(2) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، والأدب، والتوحيد، ومسلم في البر، والترمذي في التفسير

والموطأ في الشعر، وأحمد في المسند 2/267، 341، 29/5

الأرض. وإذا أبغض الله العبد.. قال مالك: لا أحسبه إلا أنه قال في البغض مثل ذلك ﴿⁽¹⁾ انتهى ما أورده الإمام مالك رحمته﴾.

من الأحاديث الصحاح:

قال رسول الله ﷺ: ﴿الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف﴾ ⁽²⁾ وقال ﷺ: ﴿إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض. وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلانا فأبغضه، قال فيبغضنه، ثم توضع له البغضاء في الأرض﴾ ⁽³⁾ وقال ﷺ: ﴿إن الله تبارك وتعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي﴾ ⁽⁴⁾، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: ﴿إن رجلا زار أخاه في قرية أخرى، فأرصد الله له على مدرجته ملكا قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لي في هذه القرية، قال هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله، قال: فلإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما

(3) أخرجه مسلم في البر، وأبو داود في الأدب، وأحمد في المسند 2/295، والبخاري في الأنبياء، انظر البخاري بشرح الكرماني 13/23.

(4) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق والملوطاً في الشعر

(4) أخرجه مسلم في البر والترمذي في الزهد والدارمي في الرق، والملوطاً في الشعر، أحمد في المسند 2/237، 3/87، 4/128، 386

(2) أخرجه أحمد في المسند 2/292، 48

(3) أخرجه البخاري في الأدب ومسلم في البر

(4) أخرجه البخاري في الاحكام وفضائل الصحابة ومسلم في البر والترمذي في الزهد،

والدارمفي الرق، وأحمد في المسند 3/14، 11

أحبته فيه⁽¹⁾ عن أبي مسعود أنه قال: ﴿ جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف تقول في رجل أحب قوما ولم يلحق بهم ؟ فقال ﷺ المرء مع من أحب ﴾⁽²⁾ عن أنس أن رجلا قال: ﴿ يا رسول الله متى الساعة ؟ قال: ويملك وما أعددت لها، قال ما أعددت لها إلا أني أحب الله ورسوله، قال ﷺ أنت مع من أحببت ﴾⁽³⁾ وقال رسول الله ﷺ: ﴿ مثل المجلس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يجذبك وإما أن تتباع منه وأما أن تجد منه ريحا طيبه ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة ﴾⁽⁴⁾

من الأحاديث الحسان:

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: وجبت محبتي للمتحابين في، والمتجالسين في، والمتزاورين في، والمتبازلين في⁽⁵⁾ وفي رواية قال: يقول الله تعالى: ﴿ المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغطهم النبيون والشهداء ﴾⁽⁶⁾ عن أبي مالك الأشعري انه قال: كنت عند النبي ﷺ إذ قال: ﴿ إن لله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغطهم النبيون والشهداء بقرهم ومقعدهم من الله يوم القيامة، فقال أعرابي: يا رسول الله من هم ؟ فقال هم عباد من عباد الله، من بلدان شتي وقبائل شتي لم يكن بينهم أرحام يتواصلون بها، ولا

(5) أخرجه البخاري في كتاب الذبائح والبيوع ومسلم في البر و ابو داود في الأدب، أحمد في المسند 44،45/4

(5) أخرجه مالك في الموطأ في كتاب الشعر وأحمد في المسند 229/5، 232

(6) أخرجه الترمذي في الزهد وأحمد في المسند 5 / 236، 237، 239

(3) أخرجه الترمذي في الجنة والزهد والنسائي في القضاء وابن ماجه في الزهد، أحمد في المسند 16/2، 229/5، 237

دنيا يتبادلون بها، يتحابون بروح الله، ويجعل الله وجوههم نورا، وتجعل لهم منابر من نور قدام عرش الرحمن، يفرح الناس ولا يفرحون، يخاف الناس ولا يخافون ﴿⁽¹⁾﴾ عن ابن عباس أنه قال: قال رسول الله ﴿⁽²⁾﴾: لأبي ذر: (يا أبا ذر أي عري الإيمان أوثق؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال الموالاة في الله والحب في الله والبغض في الله) ﴿⁽²⁾﴾ وعن أبي هريرة أن النبي ﴿⁽³⁾﴾ قال: (إذا عاد المسلم أخاه أو زاره قال الله عز وجل طبت وطاب ممشاك وتبوات من الجنة منزلا) ﴿⁽³⁾﴾ عن المقدم بن معد يكرب عن النبي ﴿⁽⁴⁾﴾ أنه قال: (إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه) ﴿⁽⁴⁾﴾.

عن أنس أنه قال: (مر رجل بالنبي ﴿⁽⁵⁾﴾ وعنده ناس فقال رجل ممن عنده: إنني لأحب هذا الله، فقال النبي: ﴿⁽⁵⁾﴾ أعلمته؟ قال: لا، قال: قم إليه فأعلمه، فقام إليه فأعلمه فقال: أحبك الذي أحببتني له، قال: ثم رجع فسأله النبي فأخبره بما قال، فقال النبي: أنت مع من أحببت ولك ما أحسبت ﴿⁽⁶⁾﴾ وفي رواية: ﴿⁽⁶⁾﴾ المرء مع من أحب وله ما اكتسب ﴿⁽⁵⁾﴾ وعن أبي سعيد أنه سمع النبي ﴿⁽⁷⁾﴾ يقول: ﴿⁽⁷⁾﴾ لا تصاحب إلا مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلا تقي ﴿⁽⁶⁾﴾ وعن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﴿⁽⁷⁾﴾: ﴿⁽⁷⁾﴾ المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل ﴿⁽⁷⁾﴾ عن

(4) وعند البخاري في كتاب الإيمان و أبو داود في السنة أحمد في الزهد، وأحمد في المسند (الحب لله والبغض في الله من الإيمان)

(1) أخرجه الترمذي في البر، وابن ماجه في الجنائز، وأحمد في المسند 326/2، 344

(4) أخرجه أبو داود في الأدب، أحمد في المسند 13/4 والترمذي في الزهد بلفظ ((إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه أنه يحبه))

(5) أخرجه البخاري في الفضائل الصحابة، الأدب و الدارمي في الرق، وأحمد في المسند 156/5،

166

(6) أخرجه أبو داود في الأدب والتزمى في الزهد

(7) أخرجه أبو داود في الأدب والتزمى في الزهد، وأحمد في المسند 33/2، 334

يزيد بن نعامة أنه قال: قال رسول الله ﷺ ﴿ إذا آخي الرجل الرجل فليساله عن اسمه واسم أبيه وممن هو، فإنه أوصل للمودة ﴾ (1).

قال ﷺ ﴿ نظرة في وجه أخ في الله على شوق إليه، خير من أجر من اعتكف في مسجدي هذا أربعين سنة ﴾

هذه الأحاديث النبوية وردت في الحث على اتخاذ الإخوان والإكثار منهم، وقد تقدم لنا في كتاب: (معارج المقربين) تفصيلا وافيا في هذا الموضوع، بينا فيه طريق انتقاء الإخوان ومعرفتهم والمحافظة عليهم، إنما أريد أن أشرح هنا بعض ما يخفي على الإخوان.

خير الإخوان:

معلوم أن الأخ الكامل آخر هو أنت والأخ غير الكامل عضو متمم لك، ولما كان الإنسان في نفسه قد تعثره بعض أمراض في عضو من الأعضاء أو في كل جسمه فكذلك قد تعثر الأخ غير الكامل أمراض وقد يعتري الأخ الكامل فتور فالواجب على الأخ أن يبذل ما في وسعه لحصول الصفاء بينه وبين أخيه، كما يبذل وسعه في معالجة العضو إذا مرض ليدوم له الصفاء وللأخ كما تدوم له الراحة والعافية، وإن من الناس من يبذل وسعه في اتخاذ الإخوان ثم يتساهل في المحافظة عليهم فتحصل الجفوة بينهم وربما انقلب صاحب عدوا بسبب عدم المحافظة على روابط الإخاء، فإن للأخ كلما تقادم عهد الإخاء حقوقا على أخيه توجيهها الصداقة الخالصة، وتحلل المحبة في جميع أجزاء الجسم حتى يري كل أخ أن أخاه كنزه وذخره ونفسه التي بين جنبيه فتكثر طلباته وترتفع الكلفة بينه وبينه وتكون الهفوة الصغيرة من الأخ الصادق كأكثر أذية

(1) أخرجه الترمذي في الذهب

من غيره، فعلي الأخ أن يبدي لأخيه البشاشة وخصوصا عندما يطلب منه حاجة. وأن يكون صادقا معه يقوم له بما يجب عليه ولا يطالبه بالواجب لنفسه. وخير الإخوان من واساك ومن إذا أطعت ربك أعانك وإذا نسيت ذكره ذكرك وإذا هممت بمعصية رذك. وليس بأخ من حسدك على النعمة ونهاك عن الطاعة وأنساك ذكر الله وأعانك على المعصية، ولكنه عدو مبين وشيطان لعين وأخوك حقا من أحبك لمعان عالية للعلم أو العمل به أو للفضائل النفسانية والأعمال الصالحة ومعرفة الله تعالى والرغبة فيما عند الله تعالى وخوف مقامه سبحانه وتعالى والمسارعة إلى مغفرة الله ونيل رضوانه ومن أحبك لتلك المعاني أو لبعضها فهو الأخ حقا والصديق صدقا، ومن أحبك لمال أو لجاه أو لوظيفة أو لقوة جسمانية أو لينال بك حاجته فليس بأخ لك ولكنه أخ لما أحب، فاحتفظ منه على نفسك ولا تغتر به ولا بأمثاله فإنهم كثيرون والمضار التي تحصل للرجال أكثرها من هؤلاء وأحب أن تعامل الله في كل إخوانك معاملة ترضيه سبحانه وترضي رسوله ﷺ وأحب أن تكون باذلا وسعك في منفعة إخوانك وأن تكف أذيتك عنهم ومتاعبك ليكون الله في عونك. والله تعالى أسأل أن يعيننا على القيام بالواجب إنه مجيب الدعاء ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الخاتمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله المنعم الوهاب الفتاح العليم الذي علم من شاء الحكمة وفصل الخطاب،
والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا مُحَمَّد وآله. اللهم إني أسألك ستر عورتي وغفران
ذنوبي. وأبرأ اللهم إليك من شر نفسي ومن كل قول قلته أو فهم فهمته أو مبهم بينته
أو مجمل فصلته لم أهدت فيه للصواب لتسرعي وغفلتي ونسياني، وأسألك يا مجيب
المضطر إذا دعاه يا قابل التوب وغافر الذنب أن تجعل ما ألهمتني إياه وأعتنتي على
بيانه وشرحت صدري لتدوينه من الحق والخير الحقيقي والنفع خالصا لوجهك الكريم،
تنفعي به وتنفع إخواني المسلمين. اللهم ما كان حقا مما وفقت وأعنت على وضعه
فاجعله خالصا لوجهك الكريم ووسعة لي في قبوري ونورا لي يوم لقائك، وترفعني منك
يا إلهي به الدرجات العلاء. وما وقع مني مما أنا أهله من العجلة والنسيان والخطأ
فاستره يا إلهي بغفرانك واجعله يا إلهي محمولا على جانب عفوك وعمم يا إلهي
فضلك العظيم لي ولأهلي وأولادي وإخواني، (لا إله الا أنت سبحانك إني كنت من
الظالمين، فاستجبنا له ونجيناها من الغم وكذلك ننجي المؤمنين) وصلى الله على سيدنا
مُحَمَّد خاتم الأنبياء والمرسلين وفتح أبواب الخير العظيم وآله وسلم.

الخويدم المسكين

عبد الله

مُحَمَّد ماضي أبو العزائم

النور المبين

طبعة نهائية